١٢٨٦٢

مستويات العربيّة المعاصرة في مصر

بحث
في علاقة اللغة بالحضارة

تأليف
الدكتور السعيد محمد بدوى
ماجستير ودكتوراه علم اللغة والأصوات – جامعة لندن
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

phonetics-acoustics.blogspot.com

دار المعارف بمصر

« إن النهضة اللغوية هى فى الحقيقة نوع من النهضة الاجتماعية الشاملة التى تتطلع إليها الشعوب الحديثة فى الشرق » .

لويس ماسينيون

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

عن المنهج

لم تكن الدراسات العربية أحوج ما تكون إلى المنهج العلمى منها فى الوقت الحاضر. فارتباط الفصحى بالقرآن منذ فجر الإسلام ، ثم ارتباطها بالقومية العربية فى العصر الحديث جعل رؤية واقع اللغة ، ودراسة هذا الواقع كما هو — وخاصة المسائل الخلافية كمسألة الفصحى والعامية — جعل كل ذلك من أشق الأمور على الباحث العربى المسلم . وقد نشأت فى هذا الميدان — طيلة التاريخ الطويل المتصل من حياة اللغة العربية — أفكار بعضها صحيح وبعضها فاسد غير أن توارثها جيلا بعد جيل — دون أن تجد من يتفحصها تفحصاً موضوعياً — أعطاها قوة القانون ، وغرسها فى الضمائر ، بل وأحاطها بجو يشبه التقديس الدينى إلى حد أصبحت تعامل معه معاملة المسلمات التى يبنى عليها الاستدلال وتبدأ منها المناقشة بدلا من أن تخضع هى أولا — كما ينبغى — للفحص والتمحيص .

والدراسات العربية مملوءة بمثل هذه المشاكل . ولكن ما يعنينا منها هنا هو واقع العربية فى مصر اليوم . فهدف هذا البحث هو بيان التركيب اللغوى للمجتمع المصرى المعاصر . ووسيلتنا إلى ذلك هى باستخدام المنهج العلمى الذى يقوم على الاستقراء والملاحظة . أو بعبارة أخرى إخضاع الدرس العربى لمناهج البحث اللغوى الحديث . وهذا ليس بالأمر الهين . فقد درجنا على وجود الانفصال بين فكرتنا أو مسلماتنا عن التركيب اللغوى للمجتمع المصرى ، وطريقتنا فى استخلاص هذه الأفكار من ناحية وبين الأصول اللغوية العلمية التى نعتنقها ونتدارسها من ناحية أخرى .

فمثلا من الأفكار الشائعة التى تصل درجة المسلمات أن التركيب اللغوى للمجتمع المصرى يقوم على محورين : الفصحى فى أقصى اليمين والعامية فى أقصى اليسار ، دون أن يكون بينهما أى لقاء « مشروع » أو حتى لقاء غير مشروع . صحة مطلقة فى ناحية وخطأ مطلق فى الأخرى ، أبيض وأسود ، ولا شىء بينهما يكسر حدة الانتقال من الواحد إلى الآخر . وحتى فى الحالات القليلة التى رأى فيها البعض إمكان وجود

شيء ذى صلة أو جسر بينهما كما حدث عندما نادى توفيق الحكيم بالنمط المتوسط الذى سماه باللغة الثالثة – فى تلك الحالات القليلة لم ير هذا البعض فى تلك اللغة واقعاً موجوداً بل تخيل ذلك دعوة أو محاولة لإيجاد شيء ليس موجوداً فعلا[1] .

ومع ذلك فالأصول اللغوية العلمية التى نؤمن بها وندرسها فى الجامعة ، بل ونأخذها قضية مسلماً بها أيضاً – هذه الأصول تتناقض مع تلك الأفكار المتعلقة بالعربية وتقوم على أساس هام هو استحالة الفصل بين ألوان النشاط اللغوى داخل المجتمع الواحد سواء على الامتداد الرأسى أو الامتداد الأفقى للغة . فنحن ندرس أن النشاط اللغوى يمتد أفقياً داخل المجتمع ويتنوع فيما يسمى باللهجات الجغرافية (مثل لهجة الشرقية ولهجة دمياط . . . إلخ) تلك التى تتدرج جنباً إلى جنب متداخلة من أول نقطة على الحدود الجغرافية للمنطقة موضوع الدراسة إلى أقصى نقطة على حدودها الأخرى . كما ندرس أيضاً أن النشاط اللغوى فى أى نقطة جغرافية محددة يمتد رأسياً ويتنوع فيما يسمى باللهجات الطبقية (مثل لهجة العوام ولهجة المتعلمين . . . إلخ) تلك التى تتراكب متداخلة بعضها فوق بعض من أدنى مستوى طبقى يمثله معدمو العوام صعوداً إلى أعلى مستوى طبقى يمثله صفوة المثقفين مارين فى صعودنا بمستويات الأنصاف وأنصاف الأنصاف وأنصاف أنصاف الأنصاف . . . إلخ .

وبعد أن نقرر واقعية هذه الصورة نسارع بالقول بأنه لا يمكن علمياً أن نضع خطاً محدداً يعين الحدود المادية التى تفصل بين لهجة أو لون من الخطاب ولون آخر سواء على الامتداد الأفقى أو الرأسى . فالحد الجغرافى الإدارى بين الوجهين البحرى والقبلى مثلا يمتد مارا فوق نقاط أرضية كثيرة منها الخط العرضى الذى يقسم « كوبرى » امبابة إلى قسمين متساويين . ومع ذلك فنحن لا نحتاج إلى البرهنة على أن الذى ينتقل من أحد طرفى الكوبرى إلى طرفه الآخر لن يجد الناس يتكلمون لهجة « البحارة » فى جانب ولهجة « الصعايدة » فى الجانب الآخر . ولكن لو ركب أحدنا قطار الصعيد من محطة القاهرة ثم راح فى سبات عميق لم يفق منه إلا فى أسيوط مثلا فسيروعه الفرق

(١) أنظر مسرحية « الصفقة » لتوفيق الحكيم حيث يقول « كان لا بد لى من تجربة ثالثة لإيجاد لغة صحيحة لا تجافى قواعد الفصحى وهى فى نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص ولا ينافى طبائعهم ولا جو حياتهم . » ص ١٥٧ – ١٥٨ .

الواضح فى اللهجة بين من خلفهم وراءه فى القاهرة وبين من أصبح فى وسطهم بعد استيقاظه . فأين إذن الحد بين اللهجتين ؟

ومثل ذلك يصدق على الانتقال « أو الصعود » رأسياً : فليس هناك حد واقعى أو قاعدة حقيقية تقسم الناس جميعهم إلى قسمين واضحين مثقف وغير مثقف (كما لم يكن هناك خط واقعى يفصل بين لهجتى الصعيد والوجه البحرى على الرغم من وجود الخط الإدارى) . ذلك أن الناس يتدرجون فى صفة الثقافة صعوداً أو هبوطاً حسب الاتجاه . فكل إنسان فيه قدر من الثقافة وفيه فى الوقت ذاته قدر من عدم الثقافة . ومن غير الممكن عملياً أن نضع الخط الفاصل بين الطبقتين فى نقطة محددة . حقيقة نستطيع أن نأخذ نقطة فى أعلى « السلم » الثقافى وأخرى فى أسفله مثلا (كما فعلنا فى حالة القاهرة وأسيوط) ونقول إن هذه درجة المثقفين وتلك درجة غيرهم . وتعكس هذه الصورة وضع اللهجات الطبقية التى ترتبط بالثقافة وتتدرج تدرجها . ولعل هذا (أى التدرج اللغوى الذى لا يكاد يحس) هو السبب فى أننا جميعاً نستطيع التفاهم معاً مثقفين وغير مثقفين وصعايدة وبحاورة على السواء .

هذه بعض القواعد اللغوية التى نقتنع بها ونتدارسها فى الجامعات ، بل وخارج الجامعات أيضاً . ولكننا – ولا أدرى لذلك سبباً علمياً – لا نطبقها على الواقع المعاصر للغة العربية . فكيف نستطيع أن نعالج قضايا لغة لم ندرسها كما هى فى الواقع ؟ ومن هنا يأتى دور هذا البحث .

إن المجتمع المصرى مجتمع بالغ التعقيد فى كل مظاهره ومقوماته . ومن ثم كانت لغته أيضاً بالغة التعقيد فى كل مظاهرها ومقوماتها . (ألسنا نقول فى دراساتنا اللغوية إن اللغة تعكس طبيعة المجتمع الذى يستخدمها ؟) :

فنحن نصلى بالعربية ، ونتعلم بالعربية ، ونؤلف بالعربية ، ونقرأ بالعربية ، ونكتب بالعربية ، ونحاضر بالعربية ، ونتناقش بالعربية ، ونغنى بالعربية ، ونمزح بالعربية ، ونتشاجر بالعربية ، ونتواد بالعربية ، ونبكى بالعربية ، ونبيع بالعربية ، ونشترى بالعربية ، ونغش بالعربية ، ونتصح بالعربية ، ونكذب بالعربية ، ونصدق بالعربية ، ونكره بالعربية ، ونحب بالعربية ونقوم بكل نشاط لنا فى المجتمع باللغة العربية .

« ونحن » هذه ذات ألوان مختلفة : فنا المتعلمون بأنواعهم المختلفة من خريجى الأزهر ، وخريجى المدارس الخاصة من إيطالية وإنجليزية وفرنسية وألمانية ويونانية من دينية وعلمانية، وخريجى المدارس الحكومية. ومنا خريجو الجامعات المصرية، والجامعات الأوروبية والأمريكية . . . إلخ . ومنا المهندسون والمحامون والمدرسون والأطباء والقضاة، والزراعيون والعلماء والموظفون والتجار . ومنا الحرفيون من حلاقين ونجارين وحدادين وسمكرية وميكانيكيين وسباكين وبنائين وترزية وكوائين وميضين . . . إلخ . ومنا الأميون وأنصاف الأميين من خدم وسعاة وبائعى خضروات و « روبابكيا » ، وزبالين وكسارية ترام وأوتبيس وشرطة . . . إلخ مما لا يحصيه عدٌّ مهما طال . وفى داخل كل قطاع من هذه القطاعات يتدرج أفراده فى اتجاهات عدة من حيث درجة التعليم ودرجة الذكاء والسن والنوع (ذكر أو أنثى) والمنطقة الجغرافية التى نشأ فيها والتى نزح إليها والمنطقة التى يضطر للسكنى فيها والتى يضطر للعمل فيها والطبقة التى نشأ فيها والتى انتقل إليها بمجهوده الخاص والناس الذين يخالطهم بالزواج أو العمل ، واللهجة التى يضطر لاستخدامها فى العمل والأخرى التى يضطر لاستخدامها فى المنزل . . . إلخ .

فإذا ما ضربنا كل أنواع « نحن » هذه (ما ذكرناه منها وما لم نذكره) فى كل ألوان النشاط التى ذكرنا نموذجاً منها (ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بالحاسب الإلكترونى) فسنخرج بأنماط أو درجات أو طبقات من اللغة قد تصل إلى عدة ملايين . فكيف يحق لنا أن نتناسى كل ذلك ونهمله ثم نقول إن لدينا نمطين فقط من اللغة : العامية والفصحى ؟ وكيف ننتظر بعد ذلك أن يكون علاجنا القائم على وصفنا الناقص للظاهرة اللغوية علاجاً كاملا ومفيداً ؟

إننا لو أردنا وصف الواقع اللغوى كما هو فلابد أولا من تقسيم القطر أفقياً إلى لهجات جغرافية ثم نصنف كل واحدة من هذه اللهجات تصنيفاً رأسياً — طبقاً للعوامل التى أشرنا إليها — ونرتبها فى أنماط لغوية واحدة فوق الأخرى . وتقريباً لهذه الصورة المعقدة للواقع اللغوى — قد نستطيع أن نتصور هذه الأنماط اللغوية الماثلة — فى منطقة مثل القاهرة مثلا — متدرجة وكأنها فوق سلم ذى عدد لا يكاد يحصى من الدرجات . وأعلى درجة فى السلم تمثل تمام « الصحة اللغوية » طبقاً للوصف الذى جاءنا به علماء التراث بينما تترتب بقية الأنماط فى تنازل تدريجى إلى أن تصل إلى

أدنى درجة ممكنة حيث تستقر أدنى الأنماط اللغوية المستخدمة فى المجتمع وأقلها شبهاً بالنمط الذى يحتل الدرجة العليا .

إننا لو أخذنا الوصف الذى جاءنا به علماء التراث الأقدمون « للفصحى النقية » واعتبرناه بداية الحد الأعلى فى الصحة اللغوية ثم مررنا به على طول السلم اللغوى المذكور مقارنين به كل إنتاج لغوى واقعى سواء بالكتابة أو بالمشافهة فسنخرج بملاحظة تستحق الاهتمام هى أننا سنجد أنفسنا نتدرج فى مستويات أو طبقات من اللغة متراكبة بعضها فوق بعض لا يفصل الواحدة منها عن الأخرى سوى بعض الملامح التافهة التى لا تشكل أساساً كافياً للفصل بينها وبين الطبقة التى تليها . تماماً كما يحدث لو غصنا فى مياه المحيط إذ ننتقل من طبقة إلى أخرى دون أن نرى هناك فواصل بينها تفصلها بعضها عن بعض . ليس هذا فقط بل إننا لو التزمنا بالواقع اللغوى وتناسينا الاصطلاحات التى درجنا عليها فإننا لن نجد فاصلا واضح المعالم فى تدرجنا مما يسمى بالفصحى إلى ما يسمى بالعامية . بمعنى أننا لن نجد نقطة محددة نستطيع أن نضع فيها الحد الفاصل بينهما . تماماً كما عجزنا عن تعيين نقطة نقيم فيها الحدود بين لهجتى الوجه البحرى والصعيد (وأن كان ذلك على امتداد آخر) .

وليس معنى ذلك أنه لا توجد فروق أساسية بين العامية والفصحى . بل معنى ذلك أنه لو أردنا أن نرى الفروق فسيكون علينا أن نقارن بين منطقة « أعالى السلم » بمنطقة « أسافله » (كما فعلنا حينما قارنا بين لهجتى القاهرة وأسيوط) وإن كنا لا نغفل فى الوقت ذاته حقيقة وجود الدرجات التى تصل بين الاثنتين ، بل ومشروعية الاعتراف بوجود هذه الدرجات ودورها فى إبقاء الصلة اللغوية بين أبناء الوطن الواحد قائمة .

ولنأخذ العبارات التالية التى قد نسمعها فى التليفزيون أو فى المناقشات العامة وهى مرتبة ترتيباً تنازلياً بحسب نصيبها من الصحة فى رأى المختصين وهى تصور نوعاً من التدرج المشار إليه :

١ — هذا موضوعٌ يُهِمُّ كُلَّ الآباء والمربّين .

٢ — هذا موضوعٌ يَهُمُّ كلَّ الآباء والمربين . (بفتح الياء وضم الهاء فى « يهم »).

٣ – هذا موضوع يهيم" كل "الآباء" والمربين. (بكسر الياء والهاء معاً فى «يهم»).

فالجملة الأولى داخل نطاق الفصحى بلا جدال . فهى تجرى على كل القواعد التى قررها علماء اللغة ، وهى تحتل لذلك قمة السلم اللغوى هنا .

أما الجملة الثانية فإنها تخالف القواعد التى ذكرها النحاة شرطاً لتحقق الصحة اللغوية وذلك فى ست مسائل :

(ا) النطق بالذال زايا .
(ب) تسكين آخر « موضوع » فى الوصل .
(حـ) عدم ضبط ياء المضارعة وعين المضارع (يهم) ضبطاً صحيحاً .
(د) تسكين آخر الفعل المضارع فى الوصل .
(هـ) الخطأ فى علامة إعراب « كل » :
(و) تسكين آخر « الآباء » فى حالة الوصل .

وعلى الرغم من هذه الأخطاء الكثيرة ، وقصر الجملة بالنسبة لعددها – فإن العرف اللغوى المتفق عليه فى الوقت الحاضر يقوم على اعتبار مثل هذا النطق داخل نطاق الفصحى .

أما الجملة الثالثة فإنها تخالف القواعد اللغوية للفصحى فى خمس مسائل فقط هى :

(ا) تسكين آخر « موضوع) وصلا .
(ب) ضبط ياء المضارعة وعين الفعل بالكسر فى « يهم » .
(حـ) تسكين آخر « يهم » وصلا .
(د) تسكين آخر « كل » وصلا .
(هـ) تسكين آخر « الآباء » وصلا .

ومع ذلك فإن العرف يجرى على اعتبار هذه الجملة داخلة فى نطاق العامية لا الفصحى . ذلك أن درجة الخلاف بين رقم (٣) ورقم (١) قد زادت بحيث لم يعد فى الإمكان اعتبارهما من نوع واحد . ويرجع ذلك إلى درجة التغير التى أصابت الفعل « يهم » (بضم أوله وكسر ثانيه طبقاً لقواعد الفصحى) . ففتح أوله وضم ثانيه

فى الجملة الثانية – على الرغم من مخالفته للفصحى – لا يعتبر ابتعاداً كافياً عنها . أما كسر أوله وثانيه فى الجملة الثالثة فهو فرق أدى إلى وضع الجملتين على درجتين متباعدتين من درجات « السلم اللغوى » بحيث دخلت كل منهما فى مستوى يختلف عن المستوى الذى دخلت فيه الجملة الأخرى .

هذه لمحة من صورة التدرج اللغوى كما نراه فى الواقع ، وكما يعكسه تركيب المجتمع ذاته . أما مركز كل فرد منا فوق هذا السلم اللغوى العملاق فهو محصلة قدر هائل من العوامل المتشابكة مثل الميلاد وظروفه والسن والأسرة والمنطقة والنوع ودرجة التعليم والهوايات والوظيفة والقراءات والخبرة . . . إلخ . ونحن لا نحتل مركزاً بعينه يبقى ثابتاً لا يتغير طيلة حياتنا ، بل يعرض لكل منا نوعان من الحركة فوق هذا السلم :

فى كل فترة من فترات حياة الإنسان ، وطبقاً لخبرته وصفاته الشخصية التى اكتسبها حتى تلك الفترة ، يجد نفسه فى منطقة معينة من السلم يتناسب ارتفاعها طرداً وعكساً مع درجة ارتفاع مستواه الثقافى والاجتماعى . وكلما تقدم فى السن وازدادت ثقافته واتسعت صلاته اللغوية (إما عن طريق المشافهة أو القراءة) ارتفع فى السلم اللغوى وانتقل ليحتل منطقة أرقى من التى كان فيها . وهذا النوع من الانتقال – ويمكن أن نطلق عليه اسم « التطور اللغوى للشخص » – لا يحدث كثيراً فى حياة المرء بالطبع . بل إن بعض الأشخاص من محدودى الثقافة قد تتركب حياتهم اللغوية كلها من مرحلتين اثنتين فقط من مراحل هذا التطور اللغوى : مرحلة ما قبل البلوغ ومرحلة ما بعد البلوغ . بينما تتركب حياة غيره ممن هم أسعد منه حظاً من مراحل كثيرة : مرحلة الطفولة ومرحلة المدرسة الابتدائية ومرحلة المدرسة الإعدادية ومرحلة المدرسة الثانوية ومرحلة الجامعة . ثم يخرج إلى الحياة العامة : فإذا قدر له أن يشتغل بعمل يقوم على صناعة اللغة كالعمل فى التدريس، أو المحاماه، أو الخطابة الدينية، أو الصحافة فسيجد أن لغته تتطور وتتقدم، بل ويحس أن أسلوبه الشخصى والكلمات التى يفضلها سواء فى الكتابة أو الحديث تتغير من فترة إلى أخرى . هذا هو النوع الأول من الحركة وهو أولى بأن يطلق عليه اسم « التطور » لأنه يستغرق وقتاً طويلا ويتم بصورة تدريجية .

أما النوع الثانى من الحركة فيتم داخل إطار المنطقة التى يحتلها الفرد من السلم اللغوى . وهو انتقال وقتى يتم بين لحظة وأخرى ويتكيف بتكيف ظروف الكلام ومتطلباته . فقد يستدعى أحد المواقف من شخص ما أن يتكلم فى اجتماع لمناقشة مسألة علمية . فإذا ما جلس متنفساً الصعداء التفت إليه جاره فى المجلس وبدأ معه مناقشة جانبية فى تلك المسألة عينها فإذا ما خرج بعد الحفل فقد يرغب فى شراء بعض الفاكهة من السوق . فإذا ما قارنا بين اللغة التى استخدمها ذلك الشخص فى هذه المواقف الثلاثة فسنجد أنها تترتب ترتباً تنازلياً حسب الدرجة التى تحتلها كل واحدة من السلم اللغوى . ففى الموقف الأول يغلب أن يكون كلامه بالفصحى وفى الثالث بالعامية وفى الثانى بلغة « بين بين » . ويمكن أن يطلق على هذا النوع من الحركة أو الانتقال اللغوى اسم « المرونة اللغوية » . وهى تجرى داخل منطقة يعين حدودها العليا والسفلى صفات المرء الشخصية وبكيفها شداً وجذباً نوع المعاملات اليومية التى يقوم بها .

ولا يقتصر الأمر على الفرد فقط ، بل ينطبق على المجتمع عامة ما ينطبق على الفرد بفارق واحد : هو أنه فى الوقت الذى يتحدد فيه موقف الفرد على السلم اللغوى بعدد قليل من درجات هذا السلم فإن موقف المجتمع عليه يمتد على منطقة أوسع بالطبع. وتعيين حدود المنطقة التى يحتلها المجتمع على السلم اللغوى هى أيضاً محصلة أشياء كثيرة من العوامل التعليمية والثقافية والاقتصادية التى تشكل المجتمع وتعطيه قيمه وصفاته الذاتية . وتترق درجة أبعد من ذلك فنقول إن درجة الحضارة فى المجتمع يمكن تعيينها بدقة طبقاً لموقع المنطقة التى يحتلها على امتداد السلم اللغوى بصفة عامة وطبقاً لموقع المنطقة التى يظهر فيها أكبر قدر من تكتل أفراده على السلم بصفة خاصة . فمثلا إذا قمنا بإحصائية فى إحدى القرى النائية وفحصنا حالة أبنائها وقدرتهم اللغوية لتعين مكان كل منهم على السلم اللغوى فوجدنا أن الغالبية العظمى منهم تتركز فى المناطق السفلى منه ، ثم زرنا مجتمعاً آخر وقمنا بإحصائية مماثلة فوجدنا الغالبية من أبنائه يتركزون فى المناطق العليا من السلم فإن ذلك يعد دليلا قاطعاً على أن المجتمع الثانى أكثر تحضراً من المجتمع الأول . وعلى قدر بعد منطقتيهما على السلم اللغوى يكون الفرق بينهما فى مجال الحضارة .

وهكذا نستطيع القول بأنه كلما زادت الحضارة فى أحد المجتمعات تآكلت الدرجات الدنيا فى سلمه اللغوى فتزاحم أفراده فوق ما بقى من درجاته العليا بحيث يصبح الفارق اللغوى بينهم ضئيلا . ومعنى ذلك ليس ارتقاء المجتمع فحسب ، بل وزوال الفروق الاجتماعية الحادة بين أفراده أيضاً . وعلى العكس من ذلك فكلما قلت الحضارة فى أحد المجتمعات كلما تآكلت الدرجات العليا فى سلمه اللغوى فتزاحم أفراده فوق درجاته الدنيا كما حدث فى عصور الانحطاط الحضارى فى مصر قبل عصر النهضة الحديثة . حقيقة يوجد حتى فى عصور الانحطاط أفراد يمتازون بعبقرية تضعهم فوق سواهم . ولكن حتى هؤلاء تكون درجة عبقريتهم محكومة فى تميزها عادة بالمستوى العام ، كما أنهم يكونون من القلة بحيث لا تغير حالاتهم الفردية الصورة العامة للتوزيع اللغوى . أما إذا تمكنوا من أحداث تغيير اجتماعى شامل فى مجتمعهم (كما حدث فى عام ١٩٥٢) فسيأخذ ذلك شكلا حضارياً يعكسه إعادة التوزيع على السلم اللغوى بالصورة التى ذكرناها هنا . وهذا يفسر السبب فيما حدث من تقارب بين الفصحى والعامية فى الوقت الحاضر إلى درجة تكاد تؤذن بعودة دورة الزمن من جديد .

لقد حاولنا فى هذا البحث أن نصف الواقع اللغوى كما هو فلم نستطع أن نفعل ذلك دون أن نربطه بالقوالب الحضارية التى يعبر عنها ، بل وجدنا أنفسنا بعبارة أدق — نتحدث عن القوالب الحضارية للمجتمع . فألوان الفصحى وألوان العامية هى أنماط حضارية قبل أى شىء آخر . ولغة المجتمع وحضارته وجهان لعملة واحدة .

وهذه تذكرة ودعوة للراغبين فى الإصلاح . فنشر الفصحى وتقويتها وإعادتها إلى سالف العهد بها لا تكون بزيادة ساعات القواعد ، ولا بحفظ قوائم الكلمات التى تتفق فيها الفصحى والعامة (أو تفصيح العامية كما يقولون) ، بل يكون ذلك بالأخذ بأسباب الحضارة الفكرية الحديثة . يكون بنشر العلم وغرس طرق التفكير المنهجى . يكون بإغناء العقل والفكر والنفس بكل ذى قيمة من علم وفن وأدب . أى يكون بنشر أنماط الحضارة التى ترتبط تلقائياً بالفصحى والمستويات العليا من التعبير اللغوى . ولا يمكن ذلك إلا بدراسة أنماط الواقع الحضارى وأنماط الواقع اللغوى ، ومعرفة ما يرتبط منها بالآخر وما لا يرتبط ، ومعرفة كيفية توزيعها على السلم اللغوى . وبعد أن تتضح الصورة كما هى فى الواقع تأتى الخطوة التالية وهى تهيئة العوامل التى تقوى الخط الذى

نختاره نموذجاً يحتذى والعوامل التى تضعف الأنماط الأخرى فى الوقت ذاته . بل قد نصل إلى أن بعض الأنماط اللغوية التى نناصبها العداء هى فى الواقع مرحلة أساسية لابد من المرور بها قبل أن نصل إلى النمط المختار .

أما أن نحتقر واقعنا اللغوى ونعاديه ولا نعطى أنفسنا فرصة دراسته ورؤيته على حقيقته فلن يكون ذلك سبباً فى فشلنا فى علاج ما يحتاج منه إلى علاج فحسب ، بل سيؤدى ذلك إلى إصابة مجتمعنا بمرض انفصام الشخصية الذى بدأت بعض أعراضه فى الظهور[1] .

إن الإصلاح لا يمكن أن يقوم على الأمانى وحدها ، فطريقه شاق ومتشعب ، وله وسائله الكثيرة والمتعددة. غير أن هذه الوسائل — على تعددها وتشعبها — تبدأ جميعاً من نقطة واحدة : هى دراسة الواقع ورؤية أبعاده على حقيقتها . وهذا هو ما حاولناه فى هذا البحث .

(١) نشير بهذا إلى مثل الموقف المتناقض الذى تقفه الهيئات والمؤسسات العلمية والثقافية فى مصر والذى يقوم على تقديس الآداب الشعبية واحترامها وتشجيعها ورعايتها من ناحية، واحتقار العامية والهجوم عليها (وهى وعاء هذه الآداب التى لا وجود لها بدون العامية) من ناحية أخرى .

الفصل الأول

الأصول التاريخية للمستويات اللغوية

phonetics-acoustics.blogspot.com

شهد تاريخ اللغة العربية الطويل المتشعب كثيراً من الأحداث التى أثرت على تطورها – أو عدم تطورها – والتى قد تستعصى على الإحصاء لو أردنا لها إحصاء دقيقاً . غير أننا نعتقد أن هناك أربعة أحداث حضارية كبرى أثرت عليها أكثر من غيرها وخاصة فيما نحن بصدده من تقييم لظاهرة المستويات فيها . ويمكننا أن نجمل هذه الأحداث حسب ترتيبها الزمنى فى الآتى :

١ – ظهور رغبة جماعية لدى سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام – بطريقة لا ندرى بالضبط كيف نشأت ومتى نشأت – فى أن تكون لهم « مؤسسات » عامة يلتقون تحتها ويخضعون لمتطلباتها ، ومثالها : الأسواق الأدبية بكل ما كان لها من عرف وتقاليد ، وتقديم قريش فى بعض المجالات .

٢ – ظهور الإسلام ونزول القرآن دستوراً له .

٣ – الفتوحات الإسلامية للأمصار واستيطان العرب بها .

٤ – الغزو الأوربى الحضارى لبلاد الشرق فى مطلع القرن الحديث .

١ – أما عن الحدث الأول فإن المؤرخين يحدثوننا أن العرب عاشوا فى قبائل متفرقة قبل الإسلام بوقت طويل ، ولم تكن بينهم من صلات أو روابط عامة تجمعهم سوى صلات الثأر والإغارة . وفى مقابل ذلك من الناحية اللغوية كان لهم لهجاتهم التى تميزهم عن غيرهم ، يأخذونها معهم أينما رحلوا ، وتعبر عن احتياجاتهم بطريقتهم الخاصة . ثم – ولأسباب تجارية ودينية واجتماعية – ظهر اتجاه عام نحو تمييز قريش ، كما صاحب ذلك أو سبقه اتجاه عام آخر – لا أظن أحداً يدرى سببه بالضبط – نحو لقاء الآخرين من أبناء القبائل الأخرى ولأغراض غير أغراض الحرب المباشرة .

كانت هذه الرغبة فى الاتصال خارج حدود القبيلة وعلى مستوى أعلى من مستواها الضيق ظاهرة حضارية عمرانية حملت معها نذيراً بأن طرق الخطاب القديمة ، هذه التى وجدت نتيجة للانطواء داخل القبيلة وكانت لذلك تستخدم لخدمة أغراض محلية – كان ذلك نذيراً بأن هذه الطرق أو اللهجات المحلية لم تعد بنفس الصلاحية التى كانت لها فى خدمة أغراض أصحابها . فقد نشأ غرض جديد لم يكن فى الحسبان .. وهكذا –

وكما هو الشأن فى اللغة دائماً فى كونها حساسة مستجيبة لكل ما يقع فى المجتمع من تغييرات – ظهر مستوى لغوى جديد مواز لهذه الرغبة الحضارية العامة ، وكان فى مواصفاته مطابقاً للأغراض الجديدة : فقد كانت فيه كفاءة التعبير عن حاجات أسمى من حاجات البيع والشراء ومناجاة الأهل ومداعبة الأطفال . كان هذا المستوى هو نبتة اللغة المشتركة ، أو العربية كما أصبحت تعرف فيما بعد .

كان هذا المستوى الجديد تأهيلا للغة وإعداداً لها لكى تحمل الرسالة التى كان مقدراً لها أن تحملها فيما بعد . كما كان أيضاً سمة من سمات الوحدة أو التوحيد اللغوى الذى جمع العرب على طريقة فى اللغة تكاد تكون واحدة . ومع ذلك وعلى الرغم من هذا التوحيد فقد كان ظهور اللغة المشتركة فى الوقت ذاته عاملا من عوامل التعدد اللغوى . ألم تكن مستوى – وأن يكون عاماً – إلا أنه أضيف إلى المستوى الموجود فعلا لدى كل قبيلة مما آذن بظهور المستويات اللغوية فى اللغة العربية وبصورة رسمية شاملة ؟ لقد حول ظهور اللغة المشتركة جميع لهجات القبائل إلى لهجات محلية بالتعريف حتى ولو اتفقت إحداها مع المستوى الجديد فى معظم صفاته . وكان معنى ذلك – وهذا أمر لابد من الإلحاح عليه – أن اللغة المشتركة – أو الأدبية كما تسمى أحياناً ، لم تكن أبداً لغة سليقة أو « لغة الأم » بالمعنى العلمى الحديث .

وعلى الرغم من وضوح هذه الصورة وما فيها من ازدواج لغوى قبل الإسلام إلا أن علماء العربية القدامى – وقد شغفهم حب هذه اللغة وملك عليهم أفئدتهم – راحوا يرددون فيما يرددون من أصول ومسلمات عامة أن العرب – فى مناطق[1] معينة حددت بطرق مختلفة داخل الجزيرة العربية – كانوا حتى عصر صدر الإسلام يتكلمون العربية المثالية « بالسليقة »[2] . وقد أفهم ذلك – فى نظر هؤلاء

(١) خصص السيوطى فى كتابه المزهر فصلا عقده تحت عنوان « معرفة الفصيح من العرب » تحدث فيه عن مسألة الفصيح من القبائل . ولا يطعن تضارب الروايات التى ذكرها فى وجود الفكرة الأساسية ذاتها لدى الأوائل من العلماء .

(٢) شرح الدكتور إبراهيم أنيس اصطلاح « السليقة » وطريقة استعماله لدى علماء اللغة العرب والعلماء المحدثين من الأجانب كما قدم رأيه الخاص فى هذه المسألة وذلك فى كتابه «من أسرار اللغة» عند حديثه عن « القياس » .

للعلماء – لأن يحتج بهم عند تدوين ما يمكن أن يسمى بالعربية الصحيحة ، أو الفصحى .

وعلى الرغم من أن هؤلاء العلماء لم يقدموا لنا تحديداً مباشراً لما كانوا يقصدونه « بالسليقة » إلا أننا نستطيع أن نستخلص من كلامهم أن سليقة العربى كانت ترجمه إرغاماً على أن يمضى فى حديثه على **سنة لغوية واحدة** (سواء أكان خطبة فى محفل أو قصيدة فى مناسبة ، أو مناجاة للأهل أو زجراً للخادم) دون أن يستطيع الخروج عن مقتضياتها حتى لو عمد إلى هذا الخروج عمداً[1] . وما أن يقرروا هذا الأصل العام حتى نراهم عندما يتناولون مسألة تتعلق بجزئية لغوية يتصلون فيها بواقع اللغة – نراهم يصطدمون بأمثلة لما خالفت فيها لهجة قبيلة ما تقتضيه سنن العربية الفصحى المشتركة . وتحفل كتبهم بهذه الحالات الكثيرة . فقبائل تميم (أى قبائل شرقى الجزيرة فى الواقع) ترفع خبر ما النافية خلافاً لما ورد فى القرآن . وقبائل الحجاز (أى قبائل غربى الجزيرة بما فى ذلك قريش) تسهل الهمزة مخالفة بذلك القراءات القرآنية المشهورة . وهذيل تنطق هاء الفصحى عيناً . كما أن أهل الحجاز يقولون هى التمر وهى البر وهى الشعير وهى الذهب بينما تقول تميم « هو » لهذا كله ... إلخ[2] . فأين « سليقة » الفصحى إذن ؟

ولا نظن أن هؤلاء العلماء قد وقعوا فى التناقض دون أن يشعروا . بل نعتقد أن تفسير ما يبدو فى أقوالهم من تناقض يكمن فى الاعتراف بوجود ما يمكن أن يسمى هنا « الازدواج اللغوى » عند العرب فى الفترة التى كانت تسمى عصر « الفاوة اللغوية » . أى أنه كان عند العرب فى تلك الفترة مستويان من اللغة على الأقل . مستوى للخطاب العادى فى أمور الحياة اليومية وفيه يستخدم الفرد لهجة قبيلته المحلية (أصواتاً ومفردات وتركيبات ... إلخ) . كما كان لدى الكثيرين منهم مستوى

(١) ومن الشواهد التى تذكر فى هذا الصدد قصة المناظرة التى جرت بين الكسائى وسيبويه فى حضرة يحيى بن خالد البرمكى حول ما أصبح يسمى بالمسألة « الزنبورية » – فقد قيل إن اليدوى الذى أحضره أصحاب الكسائى لكى يؤيد رواياتهم أعلن عجزه عن النطق بغير ما تقضى به سليقته على الرغم من محاولته الخروج عليها (!) – تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٠٥

(٢) انظر مثلا : المزهر ج ٢ ص ١٧٥ – حيث يعقد السيوطى فصلا خاصاً بما يخالف فيه أهل الحجاز أهل تميم تحت عنوان : (ذكر ألفاظ اختلفت فيها لغة الحجاز ولغة تميم) .

آخر للاتصالات خارج بيئة القبيلة المحلية وفى المناسبات الرسمية والأدبية . وفى تلك الحالة يستخدم الفرد لغة عامة مشتركة بين جميع القبائل (على درجات مختلفة من الإتقان أو « الفصاحة ») هى ما نطلق عليه الآن اسم الأدبية أو الفصحى . ولا يعنينا أن نطلق على مستوى الخطاب العادى لهجة أو عامية . بل كل ما يعنينا هنا هو تقرير الحقيقة المجردة وهى وجود مستويين للغة قبل الإسلام : **فصيح ودون الفصيح** .

٢ — أما الحدث الثانى وهو ظهور الإسلام فقد كان انقلاباً حضارياً ضخماً فى حياة الجزيرة العربية . فقد سعى إلى تغيير صورة المجتمع بما فرض من تشريعات جديدة ألغت كثيراً من العادات والتقاليد السائدة وسنت غيرها مما يتفق مع أصوله وقواعده . ونزل القرآن حاوياً لهذه الأصول ، وجاءت السنة وتعاليم الرسول شارحة له ومفسرة .

ولم يكن المجتمع الإسلامى الذى رسمه الدين الجديد ووضع أسسه فى الجزيرة العربية مختلفاً عن المجتمع القبلى القديم فحسب ، بل كان إلى ذلك وقبل ذلك طفرة غريبة على القوالب السابقة عليه . كان فى الواقع **مفاجأة اجتماعية** . وقد خلقت هذه المفاجأة الحضارية **مشكلة للغة** كان عليها أن تستوعبها وتعبر عنها . ولم يكن ذلك بالأمر السهل . فلو كانت القوالب الاجتماعية الجديدة قد ظهرت إلى الوجود نتيجة لتطور تدريجى فى القوالب الاجتماعية القديمة لاستطاعت اللغة أن تخطو معها تدريجياً وتخلق التعبير المناسب كلما ظهر منها شىء جديد ، ولما كان فى الأمر صعوبة تذكر .

ومع ذلك وعلى الرغم من تلك الصعوبات فقد نجحت اللغة فى استيعاب المفاجأة . وكان السبب فى ذلك أن الحضارة الجديدة وإن كانت مفاجئة للمجتمع الجاهلى القبلى إلا أن عناصرها كانت عربية ، بمعنى أن القوالب الحضارية الجديدة كانت فى الواقع عبارة عن إعادة تنظيم وتشكيل للعناصر القديمة . وهذا هو ما فعلته اللغة بأمورها . فقد أعادت تنظيم قوالبها التعبيرية القديمة ووسعت فيها بطريقة مكنتها من التعبير عن المعانى الجديدة . وهذا هو شأن اللغة . تحاول دائماً أن تعكس طرق المجتمع وتحكى قصة حضارته .

نجحت اللغة فى أن تكون وعاء للقرآن ووعاء للسنة ، ووعاء لتعاليم الرسول وأعمال الصحابة فى حياته . وكان نجاحها هذا أو كان هذا الامتحان الذى نجحت فيه بمثابة التدريب للامتحان الأكبر الذى فرض عليها فى المرحلة التالية . أو قل إن ذلك كان بمثابة « المصل » الذى حصنها ضد الانهيار الكامل أمام الحضارات الأجنبية التى وجدت نفسها بينها والتى جرى العرف على التعبير عنها باسم العجمة . أضف إلى ذلك أن هذا النجاح قد خلق نوعاً جديداً من التعبيرات الإسلامية أو قل مستوى دينياً من التعبير فى اللغة العربية .

وقد حفظ لنا أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ سجلا قيماً لهذه المصطلحات والألفاظ الإسلامية فى كتابه المسمى « الزينة »[1] . وأهمية الكتاب ترجع إلى أنه كتب فى القرن الرابع أى بعد أن استقرت الألفاظ وأخذت معناها واتضحت فى الأذهان وأمكن مقارنتها فى استعمالاتها الإسلامية واستعمالاتها الجاهلية والاستشهاد لكل استعمال من مصدره المناسب . كما أنه استطاع عن طريق مقارنة اللفظ فى بيئته الإسلامية بنظيره فى بيئته الجاهلية أن يظهر مدى التطور الذى أدخله الإسلام على معانى هذه الألفاظ وطرق استعمالاتها[2] .

٣ — أما الحدث الثالث وهو استيطان العرب فى البلاد المفتوحة فقد عرض اللغة لامتحان أقسى وأشق من الذى تعرضت له بنزول القرآن . ذلك أنه وضعها وجهاً لوجه أمام حضارات غريبة عليها وألزمها فى الوقت نفسه — بصفتها لغة الحكام — أن تعبر عنها وتحيط بها . غير أنه كانت هناك بعض العوامل التى ساعدتها وقوت من جانبها فى تلك الأزمة . ومن أهمها :

---

(١) قام بتحقيق الكتاب والتعليق عليه الدكتور حسين الهمدانى . وقد نشره فى القاهرة : الجزء الأول عام ١٩٥٦ ، والثانى عام ١٩٥٨ .

(٢) انظر مثلا ص ٢١٩ جـ ٢ فى حديثه عن « الأعراف » فى قوله تعالى « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال » . « أبو عبيدة مجازه على بناء سور ، لأن كل مرتفع من الأرض عند العرب أعراف وأنشد :

كل كتاز لحمها نياف كالعلم الموفى على الأعراف

أى عالى نشز . وروى أبو عبيدة بإسناد له عن ابن عباس قال : الأعراف الشىء المشرف . وعن مجاهد قال : الأعراف حجاب بين الجنة والنار ، سور له باب ، وهو على الصراط . . . إلخ .

(ا) سلطان الدين : فارتباط العربية بالدين لم يترك للمسلمين خياراً بينها وبين غيرها من اللغات . كان بإمكانهم أن يتعلموا الفارسية أو اليونانية ، ولكن العربية كانت دائماً فى المقدمة .

(ب) سلطان الحكم : فقد كانت — على الرغم من أزمتها الحضارية — لغة الحكام ، مما خلق نوعاً من التوازن بين العوامل المضادة والعوامل المساعدة وإعطائها فرصة زمنية للتأقلم فى الجو الجديد .

(حـ) المرونة الذاتية للغة العربية : وهذا شىء لاحظه علماء الساميات منذ وقت بعيد . فقد تعلمت اللغة أو اكتسبت — دون كثير من أخواتها — غريزة البقاء أو القدرة عليه . ولا يدرى أحد بالضبط سر هذه القوة إلا من الوجهة العلمية[1] . كل ما يعرفونه أنها موجودة فعلا .

أما المعركة التى خاضتها اللغة العربية بعد الفتوحات فهى من الأهمية لفكرة المستويات بدرجة تجعل من الضرورى أن نبرز بشىء من التفصيل أهم العوامل الحضارية التى قامت عليها . وأن نناقش أثناء ذلك بعض الآراء التى اكتسبت قوة المسلمات والتى قد يبدو أنها تتعارض مع ما نحن بصدده من قضايا :

ترجع أهمية الفتوحات الإسلامية ونزوح العرب للاستيطان فى الأمصار والبلاد المفتوحة — ترجع أهمية ذلك للغة العربية إلى أنها خرجت بها من نطاق المحلية الضيقة التى فرضتها عليها طبيعة مجتمع الجزيرة العربية المقفل الذى نشأت وترعرعت فيه ونقلها إلى انطلاقة العالمية الرحبة . وبعد أن كانت قبل الإسلام لغة عرب شمال الجزيرة — بل لغة الخاصة منهم تقريباً — أصبحت بعد الإسلام لغة الأجناس المختلفة — أو على الأقل أصبحت طلبة الأجناس المختلفة التى كانت تنتشر من حدود الهند فى الشرق إلى شواطئ إسبانيا فى الغرب . وقد تم لها كل ذلك فى فترة هى أشبه بطرفة العين إذا ما قيست بعمرها أو بعمر غيرها من اللغات .

---

(١) لعل هذا هو ما يعبر عنه علماء الدين الإسلامى — ولكن بطريقة غيبية — عندما يفسرون قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، إذ يقولون إن من حفظ الذكر الذى أحدثه الله على نفسه حفظ اللغة التى أنزل بها .

فانتشار دائرة الفتح العربى الإسلامى السريع المفاجىء فى عهد عمر بن الخطاب كان فى الوقت ذاته غنى للغة العربية وانتشاراً لها .

ولا نريد أن نناقش هنا مدى استعداد العرب فى ذلك الوقت من الناحية السياسية والإدارية والثقافية عامة لتحمل عواقب نجاحهم العسكرى ، إذ أن ذلك الموضوع يقع خارج دائرة بحثنا هذا . ولكن الذى يهمنا — وإن كان يتصل بالأمر السابق — هو مدى استعداد اللغة العربية ذاتها فى ذلك الوقت لتحمل عواقب هذا الكسب الذى حققه لها الجيش العربى .

ويتحدث علماء العربية من قدماء ومحدثين فيطيلون الحديث عما حدث للغة بعد خروجها إلى الأمصار واختلاط العرب بغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة ، ويقولون إن هذا الاختلاط قد أثر على لغة العرب الأصليين — حتى الخاصة منهم — وأدى إلى تفشى اللحن فيها . وتحفل كتب اللغة والأدب بطرائف وروايات تذكر أمثلة من هذا اللحن والاستنكار الذى كان يلقاه والمواقف التى اتخذها الغيورون على اللغة لحماية اللغة . ويأتى الفشل فى استخدام[1] علامات الإعراب استخداماً صحيحاً فى رأس قائمة الأخطاء التى سجلتها لنا هذه الكتب ويلح عليها العلماء حتى يخيل

---

(١) من الأمور التى تستحق التأمل أن صرح الإعراب الذى قام عليه بناء النحو العربى كله والذى وقف عليه علماء العربية حياتهم — هذا الصرح قد تداعى واختفى من الاستعمال التلقائى للعربية فى وقت مبكر جداً وأصبح مجرد مسألة عقلية لا تتصل — كما كان ينبغى أن يكون عليه الأمر — اتصالا طبيعياً بالمعنى النحوى فى نفوس المتكلمين . لذلك لا ندهش كثيراً لمثل الموقف الذى اتخذه الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس حينما أنكر وجود الإعراب فقال « لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحدد المعانى فى أذهان العرب كما يزعم النحاة ، بل لا نعدو أن تكون حركات يحتاج إليها فى الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض . » انظر من أسرار اللغة ، ص ٢٢١ . على أننا لا نذهب فى تقويم ظاهرة الإعراب إلى حد إنكارها تماماً . بل نرى أنه لما كان الإعراب قد اختفى من كل اللغات السامية الأخرى لوجودها فى بيئات مفتوحة بينما بقى فى العربية بفضل انحصارها داخل حدود الجزيرة بعيداً عن الاختلاط والتطور السريع أو عوامل التعرية إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير — نقول لما كان ذلك هو السبب فإن أول ما يتأثر بالخروج من البيئة القديمة المغلقة هو الظاهرة التى احتفظت بها اللغة بفضل انحصارها فى تلك البيئة . وتستطيع أن نسوق تشبيهاً لتلك الحالة بما يحدث للحيوانات المحنطة عندما تخرج من توابيتها تحت الأرض وتصطدم بالهواء النقى المطلق السراح فوق ظاهرها . إذ نراها تتفتت وتتساقط رماداً إذا لم تتخذ الاحتياطات العلمية لحمايتها والمحافظة عليها .

للمرء أنهم لم يروا فى اللغة سوى علامات الإعراب[١] .

ومع اتفاقنا مع هؤلاء العلماء على أن الاختلاط بالأجانب والتزاوج معهم قد أدى إلى حدوث التغير فى اللغة إلا أننا نختلف معهم فى إعطائهم هذا العامل كل الأهمية التى أعطوها إياه فى التأثير عليها — ونحن نعرف مثلا أن اللغة الإنجليزية قد انتشرت خارج حدودها بفعل الفتح والاستعمار كما تم التزاوج بين أبنائها وبين غيرهم ولكن ذلك لم يؤد إلى اللحن فى إنجليزية الجزر البريطانية بنفس الطريقة التى ظهر بها فى عربية الجزيرة العربية بعد عصر الفتوحات ، مما يرجح أن مجرد الاختلاط بأبناء اللغات الأخرى لا يؤدى بالضرورة إلى التأثير على اللغة هذا التأثير الجذرى .

إننا نعتقد أن مجرد اختلاط العرب بغيرهم نتيجة للفتح الإسلامى كان واحداً من عوامل رئيسية ثلاث أرهقت اللغة نتيجة لعدم استعدادها لعواقب ذلك الفتح الفجائى . هذه العوامل الثلاثة حسب ترتيبها النسبى فى قوة التأثير هى فى رأينا كالآتى :

(ا) تأخر العرب — وبالتالى لغتهم — من الناحية الحضارية عن كثير من الشعوب التى غلبوها بالفتح العسكرى .

(ب) زيادة سرعة التطور الطبيعى للغة بعد خروجها إلى العالم الفسيح وإبعادها فى مناطق مترامية الأطراف بعيداً عن منابعها الأصلية .

(حـ) اختلاط العربية بلغات تختلف عنها من النواحى البنائية صوتياً وقاعدياً .

وقبل أن نتناول تأثير هذه العوامل على اللغة والموقف الذى اتخذه العلماء منها لابد وأن نسهب قليلا فى بيان طبيعة العامل الحضارى وتكييفه لموقف اللغة العربية فى بداية عصور الفتح ، خاصة وأنه لم يكن محل اهتمام كبير لدى من كتبوا فى هذا الموضوع .

فنحن نعلم أن العرب الفاتحين ومن تبعهم من قبائل نزحت للاستيطان قد انتقلت من بيئات ضيقة محدودة الثقافة محدودة التنوع واستقروا فى بيئات غنية ذات

(١) لعل مما يستوقف النظر أن الذى اهتم بتسجيل نوع آخر من الأخطاء سوى الأخطاء الإعرابية — هذا الشخص كان أديبا ولم يكن نحويا . فقد خصص الجاحظ قدراً كبيراً فى كتابه « البيان والتبيين » للأخطاء الصوتية وعيوب النطق سواء ما كان منها راجعاً لعيوب خلقية أو إلى عجمة أصحابها . وصنف هذه الأخطاء تبعا للغة الأصلية لمن ينطق بها .

حضارة عريقة سبقت حضارة بدو الجزيرة بقرون كثيرة . ولا شك أن هؤلاء الفاتحين قد وجدوا أنفسهم فى العراق والشام وفارس ومصر فى مركز ضعيف من الناحية الحضارية . ولنا أن نتصور أن كثيراً من مظاهر هذه الحضارة كان غريباً عليهم وأنهم كانوا يكتشفون كل يوم شيئاً جديداً فيها . ولنا أن نتصور أيضاً أن تلك المكتشفات اليومية كانت تحمل معها نوعاً آخر من التحدى اللغوى بالنسبة لهؤلاء الفاتحين وأنهم فى محاولاتهم للتعرف على مظاهر الحياة الجديدة (حتى ولو لم يكن فى نيتهم تقليدها) كانوا يتعرفون أيضاً على المصطلحات والتعبيرات اللغوية التى كانت تعبر عنها إما لاستعمالها فيما بينهم وإما لاستعمالها فى مخاطبة سكان البلاد المفتوحة فى أمور حياتهم اليومية .

وتركز المصادر العربية اهتمامها على شئون الحياة الرسمية مثل الإدارة والدواوين وشئون الولاة ... إلخ . وهى بذلك تغفل كثيراً من مظاهر الحياة اليومية مما يعد أشد اتصالا بالغالبية العظمى من الناس ، ومن ثم أشد تأثيراً فى لغتهم وفى موقفهم من تلك المظاهر . فلا شك أن العرب الفاتحين قد واجههم مشاكل كثيرة فى تسمية ألوان الأطعمة والأكسية وأنواع الأثاث والحلى والعربات والمهارات والحرف وألقاب الوظائف المحلية من دينية وغيرها . ويقدم لنا الجاحظ عينات مما كانت تخفل به لغة أهل الكوفة من الكلمات الفارسية . فيقول : « وأهل الكوفة يسمون السحاة بال ، وبال بالفارسية . ويسمى أهل الكوفة الحوك (ريحانه) الباذروج .. وإذا التقت أربع طرق يسمونها الجهارسوك ... ويسمون السوك والسويقة « وازار » ويسمون القثاء خياراً ... ويسمون المجذوم[١] ويذى » وكل ذلك ألفاظ فارسية تعبر عن بعض مظاهر الحضارة التى أشرنا إليها . بل إن تأثير ألفاظ الحضارة الفارسية قد امتد إلى داخل الجزيرة العربية أيضاً . فيروى الجاحظ « أن أهل المدينة يسمون البطيخ الخزيز ، والسميط الرزدق ، والمصوص (وهو لحم ينقع فى الخل ويطبخ) المزور ، ويسمون الشطرنج الأشترنج[٢] ، وكل ذلك أسماء فارسية .

ولنا أن نتوقع أن مثل ذلك التأثر قد حدث فى مصر وإن لم يكن قد ورد عنه

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٩ — ٢٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

شيء فى المصادر القديمة . ويعلق يوهان فك معللا لسكوت المصادر عن ذكره فيقول « . . . بينما أثرت الفارسية فى عربية العراق تأثيراً بعيد المدى وكثرت فى اللغة العربية الفصحى الألفاظ الفارسية المعربة بصورة ملحوظة كان أثر القبطية فى اللهجة العربية جد ضئيل . وقد أراد بعض العلماء أن يعزو أسباب ذلك إلى الطابع القبطى القوى ، ولكن يبقى علينا أن ننظر فيما إذا كان تعذر كشف أثر اللغة القبطية فى عربية التفاهم أثناء القرنين الأولين راجعاً إلى طبيعة مصادرنا . فلو أن مصر منيت بكاتب مثل الجاحظ الذى أولع بتصوير مستوى الطبقات الدنيا والوسطى بين سكان المدن فى القرن الثانى ، ربما كان أفادنا أن العلاقات اللغوية فى الفسطاط القديمة لم تختلف كثيراً منها فى البصرة والكوفة »[1] .

وبالإضافة إلى تعرض العرب للفحات الحضارة الجديدة ، فإن انتقالهم إلى الأقاليم المفتوحة وتركزهم فيها كسادة لها ألقى عليهم عبء إدارة إمبراطورية كبرى متنوعة الثقافات واللغات . وقد نتج عن ذلك اتساع طرائق الحياة أمامهم بعد أن كانت محصورة فى الجزيرة وفى أمور الرعى والتجارة . وبتنوع طرائق الحياة وتشابك العلاقات الحضارية والتزامهم ببناء دولة كبرى ازدهرت العلوم ، وكثرت التآليف ، ونمت الصناعات والمهارات ، وتطورت العلاقات والقوانين التى تنظم الحياة وأمور الدين . وقد كانت تبعات الدولة الحديثة ومطالبها من القوة بحيث لم يكن السادة الجدد ليستطيعوا الانتظار حتى يبتكروا بأنفسهم ما يحل المشاكل المترتبة عليها . فنشأت لذلك حركة الترجمة والنقل من الحضارات الأجنبية التى واجهت مثل ما كانوا يواجهون من مشاكل والتى توصل أصحابها إلى حلول لم يكن من اليأس أن ينظر فيها القوامون على المجتمع الجديد لكى يروا مدى إمكانية الانتفاع بها فى مجتمعهم . ولعل ذلك كان السبب فى بلوغ الترجمة أوجها فى عهد المأمون .

فبالإضافة إلى عامل التطور والنمو الطبيعى لهذا الاتجاه فإن نشأة المأمون العلمية ورغبته فى الوقوف على فلسفة الحياة والدين والانتفاع بتجارب الأمم الأخرى إلى جانب تجارب العلماء من أمته — كانت هذه الأسباب دافعاً قوياً لازدياد الترجمة

(١) العربية : يوهان فك ص ٢١ — ٢٢ .

فى عصره . ويروى صاحب الفهرست قصة عن « السبب الذى من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة فى هذه البلاد » فينقل عن المأمون أنه قال إنه رأى رجلا فى منامه عرف منه أنه أرسطوطاليس ، فسأله المأمون عن أمور كانت تشغل ذهنه فى ذلك الوقت فيقول : « قلت ما الحسن قال ما حسن فى العقل قلت ثم ماذا قال ما حسن فى الشرع قلت ثم ماذا قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا قال ثم لا ثم »[1] ويعلق ابن النديم على القصة قائلا : « فكان هذا المنام من أول الأسباب فى إخراج الكتب » .

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء وحدهم فقد اقتدى بهم « كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوجاهة والثروة فى بغداد فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية واللاتينية وغيرها ... وكان أثر هذا النقل الواسع المدى عظيماً فى إضافته إلى اللغة العربية فقد نقل المترجمون مئات الألفاظ الفلسفية والطبية والكيمائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية مترجمين بعضها إلى ما يقابله فى العربية وناقلين بعضها بلفظه مما حمل علماء اللغة على أن يخصوه بتآليف خاصة مثل كتاب « المعرب والدخيل » للجواليقى . ومهما يكن من شيء فقد كسبت اللغة العربية مادة غزيرة وفيرة مكنت النحاة والمتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من تناول مسائل علومهم المختلفة بلغة مواتية وألفاظ دالة على المعانى التى يريدون التعبير عنها »[2] .

ولم تكن الترجمة وحدها هى وسيلة بناء الدولة الإسلامية الجديدة . فقد سبقتها حركة أخرى تمثلت فى الاستعانة بأبناء البلاد المفتوحة والإبقاء على نظمهم التى كانوا يتبعونها فى الإدارة قبل الفتح . أو بعبارة أخرى حركة عدم الترجمة عن قصد . « فقد كانت دواوين المال أو الجباية مقرها فى عواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تكتب فى كل قطر بلغة أهله وكانت فى الغالب لغة الدولة التى

(١) الفهرست ، طبعة فلوجيل ص ٢٤٣ .

(٢) عبد الحميد العبادى . « ثلاث حوادث من التاريخ الإسلامى ساعدت على انتشار العربية » مجلة مجمع اللغة العربية عدد ٩ ص ٤٨ .

كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامى . وكان يتولى شئون هذه الدواوين عمال أهل الإقليم فكان عمال ديوان العراق من موالى الفرس وعمال ديوان الشام من الروم وعمال ديوان مصر من الروم والقبط »[1] .

ويطيب لبعض المؤرخين أن يذكروا أن عدم تعريب الدواوين من لحظات الفتح الأولى كان مرجعه إلى حسن السياسة التى اتبعها الخلفاء الأولون ، إذ أرادوا أن يضمنوا تعاون السكان الأصليين وخاصة رجال الإدارة منهم ، فأبقوا من أراد البقاء منهم فى منصبه الذى كان له ليدير عمله بالطريقة وباللغة التى كان يديره بها .

على أننا لا نستطيع أن نغفل العامل اللغوى فى تكييف الموقف الذى اتخذه العرب فى هذا الأمر . فنحن لا نعتقد أنه كان بإمكان العرب فى أول عهدهم بالفتوحات أن يجدوا من الاصطلاحات والأسماء العربية ما يكفى للتعبير عن دقائق الحسابات ومسك الدفاتر وغيرها من شئون الإدارة والمال . وخير شاهد على ذلك ما رواه البلاذرى فى فتوح البلدان من أن الحجاج لما أراد تعريب الدواوين وندب لذلك صالحا بن عبد الرحمن مولى بنى تميم — وكان قد تدرب فترة طويلة مع زادان فروخ بن بيرى الفارسى الأصل — اعترض عليه مراد نشاه بن زادان فروخ وقال له : « كيف تصنع بدهويه وشنشوية » ؟ قال : « أكتبه عشر ونصف عشر » قال : « كيف تصنع بويد » ؟ قال : أكتبه « وأيضاً » ، والويد النيف والزيادة تزاد . فقال : « قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية » . ويعلق الأستاذ عبد الحميد العبادى على هذه القصة وغيرها من قصص تعريب الدواوين فى بقية الأقطار فيقول : « فالعربية الفصحى أفادت ألفاظاً جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشنشوية وويد . فهى مثال لما حصل بالفعل على نطاق واسع . وظهرت فى العربية ألفاظ كثيرة إما معربة أو منقولة عن أصولها الأعجمية المستعملة فى الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل »[2] .

(١) عبد الحميد العبادى . المرجع السابق ص ٥٢ .
(٢) المرجع السابق : ص ٤٨ — ٤٩ .

ويكفى لتصوير الميادين التى وجد العرب أنفسهم مطالبين بالاشتراك فيها والتعبير عنها بلغة وألفاظ لم تكن لديهم دراية بها — يكفى لذلك أن نتصفح كتاباً مثل كتاب « مفاتيح العلوم » لأبى عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمى والذى ألفه فى القرن الرابع الهجرى . فقد صنفه فى ثلاثة وتسعين فصلا جمع فيها مفاتيح العلوم وأوائل الصناعات وجعلها متضمنة « ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات التى خلت منها أو من جلها الكتب الحاضرة لعلم اللغة ، حتى إن اللغوى المبرز فى الأدب إذا تأمل كتاباً من الكتب التى صنفت فى أبواب العلوم والحكمة ولم يكن شدا صدراً من تلك الصناعة لم يفهم شيئاً منه وكان كالأعمى الأعشم عند نظره فيه »[1] .

ولو تصفحنا هذا الكتاب لوجدنا مؤلفه يذكر مصطلحات لم يكن لعربية ما قبل عصر الفتوحات عهد بها ، وتغطى ميادين مثل : الفقه وعلم الكلام والعروض والفلسفة والمنطق والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والحيل . . . إلخ . فمن ميدان الهندسة نراه يذكر أن « الأسطوانة جسم يبتدئ من دائرة وينتهى إلى دائرة مساوية لها يحيط بها بسيط اسطوانى . وأن الجسم المخروط شكل يبتدئ من نقطة وينتهى إلى محيط دائرة ويحيط به بسيط صنوبرى ودائرة . وأن الهلياجى والعدسى « يحدثان عن قطعتى دائرة أى قوسان إذا التقى طرفاهما وديرت دور الكرة بين قطبين مرة »[2] ويعقد فصلا عن « حيل حركات الماء وصنعة الأوانى العجيبة وما يتصل بها من صنعة الآلات المتحركة بذاتها » فيذكر فيه مثلا : « باب المدفع وباب المستق يكونان فى النفاطات والزرافات ونحوها . التخاتيج جمع التختجة وهى الألواح معربة تخته . الملبار والمينار إناء كبير يسخن فيه الماء . سرن الرحى الدوارة التى يضربها الماء فتدور . بركان السرن أجنحته لغة فارسية معربة .... »[3] .

وعلى الرغم من العدد الهائل من المصطلحات التى جمعها الخوارزمى فى كتابه فإنه يصر على أنه كان فى كتابه « متحرياً للإيجاز والاختصار ومتوقياً للتطويل والإكثار »[4] .

(١) خطبة كتاب « مفاتيح العلوم » : نشر إدارة الطباعة المنيرية . القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٤ .

وهذه الحصيلة التى تكونت فى ميدان العلم كان إلى جانبها بلا شك حصيلة مشابهة فى كل ميدان من ميادين الحياة . ولا شك أن كل هذه الحصيلة من الألفاظ والمصطلحات تمثل الطريق الطويل الذى قطعته العربية منذ لحظة الفتح الأولى كما أنها تعكس صورة للميادين التى كان على اللغة أن تسهم فيها من أجل بناء الدولة الإسلامية الكبرى .

ونحن نعتقد أن الفاتحين الأول — ولما يتعرفوا على مواطئ أقدامهم فى البلاد قد وجدوا أنفسهم أمام هذا الطوفان الحضارى الغريب عليهم فى موقف المتعلم ، فى موقف الضعيف . وكان هذا بالضبط هو مصدر الخطر الحقيقى الذى واجهته لغتهم ، الخطر الذى تحداها فى أغلى ما تعتز به لغة من اللغات : وهو قدرتها على التعبير عن الحضارة وأمور الحياة اليومية . بل لا نغلو إذا قلنا إن كثيراً من الكلمات العربية الأصيلة والتى كانت تعبر عن الحضارة البدوية أصبح لا غناء فيه . بل تعرض للنقد ممن شأنهم أن يستخدموه . وثورة أبى نواس على القصيدة العربية لم تكن مجرد ثورة على شكل القصيدة وبنيتها نفسها بقدر ما كانت ثورة على التعبيرات الحضارية العربية التى أصبحت غير ذات موضوع . فقد أراد أن يحل الحديث عن الخمر وشاربيها والتعبيرات الحضارية المرتبطة بها مثلا — أراد أن يحل هذا محل البكاء على الدمن والوقوف على الأطلال بعد أن ذهبت عنهم الدمن واختفت الأطلال . ومثل ذلك يقال أيضاً بالنسبة لثورة الجاحسين عند الخليفة على « على بن الجهم » حينما استخدم تعبيرات البيئة البدوية فى مدحه للخليفة . فهذه الثورات وأمثالها هى فى الواقع ثورات حضارية وجدت فى اللغة تعبيراً عنها كما هو الشأن فى الثورات الحضارية دائماً .

ومع أننا لا نريد أن نقحم أنفسنا فيما أصبح معروفاً فى التراث بمعركة الشعوبية ، كما أننا لا نريد أن نحكم لأى من الجانبين على الآخر ، إذ نريد أن نحتفظ لموضوعنا بوجهه اللغوى البحت — على الرغم من ذلك فإننا لا نظن أننا نفتات على أحد إذا ما قلنا إن تأخر العرب الحضارى كان — وظل لفترة طويلة — الوقود الذى استغله الفرس فى إذكاء نمار المعركة .

نريد من كل هذه الملاحظات أن نضع أصبعنا على ما نعتقد أنه كان المصدر

الرئيسى للاضطراب الذى وقعت فيه عربية الفاتحين الأول ، ونعنى بذلك قصورها فى ألفاظ الحضارات الغريبة على أهلها . وعلى الرغم من أنه ليس من المفروض فى أية لغة أن تكون مستعدة فى طرفة عين للتعبير عن حضارة ليس للناطقين بها عهد وأنه إذا ما طلب منها أن تفعل ذلك فإنها تمنح مهلة كافية قد تمتد عشرات السنين — على الرغم من هذه الحقيقة الواضحة فإن اللغة العربية — بصفتها لغة الفاتحين وكنتيجة للفتح الفجائى — لم تمنح مثل هذه المهلة . فكما أن العرب قد طولبوا بين عشية وضحاها بأن يحكموا ويديروا شئون مجتمعات غريبة عليهم فكذلك طولبت لغتهم — بين عشية وضحاها أيضاً — بأن تواكب هذا الدور الغريب الذى فرض على المتكلمين بها ، وأن تشارك فى ميادين ليس لقوالبها ولا لتعبيراتها المألوفة حينئذ عهد بها .

وكان على اللغة أن تختار بين موقفين : إما أن ترفض المشاركة انتظاراً ليوم تستطيع فيه أن تجد من ألفاظها الأصلية وتجارب أبنائها الشخصية ما يعينها على الاستجابة لمطالب الوضع الجديد دون أن تمد يدها لأحد — وهو ما لم يكن ليحدث ، أو بعبارة أدق ، ما لم تكن ظروف الفتح والإدارة العاجلة تتسع بحدوثه — وإما أن تغترف من الثروة اللغوية لمن سبقوا أبناءها فى هذه الميادين ، خاصة وقد وضعتهم الظروف معاً فى المجتمع الجديد .

وهذا هو ما حدث بالفعل . وكان حدوثه على الرغم من ضرورته — أوقع الواقع بسبب هذه الضرورة — ناقوس الخطر الذى نبه الغيورين للحفاظ على كيان اللغة ووحدتها .. فوضعوا بذلك اللبنة الأولى فى دراسة متن اللغة . حقيقة كان هناك مظاهر أخرى للخطر الذى كان يتهدد اللغة الفصحى وهى المظاهر التى كانت تتمثل فى التغييرات الصوتية لنطق الكلمات العربية الأصيلة، والأخطاء المعنوية فى استخدام المادة اللغوية ، وأخطاء الإعراب التى حفلت بذكرها المراجع اللغوية .

ولسنا نحاول هنا أن نغض من شأن هذه الأخطاء الأخيرة ولا أن نقلل من قيمة ردود الأفعال التى أحدثتها فى ذلك الوقت . فالواقع أن هذه الأخطاء قد أدت إلى خلق موقف متشدد لدى ذوى الإحساس اللغوى من الفاتحين العرب دفعهم إلى الإلحاح على التمسك[1] بالعربية النقية ، بل وإبعاد من تلوثت لغتهم عن مناصب الدولة

(١) يروى السيوطى فى المزهر جـ ٢ ص ٢٤٦ أن كاتباً لأبى موسى الأشعرى كتب إلى عمر فلحن . فكتب إليه عمر أن اضرب كاتبك سوطاً . وتحفل كتب التراث بقصص كثيرة مشابهة. منهل مستويات العربية المعاصر

الكبرى ، كما أدى أيضاً إلى خلق موجة من حب التراث والبحث عنه ومدارسته وحفظه ، وكانت هى حجر الأساس فى عملية تقعيد القواعد وبناء الصرح العظيم الذى أصبح يعرف فيما بعد بعلم النحو .

فقط نريد أن نقرر أنه كما كانت الأخطاء الإعرابية سبباً فى خلق علم النحو كان سيل الدخيل على متن اللغة سبباً فى خلق فن القواميس . هذا الفن الذى لم يوضع أبداً فى موضعه الصحيح بين دراسات العربية ، والذى تعرض لطغيان النحو عليه بدون سبب ظاهر . اللهم إلا سلطان النحاة ونفوذهم الذى بسطوه على اللغة العربية وأبنائها ابتداء من عصر أبى الأسود الدؤلى إلى الوقت الحاضر .

إن سلطة النحاة لم تتمثل فى خلق الإعراب من العدم كما يقرر أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس (من أسرار اللغة ص ٢٢١) بقدر ما تمثلت فى جعله مركز الثقل فى الثقافة العربية بصورة جردت هذه اللغة — فى بعض صورها — من كل حيوية ، وأعمت كثيراً من الدارسين عن جوانب أخرى كانت ولا تزال أكثر خطراً وأقرب إلى روح اللغة .

أن تركيز القدماء على الأخطاء الإعرابية دون سواها ليس له ما يبرره من الناحية التاريخية كما قدمنا قبلا ، كما أنه ليس له ما يبرره من الناحية العلمية أيضاً . فقواعد علم اللغة تشهد بأن أول جانب يتأثر من اللغة بفعل اختلاطها بغيرها هو متنها نتيجة لاقتراض الكلمات والمصطلحات التى لا نظير لها فى اللغة المقترضة . ثم تأتى بعد ذلك الأساليب فيدخل فيها ألوان لا تتعارض صراحة مع القواعد الأساسية للغة وإن كانت تمتاز بحدة وطرافة لا عهد للغة المقترضة بهما . أما النحو والصرف فمن الصعب جدا أن يلحقهما التأثر . ويحدث ذلك عادة — إذا حدث — بعد فترة طويلة جدا من الاختلاط كما يكون علامة للانتصار الثقافى لإحدى اللغتين على الأخرى .

=أن أبا أيوب السختيانى (٦٨ — ١٣١ هـ) كان إذا لحن فى حرف قال أستغفر الله (ياقوت : إرشاد ج ١ ص ٢٠) وأن الشعبى كان يقول أحب إلى أن أقرأ فأسقط من أن أقرأ فألحن (ياقوت : إرشاد ج ١ . ص ٢٦) .

ولا شك أنه لم يكن قد مضى وقت طويل على معاشرة العرب للأعاجم أو التزاوج معهم فى عهد أبى الأسود الدؤلى . فتلك الفترة القصيرة تتناسب وحدوث التغيير فى متن اللغة دون قواعدها . أما الأخطاء الإعرابية فقد ساعد على انتشارها — فى رأيى — العامل الثانى الذى ذكرته آنفاً وهو سرعة التطور بفعل البعد عن الوطن الأم ، بالإضافة إلى كون علامات الإعراب نفسها قد أصبحت غير ذات موضوع تقريباً بعد أن استغنى المتكلمون عنها بتركيب الجملة فى فهم[1] المعنى المقصود . وليس من المستبعد أيضاً أن يكون انتقال اللغة العربية من مجتمعها المغلق — ذلك المجتمع الذى احتفظ لها وحدها دون أخواتها الساميات[2] بظاهرة الإعراب — واستقرارها فى مجتمع مفتوح مملوء بالحركة والنشاط — من المحتمل أن يكون هذا الانتقال قد عرض هذه الظاهرة التاريخية إلى الشيخوخة المفاجئة بعد أن احتفظت لها ظروفها الخاصة بشباب صناعى لا يتفق وطبيعة طريق التطور فى العائلة السامية .

ولا يظن ظان أن الغرض من هذا النقاش هو الحط من قيمة النحو العربى أو التهوين من شأنه كعمل علمى سبق عصره بقرون . بل الغرض هو التمهيد لرأى اعتقد أن الملابسات التاريخية والقرائن العلمية تعززه وأن لم يرد بذلك ذكر صحيح فى كتب التراث : ويتلخص هذا الرأى فى أن تعقيد قواعد اللغة والاهتمام بعلم النحو كان القصد به أساساً خدمة الأعاجم ومساعدتهم على تعلم العربية ، ربما اتقاء لما قد يحدثونه فيها من ضرر إذا تركوا وشأنهم وربما — وهو الأرجح — استجابة لازدياد الرغبة فى تعلم هذه اللغة بعد أن أصبحت لغة السادة الجدد فى بلادهم . وإذا سلمنا بهذا الرأى سهل علينا تفسير عدة أمور . منها : تركز هذا العلم فى أيدى الموالى والأجانب من أصحاب المصلحة الأولى فيه . ومنها أيضاً تأثر هؤلاء النحاة من الموالى فى تعقيدهم قواعد العربية بقواعد اللغات الأجنبية التى كانوا يعرفونها بحكم المولد والنشأة[3] .

(١) نحيل القارئ على التحليل القيم الذى قدمه الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس لمغزى الإعراب فى مقاله المشار إليه آنفاً . من أسرار اللغة ص ٢٢١ .

(٢) يوهان فك : المرجع السابق ص ٣ .

(٣) دكتور تمام حسان . مناهج البحث فى علم اللغة ص ١٦ وما بعدها .

حقيقة يصر علماء العربية على أن وضع النحو كان نتيجة لخطأ العرب — ومن شأنهم الفصاحة منهم — فى اللغة العربية ، ولكننا نعتقد أن القول بهذا الرأى ليس فيه الحق كله ، وأنه تبسيط مخل لظروف وعوامل اجتماعية متشابكة تضافرت كلها فى الوقت المناسب لكى تنتج الاهتمام بقواعد اللغة . ويغلب على الظن أن الأقوال المتوارثة فى هذا الباب كانت من صنع الموالى النحاة أنفسهم . ولعلهم بذلك أرادوا أن يخلعوا على عملهم صفة الضرورة لا بالنسبة لهم فحسب بل وبالنسبة للعرب الفصحاء أنفسهم ، خاصة بعد أن أصبحوا موضع الهجوم من الغيورين على اللغة لإفسادهم لها . وفيما ترويه لنا المصادر من أن الشعبى مر على جماعة من الموالى يتعاطون النحو فقال لهم : « لئن أصلحتموه لأنتم أول من أفسده »[1] فى هذا ومثاله بعض الاحتجاج لما نقول .

أما حركة جمع متن اللغة فقد بدأت إسلامية أول الأمر بهدف جمع الكلمات الغريبة فى القرآن[2] وتقديم تفسير لها ، ثم أخذت بعد ذلك شكلا عربياً تحت تأثير انتقال العرب إلى حضارات غريبة عليهم وبهدف حماية الكلمات التى كانت تعبر عن حضارتهم البدوية من الضياع من ناحية ، وبهدف تنقية المحصول اللغوى — الذى كانت تستخدمه الألسنة وتجرى به أقلام الكتاب — من المعرب والدخيل من ناحية أخرى .

كان هذا العمل فى رأينا — على العكس من النحو الذى كان فيه إلى حد كبير مساعدة للأجانب على اكتساب العربية — كان هذا العمل حماية لعربية العرب الفاتحين . هؤلاء الذين اضطرتهم الظروف وأشكال المجتمعات الجديدة إلى استخدام كلمات ليست فى متن العربية الأصيلة . وإذا سلمنا بهذا الرأى سهل علينا بعدئذ أن نفسر أموراً اختلفت فيها حركة جمع متن اللغة وإخراج المعاجم عن حركة تعقيد القواعد ووضع أسس النحو .

من هذه الأمور أن التدوين فى متن اللغة كان إلى حد كبير متركزاً فى أيد عربية — أو على الأقل — كان كذلك فى مطلع الحركة عل العكس من النحو . ومن هذه الأمور أيضاً أنه فى الوقت الذى تأثر فيه النحو العربى على أيدى النحويين الموالى بنحو اللغة اليونانية وفلسفتها على الأخص فقد بقيت حركة المعاجم عربية ذات أصالة واضحة .

(١) الجاحظ . البيان والتبين جـ ١ ص١٧٦ .
(٢) وتنسب أول رسالة فى « غريب القرآن » لابن عباس .

فلم تكن نقلا عن أحد ولم يثبت أنها تأثرت بمصدر خارجى عن البيئة العربية . فالخليل ابن أحمد — صاحب أول قاموس كبير منظم فى اللغة العربية — قد اتبع فى عيوب قاموسه طريقة تتفق وطبيعة اللغة العربية وتابعة من بنية كلماتها وهى التبويب تحت « مادة الاشتقاق »[1] .

وعلى الرغم من أصالة العرب فى فن القواميس — هذه الأصالة التى شهد بها المستشرق هيوود — فى افتتاحية كتابه المشار إليه فى هامش الصفحة — حين قال : « احتل العرب مكان الصدارة بين أمم العالم فى عمل القواميس ، فلم يسبقهم فيه أحد . . . ولو قيض لمعجزة أن تبعث عربيا من القرن الخامس عشر الميلادى وزار بريطانيا القرن العشرين فلن يدهشه أن يرى أجزاء قاموس اكسفورد الضخم مستقرة فوق أرفف المكتبات ، بل بالعكس سيدهشه عدم وجود مثيله حتى الآن فى بعض البلاد الأوربية[2] » . — على الرغم من هذه الأصالة فإن العرب أنفسهم أو المتأخرين منهم على الخصوص لم يقدروا هذا العمل حق قدره . فانزوى القاموس وأرغم على احتلال ركن مظلم على خريطة الثقافة العربية لم تفلح الجهود فى إخراجه منه إلى اليوم . ففى الوقت الذى يدرس فيه التلاميذ ما لا يقل عن اثنى عشر كتاباً فى قواعد اللغة خلال فترة التعليم التى تسبق دخولهم الجامعة فإن الغالبية العظمى منهم يمضون هذه المرحلة دون أن يستخدموا قاموساً عربيا أو حتى يتصفحوه عن قرب .

كانت هذه هى صورة الأخطار التى أحاطت باللغة فى بداية عصر الفتوحات فتركتها مأخوذة مبهورة الأنفاس ! ولكن أين القرآن والإسلام من كل هذا ! ! لقد وجد العلماء أنفسهم أمام معادلة صعبة . فالقرآن قد نزل بعربية ما قبل الإسلام ، هذه العربية التى كانت تتعرض أمام أعينهم لمؤثرات تكاد تبعدها عما كانت عليه قبل الإسلام . أى أنها كانت آخذة فى التطور . وإذا سارت الأمور على نفس المنوال

(١) يذكر جون هيوود فى كتابه « فن المعاجم العربية » أن المعاجم الهندية (وهى التى يقال أن العرب قد تأثروا بها) كانت أولا فى صورة منظومات شعرية لا تتبع تنظيما معيناً ، ثم اتخذت صورة الترتيب على حسب المعانى مع عدم اتباع نظام ثابت فى أعداد الكلمات داخل كل قسم . ولم يصدر أول معجم منظم بطريقة معقولة فى اللغة الهندية إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى أى بعد أن كان العرب قد أنتجوا فعلا عدداً من أبرع الأعمال القاموسية فى لغتهم .
(٢) المرجع السابق نفسه ص ١ — ٢ .

فستبتعد تدريجيا لتنسلخ عن اللغة التى نزل بها القرآن . ولما كان النص القرآن لا يتغير فسيأتى اليوم الذى لا يستطيع فيه عربى مسلم أن يفهم منه شيئاً .

كان الطريق الوحيد الذى ظهر أمام هؤلاء العلماء هو أن يحاولوا شيئاً لم ينجح فى تحقيقه أبناء أية لغة أخرى فى التاريخ : سواء من جاء قبلهم أو بعدهم . فقد قرروا أن يقفوا باللغة ذاتها ويعزلوها عن تيار التطور . أو بعبارة أجرى أن يبقوا التوازى بين لغة المجتمع ولغة القرآن — وهو التوازى الذى كان موجوداً فى عصر النبى — قائماً لا ينفك إلى الأبد .

لقد أرادوا أن يجمدوا اللغة العربية فى مرحلة اختاروها من بين مراحل تطورها التاريخى بحيث يحتفظون لها بكل خصائصها فى تلك المرحلة . تماماً كما يفعل علماء التغذية فى هذه الأيام حينما يجمدون الأطعمة حسب الطريقة التى يسمونها « التجميد السريع » فيحتفظون لها بخصائص الطعام الطازج من لون وطعم ورائحة دون نقص يذكر فى قيمتها الغذائية .

وقد نجحوا فى ذلك أيما نجاح . فجمدوا أصواتها فيما أصبح يعرف بعدئذ بعلوم القراءات والتجويد وأبواب الإدغام . وجمدوا أبنيتها فى علم الصرف . وتراكيب جملها فى علم النحو ، وأساليبها ومعانى تلك الأساليب فى علوم البلاغة ، كما أحصوا ثروتها اللفظية وأثبتوها فى المعاجم من متخصصة وغير متخصصة .

على أن ذلك العمل التقعيدى — إلى جانب كونه أدى خدمة للقرآن والإسلام — كان فى الوقت ذاته خدمة للغة العربية ذاتها كلغة . فقد رفعها إلى مصاف اللغات المقننة . وبعد أن كانت مجرد نشاط تلقائى لا رقيب عليه ولا ضابط له أصبحت وثيقة من وثائق التاريخ اللغوى للإنسانية . ولم يكن ذلك العمل غريباً على حضارة الدولة العربية فى ذلك الوقت ، فقد تم تقنين اللغة فى الوقت الذى تم فيه تقنين الدولة وإرساء أسس الحكم فيها .

على أن تجميد الطعام مع الاحتفاظ له بقيمته الغذائية شىء وتجميد اللغة مع الاحتفاظ لها بكل خصائصها الحضارية شىء آخر . فلكى تبقى اللغة طازجة فى متناول أسماع أبنائها وألسنتهم لابد وأن يبقى التوازى قائماً بينهما وبين المجتمع

الذى يعيشون فيه . أى لابد وأن تظل مرآة تعكس حضارتها وتعبر عنها . فكان على النحاة لكى ينجحوا تماماً فيما أرادوه أن يجمدوا الحياة أيضاً كما جمدوا اللغة . كان عليهم أن يجمدوا صورة الحضارة التى كانت قائمة وقت تجميد اللغة بحيث يبقى التوازى التعبيرى دائماً بين الاثنتين . غير أنهم لم يحاولوا هذا ، وما كان لهم أن ينجحوا لو حاولوه .

لقد كان لدى العرب — بعد أن خرجوا من حصار مجتمعهم الضيق فى الجزيرة شغف نادر المثال بالعلم والحضارة واتخاذ أسبابهما . أى أن طبيعة الشعب العربى كانت فى الواقع تساعد على تغير حضارة المجتمع وتطورها وبالتالى على إحداث التخلخل بين الصورة اللغوية المجمدة وبين المجتمع العربى المتطور . وقد ساعد على زيادة هذا التخلخل أسباب أخرى . من أهمها : تعدد صور المجتمعات العربية واختلاف ألوان الحضارة فيها تبعاً لاختلاف تاريخها وثقافتها قبل الإسلام . فلا نزاع أن مجتمع فارس كان يختلف من وجوه كثيرة عن مجتمع الأندلس أو مجتمع مصر أو مجتمع شمال أفريقيا مثلا . هذا إلى أن العرب الخلص الذين فقهوا العربية ونهلوها من مواردها الأصلية كان عددهم قليلا جدا بالنسبة لسكان البلاد المفتوحة ، هؤلاء الذين اختلطوا معهم بالتزاوج والتعامل والمعايشة ، خاصة بعد أن رفع الحظر الذى كان عمر قد ضربه على سكنى العرب داخل المدن المفتوحة وتملكهم الأراضى فيها[1] . (ومن يدرى فلعل الخوف على اللغة العربية كان من بين الحوافز التى دفعت عمر إلى فرض ذلك الحظر الشهير ، وإن كانت المصادر التاريخية لم تشر إليه عند تفسيرهم له) أضف إلى ذلك أن تقنين العربية وتقعيدها كان إيذاناً بدخولها الكتب واحتجابها خلف حائط الكتابة وبعدها عن التلقى والمشافهة . أى أنها أصبحت أبعد متناولا عن ذى قبل بالنسبة للأميين ، وهم الغالبية العظمى من أبناء الأمة العربية . فكلما زادت صلتها بالكتابة قل ارتباطها بالخطاب ، وكلما تعلقت بمجالس العلم ومدارسات العلماء زاد انحسارها عن مجالس البيع والشراء . ولا حاجة بنا إلى كثير من الجهد لكى نقرر أن الجانبين — العلم أو البيع والشراء — أكثر تلقائية وأشد اتصالا بالنفوس .

كان العمل الذى قام به النحاة فى الواقع سبباً فى تثبيت ازدواجية اللغة لا عاملا

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١ وص ١٤ .

فى توحيدها كما أرادوا أن يكون . فبتحديدهم صفات الفصحى تحديداً يزيل عنها الالتباس بغيرها ، ويحميها من عوامل المجتمع الخارجى ويغلق الباب أمام دخول لغة الحياة المتطورة عليها — بتحديدهم صفات الفصحى بتلك الطريقة ساعدوا — دون قصد منهم — على تحديد صفات لغتين لا لغة واحدة : اللغة التى تقع داخل الحدود واللغة أو اللغات التى تقع خارجها ، أو اللغة الصحيحة وما عداها ، أو بعبارة أقرب إلى المتداول الآن الفصحى والعامية .

وقد ترتب على هذا التحديد أشياء : ثبتت الفصحى فى مكانها انتظاراً لمن يطرق بابها ، ويطلبها حيث هى نازلا على متطلباتها . وإذا حدث واستجابت لدعوة جرىء للخروج فإن ذلك يكون على استحياء ، وداخل إطارها المقنن ، وبعد فحص دقيق لما يجوز وما لا يجوز . ثم هى تفعل ذلك — إن فعلته — وعيناها دائمة الشخوص إلى الوراء فى الوقت الذى كان فيه المجتمع من حولها لا يكف عن السير فى الاتجاه المخالف . أما العامية — أو ما عدا الفصحى — فقد واكبت المجتمع ونزلت على مقتضياته . عايشت الناس فى منازلهم وشاطرتهم مضاجعهم واختلطت بهم فى أعمالهم أثمت صفقاتهم ، وقاسمتهم أفراحهم وواستهم فى مصائبهم وعبرت عن خلجات نفوسهم وخفقت لنبضات قلوبهم .

حدث كل ذلك نتيجة لجهود النحاة . فقد كبلوا بالقيود لغة وتركوا أخرى مطلقة السراح . عزلوا واحدة عن وجدان أبنائها ، وتركوا أخرى تتسال لتحتل هذا الوجدان . وبذلك ثبتوا — من حيث لم يقصدوا — عوامل الانفصال بين الفصحى وبين العرب بعد عصور الفتح . ولقد كان من الممكن نتيجة لذلك أن تسير الفصحى فى اتجاه وتسير حياة العرب العامة ومعها اللغة التى تعبر عنها ، وهى العامية ، فى اتجاه معاكس ثم تزداد كل منهما بعداً عن الأخرى بمرور الزمن واختلاف المجالات إلى أن تنفصلا انفصالا تاماً وتصبحا لغتين مستقلتين تمام الاستقلال كما حدث بالنسبة للهجات اللغة اللاتينية التى تطورت وازدادت بعداً عن اللاتينية من جانب وبعداً عن بعضها البعض من جانب آخر إلى أن أصبحت لغات مستقلة هى ما نسميه الآن بالفرنسية والإيطالية والإسبانية . . . إلخ .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فما ذكرناه من عوامل انفصال بين العرب وبين

لغة القرآن لم تكن تمثل من الواقع سوى نصفه فقط . أى لم تكن وحدها التى تعمل . لقد كانت هناك عوامل أخرى مضادة لها — يمكن أن نسميها عوامل اتصال — كانت تعمل جاهدة فى الوقت نفسه لتوثيق الصلة بين العرب وبين الفصحى . فالعربية التى خرجت من الجزيرة ناطقة بلسان الدين وبأدب العرب الذين يبشرون به أصبحت فى الأمصار — وفى الجزيرة العربية أيضاً — ناطقة إلى جانب ذلك بلسان الدولة التى قامت على أسس الدين الجديد . وفيما عدا بعض الوظائف الخاصة — كالطب مثلا — لم يكن أصحاب السلطان فى الدولة العربية ليعينوا فى مناصب الدولة وخاصة الهامة منها ، سوى من تملكوا ناصية العربية الفصحى كما أن المسلم لم يكن ليحسن إسلامه بغير دراسة الفصحى والتفقه فيها كوسيلة لقراءة القرآن وفهمه .

لقد دخل أهل الأمصار الدين أفواجاً ، وهرعوا وهرع معهم أبناء الجزيرة إلى أبواب السلطان أفواجاً وكانت أقرب الوسائل إلى نيل ما يطلبون منهما تتضمن معرفة الفصحى بل وإجادتها . فكم من عبارة فصيحة حولت غضب السلطان إلى رضى ورضاه إلى غضب !. حقيقة يحدثنا مؤرخو اللغة عن زيادة تفشى العجمة وشيوع اللحن ابتداء من عصر الفتح (تأثرا بعوامل الانفصال المذكورة) ولكنهم يحدثوننا فى الوقت ذاته عن زيادة إغيرة الغيورين — وقد كانوا عادة من رجال الدين ورجال الدولة — على العربية وتراثها (تأثراً بعوامل الانفصال) .

لقد أدى تفاعل هذه العوامل فى العصور الإسلامية الأولى إلى بذر بذرة الأوضاع اللغوية القائمة الآن . فقد ارتبطت الفصحى بالدين وبالعلم وبالدولة وتخصصت فى شئونها . وبفضل التضاد الذى قام بين ما سميناه بعوامل الاتصال وعوامل الانفصال سارت اللغتان جنباً إلى جنب بدلا من أن تسيرا فى اتجاهين متضادين .

على أن المسافة التى كانت تفصل بين الفصحى والعامية فى رحلتهما عبر القرون لم تكن ثابتة القياس بحال من الأحوال . فقد كان إتقان إحداهما والتخلف فى الأخرى كثيراً ما يخضع لعوامل مختلفة من دينية وجنسية وثقافية وسياسية ومكانية . فمثلا اليهودى أو المسيحى الذى كان يتساوى مع شخص مسلم فى جميع ظروف حياته الأخرى — فيما عدا الدين — كانت عربيته عادة أقل من عربية ذلك المسلم . كذلك كان الشخص الذى ينشأ فى مدينة كبرى وعلى مقربة من رجال العلم أكثر

حظًّا فى الفصحى من نظير له مساو فى جميع الظروف الاجتماعية ممن يعيشون فى مكان لا أهمية له من قرى السواد أو قرى مصر . ونظراً لتشابك هذه العوامل فإنها كانت تعمل بطريقه معقدة بحيث كان يؤدى أى اختلاف فى درجة فاعلية إحداها إلى تغير الصورة اللغوية للمجتمع كله . ولكن على الرغم من تعقد هذه العوامل وتعددها فإنها يمكن أن تلخص فى شىء رئيسى واحد كان ولا يزال له أبعد الآثار على الفصحى ماضيها ومستقبلها . ذلك الشىء هو أنها أصبحت — بعد توثيقها — مرتبطة بالتعليم وبالمدرس وبالكتب . ولما كان التعليم يخضع لظروف المجتمع عامة من ناحية ظروف كل فرد وطبيعة بيئته من ناحية أخرى فقد ارتبط ازدهار الفصحى بازدهار حضارة المجتمع ضعفاً وقوة . ولعل هذا هو السبب فى أنها لم تتردى فى الحضيض بسقوط الدولة الأموية[1] (ذات الطابع العربى) وقيام الدولة العباسية (التى قضت على العصبية العربية) . بل بالعكس ازدادت ازدهارا بازدياد ازدهار الحضارة العباسية على الرغم من الطابع الفارسى لتلك الدولة . وحتى الشعوبيين الذين كانوا ينتقصون من هذه اللغة وأهلها كانوا من أحرص الناس على تعلمها وإتقانها . فما كانوا ليسمحوا لأنفسهم بالتخلف عن ركب الحضارة حتى ولو عنى ذلك دراسة العربية .

كذلك ارتبط إتقان الفصحى على الصعيد الشخصى بظروف الفرد وطبيعة نشأته . فمثلا أدى انتشار اللغة العربية تحت لواء الإسلام المظفر إلى أن كثيراً من أبناء الجاليات اليهودية فى المدن المفتوحة بالأمصار — بدأ كثير منهم يتكلمون باللسان العربى منذ القرن الأول للهجرة . بل إنه لم يأت القرن الرابع حتى كان « معظم رجال الدين اليهود فى العراق وفلسطين وفارس يتكلمون بالعربية . وكذلك كان جميع أفراد المجتمعات اليهودية فى تلك البلاد يستخدمون هذا اللسان . ولهذا كان معظم التعليقات والشروح التى كتبت فى ذلك الوقت على العهد القديم والمشنا والتلمود باللغة العربية ، وكذلك كانت كل المؤلفات الأخرى التى كان يكتبها اليهود . والسبب فى ذلك أن اللغة

(١) يذكر يوهان فك سبباً آخر لعدم تردى اللغة العربية « فى هوة السقوط الذى حاق بالدولة العربية » فيقول : « وربما كان سبب ذلك هو أن لغة القرآن قد صارت فى شعور كل مسلم ، أيا كانت لغته الأصلية ، جزءاً لا ينفصل عن حقيقة الإسلام » ص ٥٠ . ومع أننا لا نرفض هذا السبب إلا أننا نشرك معه السبب الحضارى الذى ذكرناه إذ أن شواهد التاريخ ترجحه وعلى كل حال فمثل هذه الظواهر ترجع عادة إلى عدد من الأسباب لا إلى سبب واحد .

العربية كانت هى اللغة التى يفهمها الناس جميعاً ، بما فى ذلك اليهود »[1] . ومع ذلك فلا يمكن لنا أن نتصور أن تعلم أبناء الجالية اليهودية للغة العربية كان يتبع نفس المنهج الذى كان يتبعه تعلم أبناء المسلمين . فعلى الرغم من أنهم كانوا قد هجروا لغاتهم[2] الأصلية من عبرية وآرامية وركزوا على العربية إلا أننا نستطيع أن نقول إن تبعيتهم للديانة اليهودية وقفت حائلا بينهم وبين أكبر مصدر للعربية الفصحى وهو القرآن والحديث وتفسيرهما وعلوم الشريعة الإسلامية وما يتصل بها . وكانت هذه بالطبع من أسس الثقافة ودراسة العربية لدى المسلمين . ولا شك أن لغة اليهود العربية قد عانت من نقص هذا الجانب فى دراسة أبنائها وخاصة فى المراحل المبكرة من سنى حياتهم .

ويقول « بلاو » إن عجز اليهود عن إتقان الفصحى كان سبباً فى ظهور أدب خاص مكتوب بما دعاه « العربية اليهودية » كان حافلا بكثير من الصفات اللغوية التى تختلف عن صفات الفصحى ، والتى ترجع أساساً إلى ما دعاه « بالعربية الوسطى »[3] . ولم يكن ظهور هذه الصفات اللغوية — فى رأيه — نتيجة محاولة إرادية لاستخدام هذا النوع من الكتابة بدليل أن كل ما كتبه اليهود فى القرون الوسطى قد امتاز بصفة مشتركة لا تختلف وهى أنه لم يكن مكتوباً بالعربية الوسطى . بل أن الواضح فيه أن مؤلفيه كانوا يقصدون الكتابة بالعربية الفصحى وإن كان عجزهم عنها قد قعد بهم عن تحقيق ما قصدوا تحقيقاً كاملا ، فظهرت فيه كثير من الصفات الخاصة بالعربية الوسطى[4] . ويبدو أن « بلاو » فى محاجته هذه يحاول الرد على مثل قول يوهان فك من أن اليهود لم يحاولوا أن يستخدموا « لأول عهدهم بالكتابة العربية تلك العربية الفصحى ، بل اللغة الدارجة فى عصرهم »[5] .

(١) J. Blau, The emergence and linguistic background of Judaeo Arabic, Oxford University Press, 1965, P. 19 and P. 3 .

(٢) فى المرجع السابق ص ٢١ يتحدث المؤلف عن انتقال اليهود للغة العربية ويناقش الأسباب التى حدت بهم إلى هذا العمل ويرجع منها قرب العربية من لغاتهم الأصلية .

(٣) « العربية الوسطى » تقابل « العربية المولدة » عند يوهان فك .

(٤) انظر مناقشة هذه القضية فى صفحات ٢٤ — ٢٦ من المرجع المذكور .

(٥) يوهان فك : ص ١٠٠ .

وسواء استخدم اليهود الدارجة فى أوائل عهدهم بالكتابة ثم العربية المولدة بعد ذلك أو استخدموا العربية المولدة منذ البداية فإن ذلك لا يؤثر على ما نريد إثباته هنا ، وهو أن نوع التعليم الذى كان يتلقاه اليهود كان سبباً فى نشوء عربية كتابية خاصة بهم ، وأن هذه العربية كانت تختلف عن الفصحى وعن الدارجة فى الوقت نفسه . وقد وجد العلماء بفحص المادة المكتوبة بها أنها تتكون من خليط من عناصر لغوية ثلاثة هى :

(ا) العربية الفصحى .

(ب) ما يظنه الكاتب أنه العربية الفصحى (مثل استخدام هتى بدلا من حتى) .

(حـ) اللهجات الدارجة (مثل استخدام الجمع مكان المثنى يفعلون فى مقام يفعلان)[1] .

وهكذا اتضح لنا الخطوط العريضة للقواعد التى سار عليها تطور التركيب اللغوى للمجتمع العربى والتى يمكن تلخيصها فى الآتى :

(ا) فى أقصى اليمين كان هناك « الفصحى النقية » تتمثل فى القرآن والموثوق به من الحديث والشعر والنثر المجمع على قيمته ، وكانت بهذه الصفة طلبة المتعلمين والمثل الذى يحاول أن يحتذيه كل مثقف .

(ب) وفى أقصى اليسار كانت هناك العاميات التى لم تحظ باعتراف من أحد — وإن كان كل واحد يستخدمها — والتى اختلفت من مكان إلى آخر .

(حـ) على أن ما بين الاثنتين لم يكن فراغاً . فقد ساعد التعليم ، أو بعبارة أكثر دقة ، ساعد الفشل فى تحقيق أقصى غايات التعليم ، على وجود ألوان أو طبقات من العربية تدرجت فى الصحة تبعاً لما استطاع أصحابها تحصيله من الثقافة العربية الصحيحة .

نذكر من هذه الألوان ماذكرناه آنفاهما أسماه المحدثون « بعربية اليهود » و « عربية

(١) « بلاو » المرجع السابق ص ٢٧ وما بعدها .

النصارى »[1] ونحن نعتقد من جانبنا أن استخدام هذه العربيات الوسطى لم يقتصر على اليهود والنصارى وحدهم ، بل تعداه إلى غيرهم من المسلمين ممن لم ينالوا حظا وفيراً من العلم القديم . وأن هؤلاء المسلمين من محدودى الثقافة كانوا يستخدمون فى كتاباتهم وفى إنتاجهم الشفوى للفصحى لغة تقل كثيراً عن المستوى الذى حدده النحاة واللغويون القدماء . ويشهد لهذا الرأى وجود هذا العدد الكبير من الكتب التى ألفت فى العربية منذ الكسائى فى القرن الثانى والتى خصصت للملاحن التى كان يقع فيها العامة والخاصة وما يظن أنه لحن للعامة وهو ليس باللحن . . . إلخ . حقيقة وردت هذه الكتب فى صورة ملاحظات متفرقة دون أن ينسب أصحابها وقوع هذه الملاحن والأخطاء إلى عمل تأليفى معين (على عكس الدراسات الحديثة التى توجهت للمؤلفات اليهودية والنصرانية) ولكن ذلك قد يرجع — إلى اختلاف طريقة التأليف عند المؤلفين العرب القدامى عنها عند المؤلفين الأجانب فى العصر الحديث .

كذلك يشهد لوجودمثل تلك اللغة التى لم تكن تعتمد على الإعراب وغيره من صفات العربية الفصحى والتى كانت سائدة فى عصور متأخرة — يشهد لوجود مثل تلك اللغة عالم دقيق الملاحظة ذو بصيرة بالظواهر الاجتماعية وذو قدرة فائقة على وصفها هو ابن خلدون . فقد عقد فصلا خاصًّا لتلك اللغة بعنوان « فصل فى أن لغة العرب لهذا العهد لغةمستقلة مغايرة للغة مضروحمير »[2] . وقد تحدث فى ذلك الفصل عن لسان مضر وعن تدوين العلماء أحكام هذا اللسان ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه حتى صار علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل سماه أهله بعلم النحو » . ثم ينتقل إلى اللغة المعاصرة له فيقول عنها : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد (أى عصره هو) واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون فى أواخرها على غير المنهاج الأول فى لغة مضر . فليست اللغات وملكاتها مجاناً » .

ولم يشذ الوضع اللغوى فى المجتمع المصرى فيما بين الفتح الإسلامى وبدء العصر

(١) المرجع السابق يتضمن وصفاً لبعض الآثار النصرانية المكتوبة « بعربية وسطى » حوالى القرن الثانى الهجرى . انظر ص ٥ وما بعدها .

(٢) مقدمة ابن خلدون . فصل ٣٩ ص ٦٣٥ — ٦٣٧ (القاهرة مطبعة التقدم) .

الحديث عن هذه الصورة العامة : فدراسة العربية ظلت قائمة فى مصر وتحت ظروف مشابهة بصورة عامة لظروفها فى المجتمعات العربية الأخرى منذ الفتح العربى ، وشهدت عصور انحطاط وعصور ازدهار . وكان للتعليم الدينى فى الأزهر أكبر الأثر فى الحفاظ على الفصحى قائمة بصورتها القديمة . كذلك خضعت دراسة العربية فى مصر لمثل العوامل الدينية والاجتماعية التى خضعت لها فى البلدان العربية الإسلامية الأخرى ، وإن اختلفت الصورة فى تفاصيلها المصرية تحت تأثير العوامل المحلية . وكنتيجة لذلك قامت فى مصر درجات من العربية ما بين فصحى وعامية تشبه فى صورتها العامة نظيراتها فى بلاد المشرق العربى[1] .

٤ — ثم ظهر رابع الأحداث الحضارية الكبرى التى أشرنا إليها فقلب ظهوره الأوضاع فى مصر بل وفى الشرق العربى كله رأساً على عقب وتغلغلت آثاره فى كل دقائق الحياة وتفاصيلها . فقد جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فأحدثت أول ثغرة فى الجدار النفسى الذى كان يفصل مصر والشرق عن دنيا الحضارة الغربية الحديثة .

كانت الحملة الفرنسية بما حملت معها من صور حضارية غربية تحمل معها تحديات للعرب وللفهم أكبر بكثير من التحديات التى واجهوها فى المرتين السابقتين . ففى هذه المرة كانت العربية تواجه تيار حضارة غربية عليه دون أن يسندها سلطان من سيادة أهلها كما حدث لها فى المرتين السابقتين . كان العرب فى هذه المرة مندحرين قد « دخلت عليهم من أقطارها » . وكانت حضارتهم مضعضعة تقابل على استحياء حضارة الغرب الفتية .

ووقفت اللغة العربية موزعة بين منطق العقل ونوازع القلب . عقلها الذى أقنعته حضارة العلم الغربى . وقلبها الذى كان لا يزال فى حوزة الدين . وكانت اللغة فى موقفها ذلك تعكس موقف المجتمع نفسه من قوالب الحضارة الجديدة موقف التوزع والانقسام بين الإخلاص والتعلق بانتقاليد الشرقية ، والدهشة والإعجاب بالحضارة الوافدة . وكان هذا التوزع والانقسام فى ضمير اللغة عاملا جديداً فى حركة تطورها أدى إلى إحداث خلخلة فى التركيب اللغوى للمجتمع المصرى وخلق مستويات جديدة فى التعبير بها .

(١) للأستاذ محمد رضا الشبيبى بحث قيم بعنوان « فى تاريخ اللهجة المصرية » منشور بمجلة المجمع عدد ١٢ عام ١٩٦٠ ص ١٢٩ . وقد ذكر فيه بعض نماذج من الألفاظ المصرية الدارجة والتى وردت فى مؤلفات ترجع إلى القرن الخامس .

ولم يلق شىء من ذلك قبولا لدى المحافظين وحماة التقاليد . وبدلا من أن يبحثوا الواقع على حقيقته ويتخذوا بشأنه الخطوات التى تتفق معه ، أداروا ولا يزالون يديرون فى الوقت الحاضر معارك لغوية حول مسائل غامضة أخذت أسماء مثل : « فصحى الفصحى[1] والعامية » و « ألفاظ الحضارة » و « اللغة الثالثة » و « إصلاح النحو » و « التعريب » . . . إلخ .

ولما كنا نعتقد أن من الممكن أن تمضى تلك المعارك إلى ما شاء الله دون أن يصل أصحابها إلى أية نتيجة ما لم تتضح جوانب المشكلة وتدرس عناصرها على حقيقتها — فقد قمنا بهذا البحث لمحاولة رسم صورة واقعية للتركيب اللغوى للمجتمع المصرى (أو ما أسميناه بالمستويات اللغوية) وربطه بالواقع الحضارى الذى نعيشه دون أن نسمح لعاطفة أو فكرة مسبقة أن تتدخل فى أية مرحلة من مراحله . وأملنا ألا نكون بهذا العمل ممن يسهمون فى تلك المعارك ولا ممن يناقشون تفصيلاتها أو يؤرخون لها . فالعلم ليس معركة ! حقيقة قد نجد أنفسنا فى بعض الأحيان قد اقتربنا بالقارئ من ميادين تلك المعارك حتى ليكاد يحس معنا بلفح من نارها ولكن ذلك — عندما يحدث — سيكون بغرض وصف واقع لا نرى بدا من وصفه . ولن نحكم له أو عليه .

ولما كان من المفيد للبحث العلمى أن نربط ما وصلنا إليه من نتائج بما وصل إليه من سبقونا فى هذا الميدان من دراسات — وإن كانت على أسس مختلفة — فقد قسمنا ما بقى من هذا الكتاب إلى قسمين : قسم عرضنا فيه بعض نماذج نعتقد أنها تمثل ما نشر فى هذا الميدان من أبحاث وآراء . وخصصنا له الفصل الثانى . وقسم عرضنا فيه ما قمنا به من أبحاث وملاحظات . وخصصنا له الفصل الثالث .

(١) يستطيع القارئ أن يرجع إلى كتابى الدكتورة نفوسة زكريا « تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر » و « عبدالله النديم بين الفصحى والعامية » ففيهما تاريخ قيم لهذا الموضوع كما أن فيهما ثبتاً هاماً بكثير من المادة التى كتبت بالعامية المصرية فى العصر الحديث .

الفصل الثانى

المستويات فى مصر كما يراها الباحثون

لا بد فى بداية هذا الفصل من أن نقدم تحديداً لما نقصده بمصطلح « المستوى اللغوى » وأن نفرق بينه وبين مصطلحين شاعا فى الاستعمال العام والخاص على السواء وهما مصطلحا « اللغة » و « اللهجة » .

فعلى الرغم من أن علماء اللغة قد كفوا مؤخراً عن محاولة اقتراح تعريفات للمصطلحين الأخيرين ، بعد أن تبين لهم عقم هذه المحاولات فى الوقت الحاضر على الأقل ، إلا أن هذا التوقف لم يمنع أحداً من استخدامهما بكثرة مما ساعد على تكوين مفهوم عام لهما يؤدى الغرض فى كثير من الأحيان . فنحن مثلا نتكلم عن « اللغة العربية » وعن « لهجة القاهرة » آخذين كقضية مسلم بها أن القارئ « يعرف ما نقصد » . وأن الثانية تندرج تحت الأولى اندراج الخاص تحت العام .

ولا اعتراض لنا على هذا الفهم — من الناحية العملية على الأقل — طالما بقى الأمر على هذا المستوى من التجريد : « لغة » فى مقابل « لهجة » . أو حتى على مستوى تجريدى أقل من هذا ، « لغة عربية » فى مقابل « لهجة مصرية » أو « لهجة سورية » ... إلخ .

على أن الأمر يختلف إذا ما تركنا التجريد وهبطنا إلى المستوى الواقعى للإنتاج اللغوى نفسه . ونمثل لذلك بنص نقتبسه من مسرحية الأستاذ محمود تيمور « المخبأ رقم ١٣ » . ولهذه المسرحية وضع لغوى خاص . فقد أصدرها الأستاذ تيمور فى نسختين ، قال عن واحدة إنها بالفصحى وقال عن الأخرى إنها بالعامية . ولذلك فعباراتهما متقابلة تمام التقابل مما يعطى الباحث فرصة فريدة للدراسة لغة الأدب كما يتصورها كبار الأدباء فى العصر الحديث .

يقول « قشقوش » ماسح الأحذية مخاطبا بسبوسة المرأة العجوز :

« الخروج ممنوع ياخالتى . . كونى مطمئنة على ابن بنتك . . ما الذى تخشينه عليه من هذه الغارات ؟ . . سوف يطرب جدا لمنظر الطائرات وهى تحلق فى السماء كأنها النحل وسوف يصفق لها ويصيح . . ياليتنى كنت معه »[1] وترد العبارة ذاتها فى نسخة العامية على الصورة التالية :

(١) محمود تيمور ، المخبأ رقم ١٣ ، مطبعة دار الهلال ١٩٤٩ : ص ٢١ .

« دول محرجين ما حدش يخرج ياخالتى .. مفيش جنس واحد دخل يقدر يعتب الباب إلا بعد ما يبان بياضها من سوادها . وخايفه على إيه ؟ حطى فى بطنك بطيخه صيفى .. ابن بنتك دلوقت تلاقيه فرحان ومزقطط مستنى الطيارات لما تزن فى السما زى النحل ياما حيسقف ويعمل له هيله وهلوله .. ياريتنى معاه ياخالتى نفرفش سوا . . . »[1] .

ولو سألنا واحدا من المثقفين المصريين عن العلاقة بين هذين النصين لكانت إجابته فى الغالب : تلك « فصحى » وهذه « عامية » . ولو سألنا مصرياً غير مثقف فن المحتمل أن يقول « واحده بالبلدى والتانيه بالنحوى » أو ما أشبه . ولو سألنا سوريا مثلا لقال « الأولى بالفصحى » والثانية « بالعامية المصرية » .. ولكن أحداً لن يذكر شيئاً عن تضمن أحد النصين أو اشتماله على الآخر .

وحتى لو تركنا النصين المذكورين بعينهما وصعدنا فى التجريد درجة أعلى فقابلنا بين « الفصحى » و « العامية المصرية » فلا يمكن لنا أن نقول إن الأولى أعم من الثانية . إذ لو قلنا بذلك لترتب عليه وجوب القول بأن قوانين الفصحى تشتمل على قوانين العامية ، بل وجميع العاميات أيضا ، وهو مالا يقول به أحد . فالفصحى فى الواقع ليست إلا لهجة ارتقت حتى أصبح لها أكبر قدر من المكانة والأهمية بين أخواتها (سواء أقلنا إنها كانت أصلا لهجة قريش أو لهجة غيرها) ، وهى بهذا المعنى ليست أعم من سواها من اللهجات قديما أو حديثا .

وهكذا نصل إلى تقرير نوعين من التقابل ، لكل نوع مصطلحاته الخاصة به :

الأول : ما يسمى « بعامية القاهرة » فى مقابل « اللغة العربية » أو « الخاص » فى مقابل « العام » أو « اللهجة » فى مقابل « اللغة » .

الثانى : ما يسمى « بعامية القاهرة » فى مقابل « الفصحى » ، وليس بينهما عموم ولا خصوص بل هما متكافئان ، ولكل منهما دوره الاجتماعى الذى يؤديه فى الجماعة اللغوية الواحدة . ونحن هنا نقترح استخدام مصطلح « المستوى » فى الدلالة على المتقابلات من النوع الثانى . فنقول مثلا : « مستوى العامية » و « مستوى الفصحى »

(١) المصدر السابق : ص ١٠٤ .

وهكذا . وبهذا المعنى يوجد فى مصر — بل وفى كل بلد عربى — أكثر من مستوى .

كذلك من المفيد ونحن بصدد تحديد المصطلحات أن نبين المقصود بمصطلح سوف نستخدمه فى مناقشاتنا وهو « المجتمع اللغوى المتكامل » . وهو عبارة عن المجتمع أو الجماعة الإنسانية التى تعيش عن قرب (بالشروط التى سنذكرها فيما بعد) وتتحقق لديها جميع المستويات اللغوية التى سنحددها . فمثلا القاهرة تعد مجتمعاً لغوياً متكاملا ، للسبب المذكور ، على العكس من بعض القرى . فقد توجد قرية نائية محدودة العدد ليس لأهلها حظ يذكر من التعليم العام وأهلها لذلك يستخدمون فى محادثاتهم داخل القرية وخارجها (فى المناسبات القليلة التى يغادرونها فيها) نوعاً واحداً من العامية . مثل هذه القرية فى اصطلاحنا لا تمثل مجتمعاً لغوياً متكاملا .

وليس غرضنا فى هذا الكتاب أن نجرى مسحاً شاملا للأراضى المصرية لكى نعين ما يكون فيها مجتمعاً كاملا وما لا يكون . ولكن خطتنا تقوم على اختيار قطاع محدود من هذه الأراضى تتوافر فيه مواصفات « المجتمع اللغوى المتكامل » — وليكن القاهرة — ثم نبين مستويات العربية التى يستخدمها والخصائص اللغوية لكل مستوى على حدة والفرق بينه وبين غيره من المستويات من الناحيتين اللغوية والاجتماعية ، ثم نربط ذلك بالتركيب الاجتماعى لهذا القطاع وبالعوامل التى ساعدت على تحديد هذا العدد بالذات من المستويات اللغوية .

ولما كانت تلك العوامل مصرية فى نشأتها وتكوينها (أى نتيجة للظروف الثقافية والسياسية التى مرت بها مصر) فإن أثرها ينطبق على بقية قطاعات المجتمع المصرى بطريقة مشابهة لانطباقه على القطاع الذى اخترناه للدراسة . حقيقة لا بد وأن توجد بعض الخلافات فى التفاصيل بين قطاع وقطاع آخر (بل إن هذا ضرورى لاعتبارهما قطاعين مختلفين) ولكننا نعتقد — كما سنحاول البرهنة على ذلك فى حينه — أن الصورة العامة لتوزيع المستويات اللغوية تكاد تكون واحدة فى أنحاء مصر كلها .

وبعد هذا التحديد لمصطلحى « المستوى اللغوى » و « المجتمع اللغوى المتكامل » ننتقل إلى الموضوع الرئيسى لبحثنا وهو الحديث عن المستويات اللغوية ذاتها وخطتنا فى

ذلك أن نبدأ باستعراض الأفكار الشائعة فى هذا الميدان حرصاً على تحديد جوانب الموضوع أولا من ناحية ، وتسهيلا لوضع النظرية التى نعرضها فيما بعد فى إطارها الصحيح من التفكير اللغوى المعاصر من ناحية أخرى .

على أننا فى هذا الاستعراض سنكتفى ببيان الاتجاهات العامة دون تتبع الأقوال الفردية إلا إذا كان الاتجاه من عمل فرد بذاته أو ارتبط اسمه أو بأعماله بطريقة أخرى .

وأول ما يقابلنا فى هذا الميدان هو الرأى — أو بعبارة أدق الاعتقاد الشائع لدى الغالبية العظمى من المثقفين — والذى يقول بأن المستوى اللغوى الوحيد الموجود فى مصر والذى له مقومات اللغة هو الفصحى وحدها . أما العامية فليست عندهم لغة قائمة بذاتها بل هى مجرد تشويه للفصحى . وعلى الرغم من أنهم يرون العامية من حولهم ويستعملونها طيلة الوقت فإنهم لا يعترفون لها باستقلال . فهى عندهم ليست ذات نظام خاص بها وليس لها قواعد أو قوانين . هى فقط مجرد الخطأ أو النقص الذى ظهر فى الفصحى . وأصحاب هذا الرأى بالطبع يخلطون بين عدم وجود تدوين لقواعد العامية وبين حقيقة وجودها على الإطلاق . فما ليس مكتوباً — على حسب قولهم — ليس موجودا فى الواقع .

ولا حاجة بنا إلى كثير من المناقشة لبيان الخطأ الواضح فى مثل هذا الاعتقاد . فلو لم يكن للعامية قواعد لما أمكن التفاهم بها . فبمجرد سماعنا شخصاً يقول « محمد ضرب على » نفهم من قوله هذا أن محمداً هو الذى قام بالفعل وأن علياً قد وقع عليه الضرب . ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كان هناك قاعدة على أساسها يستخدم السامع والمتكلم اللغة بطريقة موحدة . ولو قال شخص مثلا « محمد على ضرب » بتغيير الترتيب « المتعارف عليه » — أى القاعدة لما فهم قصده . وهذا هو ما قصده ابن خلدون « بالمجانية » (أى بلا قاعدة) فى النص الذى اقتبسناه عنه سابقا حين قال : « فتكون لها (أى العربية فى عصره) قوانين تخصها ولعله تكون فى أواخره (أى الكلام) على غير المنهاج الأول فى لغة مصر . فليست اللغات وملكاتها مجاناً »[1] .

(١) ابن خلدون : ص ٦٣٧ .

ومن المدهش حقاً أن يتردد مثل هذا القول فى كتاب متخصص صدر مؤخراً عن العامية المصرية . فقد جاء فيه : « لغة الأدب أو الفصحى هى اللغة التى تستخدم فى تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكرى عامة ، أما لغة الحديث أو العامية فهى اللغة التى تستخدم فى الشئون العادية ويجرى بها الحديث اليومى . والأولى تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عباراتها والثانية لا تخضع لمثل هذه القوانين لأنها تلقائية متغيرة تتغير تبعاً لتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم »[1] .

وقد أصبح إنكار وجود قواعد للعامية تحت تأثير عدم وجود تدوين لها — أصبح فى الواقع إنكاراً غير ذى موضوع . فقد دونت هذه القواعد وكتبت فيها الكتب العديدة وأصبحت موضوعاً للدراسة المنتظمة منذ عشرات السنين . والشىء الذى لا يستطيع المرء فهمه حقاً هو كيف يتحدث هذا الفريق عن العامية فيعتبرها خطراً على الفصحى ، ويحرم الكتابة بها وينعى على الذين ألفوا بها أو فيها ثم بعد كل ذلك ينكر وجودها المستقل عن الفصحى وينكر أن يكون لها قواعد وطرق للتعبير خاصة بها !

وعلى كل حال فلا ينبغى للباحث اللغوى أن يأخذ هذا الرأى مأخذ الجد من وجهة نظر علمية . ولولا كثرة من يردده من المثقفين لما كان هناك مبرر كاف لتخصيص الحيز الذى أفردناه له فى هذا البحث .

أما الرأى الثانى فيعترف بوجود العامية كبناء لغوى مستقل وقائم بذاته إلى جانب بناء الفصحى . ولا ينقضى إعجابنا بابن خلدون الذى تنبه إلى هذه الحقيقة التى كانت فيما يبدو تعتبر غريبة جدا على أبناء عصره . وقد لخصها فى عبارة وضع فيها أصبعه على الفرق الأساسى بين التركيب البنائى للغتين فقال إننا لو اعتنينا ببحث اللغة المعاصرة فقد نهتدى إلى أن تلك اللغة تستخدم أموراً لبيان الدلالة فيما سوى علامات الإعراب الذى تتخذه لغة مضر (أى الفصحى)[2] .

هذه الأمور التى شعر ابن خلدون بوجودها والتى اهتدى إليها العلماء الآن هى ترتيب الجملة . فلما كانت الفصحى تستخدم علامات الإعراب فى الدلالة على

(١) دكتوره نفوسة ذكريا : « تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر » ، الاسكندرية ١٩٦٤ ص ٣ .

(٢) ابن خلدون : المرجع السابق نفسه .

العلاقات التركيبية داخل الجملة مثل الفاعل والمفعول . . . إلخ — لم يكن هناك ضرورة لأن تتبع مكونات الجملة نظاما قاسياً لا تحيد عنه لكى يفهم المقصود بها . فمن الممكن أن نفهم أن **المقصود الأساسى** فى الجمل الستة الآتية واحد على الرغم من اختلاف نظامها :

ضرب محمد عليا

ضرب عليا محمد

عليا ضرب محمد

عليا محمد ضرب

محمد ضرب عليا

محمد عليا ضرب

ووسيلتنا إلى فهم الجمل الستة هى بلا شك علامات الإعراب الموجودة فى كل منها . فإذا ما أردنا أن نعبر عن ذلك المعنى بالعامية مع استخدام هذه الكلمات الثلاث فليس لنا أن نتبع فى ترتيبها نظاما سوى :

محمد ضرب على

فوجوب تقدم « محمد » على الفعل وتأخر « على » عنه فى العامية يقوم مقام وجوب رفع « محمد » ونصب « على » فى الفصحى .

ومع اهتمام الغرب بالشرق فى مطلع العصر الحديث حظيت العامية المصرية (وغيرها من العاميات العربية) باهتمام كبير من المستشرقين وخاصة ابتداء من القرن الماضى . فبدأت حركة لجمع آدابها وألفاظها وتدوين قواعدها . وساهم فى هذه الحركة باحثون عرب وأجانب أصدروا رسائلهم وكتبهم عنها بلغات عديدة . وقد قام الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف بجهد مشكور لحصر هذه المؤلفات ، ونشر ثبتاً بها فى مقالين أصدرهما بالجزء الأول والثالث من مجلة مجمع اللغة العربية (عام ١٩٣٤ و ١٩٣٦ على التوالى)[1] . كذلك قامت الدكتورة نفوسة زكريا سعيد فى رسالتها لنيل الدكتوراه

(١) نشر المقالان بعنوان واحد . « اللهجة العربية العامية » ج ١ ص ٣٥٠ — ٣٦٨ و ج ٣ ص ٣٤٩ — ص ٣٧١ .

والتى نشرت بعد ذلك فى عام ١٩٦٤ بعنوان « تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر » قامت بجهد قيم حصرت به كثيراً من المادة التى كتبت باللغة العامية والتى نشرت فى الصحف والمجلات المصرية والتى ظهرت على هيئة مسرحيات أو قصص ...إلخ . ولما كانت الرسالة قد قدمت فى أوائل الستينات فمن الطبيعى أن تكون قد ركزت على الإنتاج فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . ولم تتناول موجة التأليف الأدبى بالعامية والتى أخذ مدها يعلو فى الوقت الحاضر .

على أن الاهتمام بالعامية وخاصة من جانب الغربيين أشعل شرارة معركة ضارية باسم الفصحى والعامية دارت رحاها فى القرن الماضى وأوائل القرن الحالى وتبودلت فيها أقسى الاتهامات : الجمود وعدم مسايرة ركب الحضارة وعدم الاستجابة لمقتضيات العصر من ناحية وسوء النية والرغبة فى القضاء على الإسلام والشخصية العربية أو على الأقل الغفلة والانخداع بحيل المستعمرين من ناحية أخرى . وكالشأن فى كل المعارك التى تدور حول اللغة القومية فى أى مكان وفى أى زمان اختلطت فى تلك المعركة نوازع العاطفة بمقتضيات العقل ، والموضوعية بالذاتية ، ووصل الأمر بالأطراف المتخاصمة إلى حد لم يعد ممكنا معه أن تفحص الحجج أو تقارن الأسانيد . وقد أرّخت الدكتورة نفوسة زكريا لهذه المعركة فى كتابها القيم وإن كنت شخصياً أتمنى لو أنها لم تسمح لشعورها الوطنى بأن يدفعها للاشتراك فى المعركة خاصة وأنها لم تر غضاضة فى كتابة عبدالله النديم باللغة العامية (وهو الشخصية التى خصصت للغتها كتابا منفرداً) مع أن الحجة التى اعتذرت بها عنه هى ذاتها الحجة التى استخدمها من قبل أغلى غلاة المتعصبين للعامية : هذه الحجة هى عجز العامة عن فهم الفصحى[1] .

على أنه لكى تتسم معالجة المشكلة بالموضوعية ينبغى فى نظرنا أن نفرق فيها بين جانبين .

الجانب الأول : يتناول علمية الفرق بين العامية والفصحى ومدى استقلال كل منهما عن الأخرى .

(١) د. نفوسة ذكريا « عبدالله النديم بين العامية والفصحى » انظر على الأخص صفحات ٩٤ ، ١١٩ ، ١٢٠ .

والجانب الثانى : يتناول الدور الذى تصلح له كل من اللغتين فى نظر الفرق المتنازعة .

فلو أخذنا الجانب الأول فإننا نجد أنه باستثناء ابن خلدون الذى شعر باستقلال كل من لغة مضر واللغة المعاصرة له إحداهما عن الأخرى ، بل وعن الفارق الأساسى بينهما كما قلنا فى الصفحات السابقة — فإن علماء العربية منذ عصر الفتوحات وحتى مطلع القرن العشرين — على قدر ما نعلم — لم يروا فى العامية سوى مجموعة من اللحن والأخطاء الشائعة التى ابتليت بها الفصحى ، وأنها أى العامية ليست لغة ذات كيان مستقل عنها . وعلى هذا الأساس ألفوا كتب اللحن والأخطاء التى يعتبرها العلماء العرب مؤلفات فى العامية . وفى رأيى أن اعتبارها كذلك فيه قدر كبير من التجاوز . فكتب اللحن هى الواقع مؤلفات فى أخطاء طبقة معينة من الناس (يختارهم مؤلف الكتاب) فى النطق بالفصحى . أما دلالة هذه الأخطاء على صفات العامية السائدة فى عصر تأليف الكتاب فهى مسألة غير مباشرة وفيها قدر من الظن والتخمين . فقد يكون أحد الأخطاء فى نطق الفصحى ناشئا مثلا عن مجرد الجهل بالفصحى وليس عن تأثير العامية . فمثلا كثيراً ما نسمع بعض المثقفين اليوم ينطقون جمع كلمة « كفء » بنفس الطريقة التى ينبغى أن ينطق بها جمع كلمة « كفيف » . وهذ خطأ لا نعتقد أن لتأثير العامية المصرية المعاصرة أى دخل فيه . وعلى هذا فكتب اللحن جميعاً فى رأيى كتب فى العربية الفصحى بصفة أساسية وإن كانت ذات دلالة ضمنية على بعض صفات العامية . بل إن هذا الحكم ينطبق أيضا على كثير من الكتب التى توحى عنواناتها بتخصيصها للعامية . وخير مثال على ذلك معجم العلامة أحمد تيمور والذى أطلق عليه اسم « معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية » . فمؤلفه يقول : « غرضنا من وضع هذا الكتاب إحياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العامى . وتفسيره ، ورده إلى نصابه من الصحة إن كان عربى الأصل ، أو بيان مرادفه — إن لم يكن كذلك — ليحل محله ، ويرجع إليه فى الاستعمال . . ليس قصدنا إثبات كل ما نطقت به العامة سواء صح أو لم يصح ، بل القصد الاقتصار على ما تتطلبه الحاجة وتدعو إليه الضرورة ، وإهمال ما عداه مما اشتهرت صحته . أو تغير تغيرا طفيفاً لا يطمس مقاله أو يصرفه عن منحاه . وكان أمر تصحيحه ميسوراً بالرجوع

إلى معاجم اللغة وقواعد العربية »[1] .

أما المستشرقون وخاصة علماء اللغة منهم فقد رأوا فى العامية ما يؤهلها لأن تكون لغة مستقلة عن الفصحى فتناولوها بالبحث والتأليف على هذا الأساس . ولا يتصل بهدفنا فى هذه النقطة أن نناقش ما يسمى « بالأهداف الحقيقية » وراء هذا الاتجاه ، فكل ما نريد أن نقرره هنا هو أن هذه النظرة إلى العامية باعتبارها ذات كيان مستقل نجحت فى تشكيل دراسات العامية وإخراجها من دائرة مباحث « اللحن والأخطاء » إلى مستوى البحث العلمى الجاد للعامية فى حد ذاتها أولا بحيث إذا أريد مقارنتها بالفصحى أوردها إليها ... إلخ كان لدى الباحث أساس متين يرتكز عليه .

وتأثرا بهذه الروح العلمية التى تفرق بين ما هو كائن فعلا وبين ما يريد العربى الغيور على لغته أن يكون كتب الأستاذ محمد فريد أبوحديد بحثاً قيما بعنوان « موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى » وقد قسمه إلى قسميه الطبيعيين :

(١) ما هو كائن : وقد قال عنه فى وصفه للقواعد « إن العامية ليست مجرد مسخ أو تشويه للعربية بل قد أصبحت لغة قائمة بذاتها ، ولها قواعدها وأصولها ، وإذا شذ عنها شاذ عد ذلك خروجاً عن طريقة مقررة »[2] كما قال فى وصفه للأساليب « يمكننى شخصيا أن أقول إن كثيراً من الأساليب العامية أصدق أداء للمشاعر من بعض الأساليب القديمة . فوضوح الصور وتتابع الأحاسيس لا تحتمل التقييد بأسلوب تقليدى »[3] .

(٢) وما ينبغى أن يكون : وقد قال عنه « ليس معنى هذا أن الأمر قد استعصى على العلاج فإننا إذا درسنا كل قواعد العامية وحصرنا كل خصائصها كان من الممكن القصد إلى كل واحدة من هذه الخصائص لعلاجها[3] .

---

(١) معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية . تحقيق الدكتور حسين نصار . الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م . ج ١ ص ١٨ — ١٩ .

(٢) مجلة المجمع اللغوى ج ٧ ص ٢١٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢١٨ .

ولم يكتف بعض المستشرقين بهذا القدر من الفصل بين عامية اليوم والفصحى باعتبار أن كلا منهما أصبحت مستقلة عن الأخرى فى الوقت الحاضر – بل ذهبوا إلى القول بأن معظم عاميات اليوم باستثناء عاميات شمال أفريقيا – لم تتطور عن الفصحى (وهى الفكرة التى تقوم على أساسها كتب اللحن إذ تعتبر أن العامية نشأت عن تراكم الأخطاء فى استخدام الفصحى) بل إنها تطورت عن عاميات أو لهجات عامية كانت سائدة فى الجزيرة قبل الإسلام ثم حملها جنود الفتح معهم إلى الأمصار[1] . فالعاميات بهذا الاعتبار ليست تالية تاريخيا للفصحى بل موازية لها فى خط التطور .

على أن القول باستقلال عامية اليوم عن الفصحى (بقطع النظر عن خط التسلسل التاريخى المشار إليه فى مقال الأستاذ فيرجسون) واختصاصها ببنية قائمة بذاتها – هذا القول أصبح مقبولا اليوم بعد أن قامت البراهين على صحته . وعلى هذا الأساس صدر عدد من المؤلفات الأجنبية فى الخمس عشرة سنة الأخيرة لشرح قواعد العامية المصرية وتدريب المتعلم الأجنبى عليها . ونحن نختار منها مجموعة نعتقد[2] أن الباحث العربى لابد وأن يكون على علم بها مهما كانت وجهة نظره فى قيمتها :

1. T.F. Mitchell,
   a. *An Introduction to Colloquial Egyptian Arabic. London,* Oxford University press, 1956.
   b. *Teach yourself Colloquial Arabic.* London, 1964.
2. Richard S. Harrell and others, *Lessons in Colloquial Egyptian Arabic.* Georgetown University Press, 1963.
3. Walter Lehn and Peter Abboud, *Beginning Cairo Arabic.* Hemphill's Book stores, Austin, Texas, 1965.
4. Maurice Salib, *Spoken Arabic of Cairo.* American University press, Cairo.

(١) نحيل بالقارئ على المقال الهام الذى كتبه الأستاذ C. A. Ferguson فى هذا الموضوع بعنوان Arabic Koine ونشره فى مجلة Language عام ١٩٥٩ . ص ٦١٦ – ٦٣٠ .

(٢) هناك الكثير غيرها مما صدر بمعظم لغات العالم الرئيسية . ونحن نكتفى بما ذكرنا منها لتيسر الحصول عليه نسبيًا .

كذلك صدرت قواميس للعامية أحسنها وأكثرها استقصاء وموضوعية ما أصدره سقراطيس سبيرو بك فى العشرينات وهى :

Socrates Spiro Bey

1. Arabic-*English Dictionary of the Modern Arabic of Egypt.*

وقد صدرت طبعته الثالثة والأخيرة عام ١٩٢٣ .

2. *An English-Arabic vocabulary of the Modern and Colloquial* Arabic of Egypt.

وقد صدرت طبعته الثالثة والأخيرة بالقاهرة عام ١٩٢٩ . وتمتاز أعمال سبيرو بأنها عمدت إلى ، أو حاولت . تسجيل الألفاظ العامية فى حد ذاتها بقطع النظر عن صلتها التاريخية بالفصحى . كذلك أصدر إدوارد إلياس قاموسا فى وقت لاحق لقواميس سبيرو هو :

Edward. E. Elias

Practical Dictionary of the Colloquial of the Middle East : English-Arabic.

وقد صدرت طبعته الرابعة والأخيرة عام ١٩٤٩ . ويأتى فى مرتبة أقل كثيرا من الناحية العلمية بعد قواميس سبيرو نظراً لمحاولته معالجة لغة الشرق الأوسط كله دون أن تتيسر له الإمكانيات العلمية لتحقيق هدفه من ناحية ولصغر المادة المذكورة فيه من ناحية أخرى[1] .

والمتأمل لقواميس سبيرو يلاحظ أنها لم تعد تمثل العامية المصرية تمام التمثيل وخاصة بعد حركة النهضة العلمية والاجتماعية الأخيرة . والحاجة ماسة الآن إلى وضع قاموس حديث للعامية المصرية ، يقوم على أسس الاستقراء العلمى ، ويسجل الظاهرة العامية كما هى ، دون أية أفكار سابقة ودون اختيار أو تفضيل لكلمة على أخرى وبقطع النظر عن كون الكلمة المجموعة تتفق أو لا تتفق مع أصول العربية الفصحى . والذى يستوقف

(١) يقع القاموس فى ٢٨٤ صفحة بحجم الثمن .

النظر حقيقة هو أن هذا الميدان لم ينزل إليه علماء العرب إلى الآن على الرغم من أهميته العلمية والاجتماعية . وكان المأمول أن يضطلع المجمع اللغوى بهذه المهمة خاصة بعد أن جعلها من أهداف « لجنة اللهجات » . فقد جاء بين الأغراض الخمس التى وعدت اللجنة بتحقيقها فى تقريرها الذى عرضته فى جلسة ٨ يناير ١٩٤٩ ما يلى : « استقراء الألفاظ والتراكيب الجارية على ألسنة أهل الأقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا فى معاجم وأطالس لغوية »[١] .

أما محاولات المصريين لجمع مادة العامية المصرية – وقد ظهر منها الكثير فى النصف الأول من هذا القرن[٢] – فقد كانت عموماً تهدف إلى تنقية ألفاظ العامية من الشوائب التى اختلطت بها على مر السنين ، والتوفيق بينها وبين ألفاظ الفصحى ، وبيان أصلها من اللغة . كما كانت تصدر فى محاولة لخدمة الفصحى وتقوية لها ، ولذلك فلم يعن أصحابها بالاستقصاء والتحرى فى جمع مادة العامية كلها .

على أن هناك قاموساً لا بد من إفراده بالذكر لأهميته واختلافه فى بعض الأسس التى قام عليها عن غيره . ذلك هو معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية والذى يحققه ويشرف على إصداره الأستاذ الدكتور حسين نصار[٣] . فعلى الرغم من أن هذا المعجم يشترك مع ما سبقه من معاجم مصرية التأليف فى الهدف ، إذ يقول مؤلفه المرحوم أحمد تيمور : « غرضنا الأول من وضع هذا الكتاب إحياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العامى ، وتفسيره ، ورده إلى نصابه من الصحة إن كان عربى الأصل ، أو بيان مرادفه – إن لم يكن كذلك ليحل محله ، ويرجع إليه فى الاستعمال »[٤] – على الرغم من هذا فإنه يختلف – فيما يبدو – عن كل ماسبقه فى صفة أساسية هامة هى الرغبة

(١) مجلة المجمع ج ٧ ص : ٣١٦ .

(٢) نحيل القارئ على كتاب « المعجمات العربية » للأستاذ وجدى رزق غالى الذى صدر عام ١٩٧١ والذى يشتمل على قائمة بما صدر من معاجم العامية المصرية .

(٣) يقوم الدكتور حسين نصار بهذا العمل بتكليف من الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. وقد صدر من المعجم حتى وقت إعداد هذا البحث الجزء الأول فقط ، ونرجو أن يتم نشر باقى الأجزاء لأهمية هذا العمل الكثير من فروع الدراسات المصرية .

(٤) معجم تيمور الكبير : تأليف أحمد تيمور ، تحقيق حسين نصار ، الهيئة العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧١ – ١ ص ١٨ .

فى الاستقصاء قدر الطاقة وجمع متن العامية حتى ولو لم يكن له أصل معروف من الفصحى . يقول الأستاذ المحقق فى تصديره : « ولم يقتصر على نوع من المفردات . فلم يعن بالعربى الأصيل ويهمل ما لم يدرك له أصلا عربيا ، أو ما عرف له مصدراً غير عربى . ولم يفرق بين دخيل قديم أو حديث . وإنما أتى بكل ما عرف ، وأورد كل ما توصل إليه من أصول عربية وفارسية وتركية وإيطالية وإنجليزية وفرنسية وغيرها »[١] . ولذلك فإن هذا المعجم يعتبر تطوراً هاماً فى نظرة الباحث إلى اللغة العامية واعتبارها ذات كيان مستقل ينبغى الاعتراف به وتسجيله – بقطع النظر عن الهدف من وراء التسجيل – حتى ولو لم يكن ذا أصول فصحى معروفة .

أما الجانب الثانى وهو يتناول الدور الذى يصلح له كل من اللغتين فى نظر الفرق المتنازعة فهو أصعب الجانبين على التناول الموضوعى . ووسيلتنا إلى التغلب على تلك الصعوبة أن نصف الآراء ونختار لكل منها ممثلا ثم نرى مدى انطباقها على الواقع اللغوى ملتزمين فى كل ذلك المنهج الوصفى دون أن نقحم أنفسنا طرفاً فى المعركة ذاتها . والتزاما بتلك الحيدة وبما يمليه المنهج فلن نحاول البحث عما يسمى « بالدوافع الحقيقية » وراء الآراء التى قيلت . بل سنناقش كل رأى على مستوى الأدلة التى تدعمه متحاشين إصدار الأحكام الذاتية مثل « غيور على الفصحى » و « ذو هدف استعمارى » . . . إلخ . ولهذا فقد نعتبر أشخاصاً جرى العرف على اعتبارهم من معسكرات مختلفة – قد نعتبرهم ذوى آراء متشابهة ، مثل ويلكوكس ومحمد تيمور والزيات . . . إلخ .

ويمكن تلخيص ما وجه إلى الفصحى فى أنها بتراكيبها ومفرداتها التى كانت لها فى وقت اشتداد المعركة وخاصة فى أوائل هذا القرن – هذه التراكيب والمفردات لا تتسع للتعبير الواضح القريب من أوساط القراء وخاصة فى الميادين التالية :

(١) العلوم .

(٢) ألفاظ الحضارة وطرق المعيشة الحديثة .

(٣) الأدب المعبر عن البيئة الشعبية وما يتصل بهـا من مشاكل اجتماعية .

(١) المرجع السابق ص ١٤ .

ومن الغريب أنه يكاد يوجد اتفاق بين الأطراف المتنازعة على الحقائق الأساسية :

(١) فثلا ويلكوكس[١] يقرر أن هناك انفصالا بين مثقفى المصريين فى عهده وبين اللغة الفصحى وأنهم عندما يتلقون الدروس « بالفصحى المصطنعة » فإنها لا تتصل بوجدانهم أو تمس قلوبهم ولذلك أصبحوا عاجزين عن التفكير البكر . فقوة التفكير الذهنية عند المصريين تستنفد فى ترجمة مايقرءونه بالفصحى إلى العامية المألوفة لديهم . وعندما يريدون الكتابة فإنهم يترجمون ما يريدون قوله إلى الفصحى . فالفصحى فى رأى ويلكوكس لا تصلح لغة تعبر عن العلوم أو تؤدى مطالب المجتمع الحديث .

(٢) كذلك يلاحظ عبد الله النديم أنه من الضرورى استخدام اللغة الدارجة — على الرغم من كراهيته الشديدة لذلك — إذا ما أريد لكلمة الإصلاح أن تبلغ العامة . فهؤلاء لا يستطيعون أن يتفاعلوا حتى مع الفصحى البسيطة السهلة التى اصطنعها النديم فى كتاباته الصحفية وأتقنها[٢] .

(٣) وكتب الدكتور زكى مبارك فى بحث قدمه اشتراكاً فى مسابقة أعلنت عنها الحكومة فى عام ١٩٣٦ بعنوان « اللغة والدين والتقاليد فى حياة الاستقلال » — كتب يقول : « إن اللغة العربية لا يعرفها أهلها ، لأن المؤلفات الدينية خالية من الجاذبية ، والمؤلفات القديمة مهجورة لا أنصار لها ولا أشياع . . . اللغة العربية ، لغة التأليف ، ليس لها فى مصر قراء . ثم أخذ ينحو باللائمة على رجال الجامعة والأزهر ووزارة المعارف وأساتذة اللغة العربية فيما نراه اليوم من فقر اللغة العربية فى المصطلحات العلمية المدنية (ص١٥) وفى أنها أصبحت لغة هيوبا تتعثر فى كل حرف وتسقط فى كل فقرة ويختلف من حولها العلماء فى الصباح والمساء (ص ٢٦) ، وفى أنها ليست « لغة حديثة » لا تستعمل — كما ينبغى لها أن تكون — كأداة للتفاهم بين جميع الطبقات ، وأن اللغة تذهب ضحية الحذلقة التى يفرضها عليها المتحذلقون من أساتذة الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب (ص ٢٨) . . . إلخ[٣] .

(١) ويلكوكس « سوريا ومصر وشمال أفريقيا والطة يتحدثون باللغة البونية وليس بالعربية » رسالة منشورة له عام ١٩٢٦ .

(٢) د . نفوسه زكريا : عبد الله النديم بين العامية والفصحى . ص ٢٠٩ — ٢١٨ .

(٣) زكى مبارك : « اللغة والدين والتقاليد فى حياة الاستقلال » . عيسى الحلبى ١٩٣٦ .

(٤) وكتب الأستاذ محمود تيمور فى مقدمة مسرحية الخبأ رقم ١٣ أن الفصحى بصفتها « لغة الكتابة لا لغة الحديث وترجمان الثقافة الخاصة لا ثقافة الشعب . هى بهذه الصفة لا تستطيع أن تبلغ رسالة المسرحية إلى أشتات الطبقات التى تشهد دور التمثيل . (ص ٧) . . فمتى شاهد المصرى مسرحية بالحوار العامى فإنه يستمع إلى اللغة التى استقرت فى أعماق نفسه . . . فأما الفصحى . . فهى على الرغم منا غريبة على الآذان . . (ص ٨) . . ولو قدمنا المسرحية للتمثيل مكتوبة بالفصحى لآذينا الأسماع بما تنبو عنه . (ص٩)[١] .

(٥) وكتب الأستاذ أحمد حسن الزيات فى مجلة المجمع يقول « . . . لو أننى حضرت اليوم معرضاً من معارض التجارة أو الصناعة أو الزراعة فيه ما أبدعت العلوم ونوعت الحضارة من مختلف الآلات والأدوات والسلع والزهور ثم طلب إلى أن أسمى كل معروض فيه لما صنعت أكثر مما صنع ذلك البدوى الذى حضر وليمة عرس فى بغداد فوصف لقومه ألوانها وصحافها بصفاتها لا بأسمائها وبأثرها فى حلقة لا بعينها فى يده . . . »[٢] .

(٦) ونقل الأستاذ فؤاد دواره عن الدكتور حسين فوزى قوله :

« . . . اللغة العربية شحيحة جداً من ناحية ألفاظ المعانى المجردة فى حين أنها فى غاية الغنى فى كل ما يتعلق بالماديات وأوصافها . ولكى نثرى نفسك بألفاظ الفكر تحتاج إلى أن تخوض بحر الفلسفة الإسلامية . وتربيتنا الأدبية — مع الأسف — تجعلنا ندخل إلى اللغة العربية من باب الأدب وحده ، وفى الأغلب نبقى فيه ، وهذا — فى رأيى — مصدر كبير من مصادر قصورنا فى التعبير باللغة العربية . . وإذا عن لك فى الوقت الحاضر أن تعالج موضوعات مصرية كالقصة والتمثيلية فكيف تتصور أن تجعل ابن البلد والفتوة وفاطمة وخدوجة يتحدثون بنفس اللغة التى يستخدمها رجال القضاء

(١) رجع الأستاذ محمود تيمور عن هذا الموقف مؤخراً وقرر الكتابة بالفصحى وحدها . انظر مثلا مقاله فى مجلة مجمع اللغة العربية ج ١١ بعنوان « سلطان اللغة العربية » وعلى الأخص قوله فى ص ٦٥ من هذا المقال « رضيناها (أى الفصحى) لغة لحياتنا العلمية والأدبية والاجتماعية على اختلاف المناحى والفروع » .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ج٩ ص٣٢ من مقال بعنوان « المجتمع واللغة العامية » عام١٩٥٧

وخريجو الجامعات وأضرابهم . وإذا كنت صادقاً فى التعبير فأنت مضطر إلى أن تضع على ألسنة هؤلاء الناس اللغة المناسبة لهم . . . (وليس معنى ذلك أن العامية تكون وحدها هى القادرة على التعبير عما نريد) فأنت تجد كلمات عربية تعبر عن كل ما تريد . ولكنك حينما تستخدمها تكون كمن يترجم المعنى إلى لغة أخرى . . . »[1] .

إذن فالفرق بين الإمكانيات التعبيرية لكل من الفصحى والعامية حقيقة قائمة . وشعور طوائف المثقفين على اختلاف نزعاتهم بأن الفصحى كما ورثناها عن القدماء غير صالحة لكل زمان ومكان كما يحلو للبعض أن يصوروها — هذا الشعور أيضاً حقيقة واقعة . وهاتان الحقيقتان تصفان ما هو كائن فعلا بقطع النظر عن الرغبة أو عدم الرغبة — لدى البعض — فى تغييره .

على أننا لا نملك إلا أن نلاحظ — دون أن نشترك فى المعركة أو نبدو كمن يدافع عن الفصحى — فهذا آخر ما نود أن نفعله فى بحث من هذا النوع يقوم على الوصف — لا نملك إلا أن نلاحظ أن التهمة الأولى وهى القصور فى التعبير فى ميدان العلم والتى أطلقها ويلكوكس وزكى مبارك — هذه التهمة لا تتفق فى الوقت الحاضر مع وجود هذا الطوفان من الكتب العلمية المترجمة والمؤلفة التى تغرق المكتبة العربية . ليس هذا فقط ، فهناك مجلات ذات طبيعة علمية مثل « الدكتور » و « طبيبك الخاص » نجحت فى الدخول إلى كل بيت وخاصة أوساط الثقافة والتعليم . وهذه المجلات تتخذ من الفصحى أداة للتعبير عن موضوعاتها العلمية المبسطة دون أن تقف اللغة حائلا بين الكاتب وبين القدرة على الشرح أو بين القارئ وبين القدرة على الفهم على الرغم من اتساع الفجوة الثقافية بين الكاتب وبين القارئ فى كثير من الأحيان .

يبقى بعد ذلك جانب آخر للمشكلة وهو ما يمكن أن نصفه بأنه يتعلق بما ينبغى أن يكون . وهذا الجانب هو الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه الخلاف بين الآراء :

فى أقصى اليسار يوجد الرأى القائل بوجوب الاقتصار على أمور الدين موضوعاً للفصحى واتخاذ العامية لغة لكل ما عدا ذلك من شئون الحضارة والعلم الحديث[2] .

(١) فؤاد دواره . « عشرة أدباء يتحدثون » كتاب الهلال رقم ١٧٢ يوليو ١٩٦٥ ص٦٧ — ٧٩ .

(٢) يمثل هذا الرأى ويلكوكس وبعض من تبعه فى الرأى .

وفى أقصى اليمين يوجد الرأى القائل بوجوب إلزام الناس جميعاً بالكلام بالفصحى والإنتاج بها حتى تستقيم الألسنة وتجرى الأقلام وترجع للعرب سليقتهم النقية التى خسروها[1] . وبين هؤلاء وهؤلاء درجات لا تحصى من اللين والتشدد .

على أننا لن نتناول هذه المسألة الشائكة فى هذا الموضع ، بل سنؤجلها إلى حين اكتمال الصورة التى نريد أن نرسمها للواقع اللغوى كما نراه . إذ سنكون عند ذلك قادرين على ربط ما نراه كائناً بما نعتقد أنه سيكون . ومع ذلك فسنكتفى بإبراز ملاحظة واحدة على تلك المواقف التى تقفها الفرق المتنازعة من مسألة التعبير بالفصحى والعامية بما فى ذلك الأدب المعبر عن البيئة الشعبية وما يتصل بها من مشاكل اجتماعية :

فنحن نلاحظ أن من يقوم عملهم على الإنتاج باللغة بصوره المختلفة من علوم وآداب وفنون يتخذون عادة موقفاً متعاطفاً من مشكلة التعبير بالعامية فى الميادين التى تتصل بعادات الشعب وتقاليده وفى المسرحيات والقصص التى يجرى فيها الحوار بين أفراد من البيئة الشعبية . أما النظريون من علماء اللغة والمشتغلون بمسائلها فإنهم بصفة عامة أميل إلى التشدد ، بل إلى عدم الاعتراف بوجود المشكلة فى كثير من الأحيان[2] .

ونحن إذا اتفقنا على تلك الملاحظة — وأحسبنا قادرين على ذلك — فقد نوسع دائرة الاتفاق بين الأطراف المتنازعة متقدمين فى الطريق الصحيح . فإذا كان صحيحاً أن قدراً كبيراً من الخلاف يرجع إلى تركيز البعض على النظرية وتركيز البعض الآخر على التطبيق فقد يؤدى تبادل المواقف المؤقت مثلا إلى تقريب وجهات النظر بين الجميع .

ثم نتنقل إلى وجهة نظر ثالثة فى وصف ما هو كائن فعلا فى واقعنا اللغوى . ذلك الرأى الذى يقول بأنه لا توجد عامية وفصحى فقط بل توجد إلى جانبهما — أو بعبارة أدق بينهما — لغة وسطى . هذه اللغة هى ما أطلق عليه فرح أنطون فى روايته « مصر الجديدة » اصطلاح « الفصحى المخففة » أو « العامية المشرقة » أو « اللغة المتوسطة » .

(١) جرى العرف على أن يمثل الأزهر ورجال الدين الإسلامى عموما هذا الرأى . وقد قام البعض فعلا بمحاولات ألزموا فيها تلاميذهم وأصدقاءهم بالتحدث بالفصحى .

(٢) وفى تلك الحالة فإنهم يصورون العجز عن التعبير عن شىء من صور الحياة الحديثة عجزا فى الشخص ذاته وليس عجزا فى اللغة .

وهى تشبه إلى حد ما أطلق عليه توفيق الحكيم اسم « اللغة الثالثة » . وما وصمه الأستاذ عباس خضر فى مقال له بجريدة الأخبار بوصمة « اللغة الخنثى » .

وقد ظهرت اللغة الوسطى أول ما ظهرت بطريقة تلقائية . وهذا واضح فى محاولات هؤلاء الذين دعوا إلى العامية وحاولوا أن يثبتوها فى الاستعمال بكتابة أدب راق بها . فقد ترجم ويلكوكس فى نهاية القرن التاسع عشر أجزاء من الكتاب المقدس ، ومن بعض روايات شكسبير . ولما كان الموضوع نفسه فوق المستوى الفكرى للعامة فى عصره ، كان التعبير عنه بالتالى خارج الوعاء اللغوى الذى يستخدمه العامة للتعبير عن أنفسهم . ولذلك نرى ويلكوكس — دون أن يعمد إلى ذلك عمداً — يستخدم لغة تتناسب فى رقيها مع رقى الموضوع الذى تنقله على الرغم من جريانها على قواعد اللغة العامية . ولذلك فنحن لا نتفق مع الدكتورة نفوسة زكريا فى حكمها على ترجمات ويلكوكس بالفشل لأنها لم تجر على السنن المعروف فى كلام العامة الدارج . وتصف الدكتورة نفوسة هذه الترجمات فتقول : « فى هذه الترجمات وجدنا العامية لم تسعفه فى نقل أفكار شكسبير مما اضطره إلى استعارة كلمات وجمل من العربية الفصحى » وتقول عنها أيضا « وأهم ما نلاحظه فى أسلوب هذه الترجمة هو اقترابه من الفصحى على عكس ما كان يهدف إليه ويلكوكس (كذا) ، وهو أن يكون ممثلا للعامية الدارجة بين عامة المصريين . ويزداد اقتراب هذا الأسلوب من الفصحى فى المواقف التى تتطلب النصح وتعرض نظرات عامة فى الحياة وفى الناس كما يظهر فى تلك القطعة الصغيرة التى اكتفى ويلكوكس بترجمتها من رواية هملت . . [1] وهى :

نصيحة الوزير لابنه حينما أرسله إلى فرنسا للتنزه (المنظر الثالث من الفصل الأول)

الوزير لابنه : شوف يا ابنى . ربنا يجعل البركة فيك . أوعى تنسى النصيحة اللى حقولك عليها ولازم تخليها قدام عينك . لا تتكلم بكل حاجة تيجى فى فكرك . وافتكر كثير قبل ما تشرع فى أى عمل تصير محبوب عند الناس كلهم . . . وأكبر نصيحة أقولها لك أنك تكون صادق مع نفسك فإن اللى يصدق مع نفسه ما يكونش غير صادق

(١) تم تمثيل مسرحية « حلم ليلة صيف » لشكسبير — بعد إعادة ترجمتها باللغة العامية — على مسرح معهد الموسيقى الصيفى الجديد . وتولى الإخراج الأستاذ فؤاد الجزايرلى .

مع غيره . روح يا ابنى انت وديعتى عند الله » [1]

فويلكوكس لم يكن يكتب — وما كان ليتسنى له أو لغيره أن يكتب — فى مثل تلك الموضوعات بالعامية الهابطة . فهذا مستحيل لغوياً . فالموضوع ذاته — كما سنذكر ذلك بالتفصيل فى موضعه المناسب — هو الذى يتحكم فى المستوى اللغوى داخل حدود معينه [2] .

أضف إلى ذلك أن ويلكوكس لم يكن « يستعير كلمات وجملا من العربية الفصحى » كما ذكرت الدكتورة نفوسة . فليس فى الأمر استعارة أو ترقيع . ولكنها مستوى من اللغة قائم بذاته وله خصائصه التى تميزه عن غيره كما سيأتى فى موضعه . وما عدته الباحثة دليلا آخر على اضطرابه وهو « ازدياد اقتراب هذا الأسلوب من الفصحى فى المواقف التى تتطلب النصح وتعرض نظرات عامة فى الحياة وفى الناس » . ليس إلا هذه الصفات الأساسية لقانون المستويات فى نظامنا اللغوى .

على أن هذا الاستخدام التلقائى للعامية الوسطى لدى ويلكوكس لم يلبث أن تبعه استخدام واع مقنن على يد واحد من رواد المسرحية المصرية هو فرح أنطون [3] فى أوائل القرن العشرين . فرغبته فى الصدق الأدائى مع إحساسه فى الوقت ذاته بالتدرج اللغوى لطبقات المجتمع جعل من الضرورى عنده أن يستخدم فى مسرحيته « مصر الجديدة » ثلاثة مستويات من اللغة بدلا من المستوى الفصيح الواحد أو حتى المستويين الذين كان يتم الخيار بينهما عادة (أعنى الفصحى أو العامية) . هذه المستويات الثلاثة هى ما دعاه بالفصحى : وخصصه لأشخاص الطبقة العليا ، وما دعاه بالعامية : وخصصه لأشخاص الطبقة الدنيا ، ثم ما دعاه باللغة المتوسطة وخصصه للسيدات . وقد وصف هذه اللغة الثالثة بأنها لا هى بالفصحى ولا هى بالعامية واقترح أن تسمى « بالفصحى المخففة »

(١) د. نفوسة زكريا . المرجع السابق ٥٤ — ٥٩ . وانظر أيضاً مجلة الأزهر العدد الخامس السنة السادسة ١٨٩٣ طلباً للنصوص نفسها ، وإن كانت د. نفوسة قد نشرت منها أجزاء لا بأس بها ، وقد استفدنا بها كثيراً فى هذا البحث .

(٢) انظر ص ١٧٥ و ص ١٤٨ على الخصوص من هذا الكتاب .

(٣) لا غرابة فى أن يجىء هذا التطور على يدى كاتب مسرحى . فالكتاب المسرحيون بما لهم من حساسية فائقة للأوضاع الاجتماعية والمشاعر الفردية وبما يتمتعون به من حس لغوى وتذوق عال للتعبيرات الشعبية — هم فى الواقع الرواد الطبيعيون فى مجال الاستعمال اللغوى .

و « العامية المشرقة »[١] . وهو يشرح هذه النقطة بقوله : ثم تفرعت من هذا الوجه (وهو أن يتكلم أبناء الطبقة العليا بالفصحى والدنيا بالعامية) صعوبة أخرى : سيدات فى خدورهن يتحادثن فيما صار إليه أمر الرجال ويحلفن ويضطربن ويتآمرن . أية لغة يتكلمن . قد جعلت لهن لغة ثالثة لا هى بالعامية ولا هى بالفصحى . ويمكن تسميتها الفصحى المخففة والعامية المشرقة . وبناء على ما تقدم يكون فى الرواية ثلاث لغات : العامية والمتوسطة والفصحى .

ويبدو أن ملاحظة فرح أنطون الأصيلة عن وجود مستوى ثالث من العربية ، وتحديد مكان هذا المستوى فى وضع متوسط من الناحية الثقافية بين العامية الهابطة والفصحى ، ثم ربط هذا المستوى الثالث ربطاً صحيحاً بطائفة معينة من أفراد المجتمع — يبدو أن هذه الملاحظة لم تجد ما تستحقه من الاهتمام من أحد وخاصة من المهتمين بالتركيب اللغوى للمجتمع المصرى . ولعل السبب فى حدوث ذلك هو أن التجربة المسرحية التى قامت على تلك المستويات الثلاثة لم تحقق نجاحاً يذكر .

وفى عام ١٩٥٦ نشر توفيق الحكيم مسرحيته الصفقة لتكون بمثابة حقل تجارب لحل كثير من المشكلات التى تعترض العمل المسرحى ومنها مشكلة اللغة . فهى رأيه أن استخدام الفصحى وحدها أو العامية وحدها غير مقبول . ولذلك رأى من الضرورى أن يجرب « تجربة ثالثة لإيجاد لغة صحيحة لا تجافى قواعد الفصحى وهى فى نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص . ولا ينافى طبائعهم ولا جو حياتهم. لغة سليمة يفهمها كل جيل ، وكل قطر ، وكل إقليم ، ويمكن أن تجرى به الألسن فى محيطها ، تلك هى لغة هذه المسرحية . قد تبدو لأول وهلة لقارئها أنها مكتوبة بالعامية ، ولكنه إذا أعاد قراءتها . طبقاً لقواعد الفصحى فإنه يجدها منطقية على قدر الإمكان . بل إن القارىء يستطيع أن يقرأها قراءتين : قراءة بحسب نطق الريفى فتقلب « القاف » إلى « جيم » أو إلى « همزة » تبعاً للهجة إقليمه فيجد الكلام طبيعياً مما يمكن أن يصدر عن ريفى « ثم قراءة أخرى بحسب النطق العربى الصحيح . فيجد العبارات مستقيمة مع الأوضاع اللغوية السليمة . . .

(١) فرح أنطون : مسرحية مصر الجديدة . المقدمة . مكتبة التأليف . القاهرة ١٩١٣ .

إذا نجحت فى هذه التجربة فقد يؤدى ذلك إلى نتيجتين : أولاهما السير نحو لغة مسرحية موحدة فى أدبنا تقترب بنا من اللغة المسرحية الموحدة فى الآداب الأوربية وثانيتهما — وهى الأهم — التقريب بين طبقات الشعب الواحد ، وبين شعوب اللغة العربية . بتوحيد أداة التفاهم على قدر الإمكان دون المساس بضرورات الفن»[١]

وقد سار الحوار فى تلك المسرحية على النمط التالى :

البك : المسألة سليمة بحمد الله . . ربنا قدر ولطف . . وأنتم أهل شهامة . . كلفتم خاطركم وطلعتم المحطة بحفاوة عديمة النظير.. ربنا يقدرنى أكافئكم وأرد لكم بعض الجميل . .

سعداوى: كلام طيب . .

عوضين : كلام حلو كمثل الشهد . . صلى على النبى يا سعادة البك .. الموضوع انحل[٢] . . .

سعداوى: انت مستقل المبلغ يا بك ! . . لكن اعذرنا .. حالتنا سيئة

البك : حالتكم سيئة . . شىء غريب . . « يلتفت إلى وكيله » رأيك يا عليش أفندى[٣] ؟

فباستثناء بعض العبارات مثل « بحفاوة عديمة النظير » التى تنسب إلى الفصحى كلية ، ومثل « نفسنا انكسرت » (ص ٨٧) التى تنتسب بتركيبها اللغوى إلى العامية كلية — فإن نص هذه المسرحية يمكن أن يمثل على المسرح بالنطق العامى كما هو ، وفى الوقت ذاته لو قرأه عراقى مثلا ممن لا يحسنون العامية المصرية فإنه لن يجد صعوبة فى متابعة أحداثها . بل والتفاعل مع أشخاص المسرحية ، وذلك بفضل محصوله الثقافى . « فشيح الفصحى » — لا الفصحى ذاتها — يتمثل فى النص . وهذا كاف لتحقيق الغرض الذى قصده الحكيم بقوله . . « ولكنه إذا أعاد

(١) توفيق الحكيم : الصفقة ، مطبعة الآداب ١٩٥٦ ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٠ .

قراءتها ، طبقاً لقواعد الفصحى فإنه يجدها منطقية (ولم يقل صحيحة) على قدر الإمكان » .

وبقطع النظر عما قاله الأستاذ الحكيم عن لغة مسرحيته فقارئها أحداثنين : مصرى . وفى هذه الحالة لو ترك وشأنه فلن يرى فيها سوى نص عادى . وأن يخطر بباله حتى مجرد علاقة هذا النص بالفصحى . أو عربى غير مصرى ، وفى هذه الحالة لن يعجز عن فهم المسرحية بصورة عامة بل وسيتجاوب مع معظم المواقف فيها . وليس السبب فى ذلك كونها مكتوبة بالفصحى . أو اعتقاده بأنها مكتوبة بالفصحى ، أو حتى أنه يستطيع قراءتها حسب قواعد الفصحى فليس شىء من ذلك صحيحاً ، بل السبب كونها مكتوبة فى مستوى لغوى مناظر لمستوى لغة الخطاب عنده . هذا المستوى نشأ فى معظم البلاد العربية — بدرجات وبسرعات متفاوتة — نتيجة لتأثير عاملين متناقضين : جهود المؤسسات التربوية والثقافية من مدارس وصحافة للتمكين للفصحى ونشرها بين من يتعاملون من معين هذه الثقافات من ناحية ، وعوامل النشأة ، والأوضاع اللغوية السائدة فى محيط الأسرة العربية والتى تعمل بطبيعتها وبطريقة تلقائية على التمكين «للعامية الهابطة» وتأصيلها من ناحية أخرى[1] .

على أننا نود أن نشير هنا إلى أن لغة مسرحية الصفقة ليست فى مستوى ثقافى واحد كما أرادها الأستاذ الحكيم . فالخصائص اللغوية والتعبيرية لعوضين مثلا تختلف قاعدياً ومن ناحية المفردات وحتى العبارات عن لغة البك . فعلى الرغم من أن « كمثل الشهد » من الفصحى السليمة (بالقياس على قوله تعالى : « ليس كمثله شىء ») فإننا لا نستطيع أن نتصور أى مصرى على حظ من التعليم يستخدم مثل هذا التركيب فى لغته الدارجة إلا فى مواقف التندر أو الفكاهة . فتركيب الكاف مع مثل قد تخصص فى التركيب اللغوى للمجتمع المصرى وأصبح من صفات « العامية الهابطة » كما دعاها توفيق الحكيم . وليس معنى ذلك أننا نأخذ على الحكيم هذا التنويع اللغوى فى الحوار . فالعكس هو الصحيح . فالحكيم بشعوره المرهف وحساسيته اللغوية الفائقة كفنان وأديب لا يستطيع — مهما كانت درجة تصميمه على « توحيد لغة الحوار » — لا يستطيع أن

(١) انظر ص ٢٠٣ — ٢٠٥ من هذا الكتاب .

يجعل البك يقول : « صلى على النبى . . كمثل الشهد . . إلخ » . كما لا يستطيع أن ينطق عوضين أو سعداوى بعبارات مثل « طلعتم المحطة بحفاوة عديمة النظير . . شىء عجيب . . إلخ » . ومن يدرى فربما كان الحكيم قد قصد إلى هذا التنويع قصداً ، خضوعاً للضرورات الفنية وفى هذه الحالة تكون فكرته عن « وحدة اللغة » أوسع حدوداً مما يظن القارئ لأول وهلة .

وعلى الرغم من أن توفيق الحكيم وصف محاولته تلك بأنها « محاولة لإيجاد لغة ... » وأن بعض النقاد قد وجه إليه تهمة محاولة اختراع لغة « اسبرانتو عربية » سيكون مآلها الفشل كما حدث للأسبرانتو العالمية . . .[1] إلخ . — على الرغم من كل ذلك فإن الحكيم فى الواقع لم يوجد شيئاً من العدم . فالقوالب اللغوية التى التزم بها الحكيم فى تجربته الرائدة كانت موجودة فعلا فى قطاع معين من المجتمع ، ودور الحكيم قد تمثل فى اختيار تلك القوالب وفى توسيع دائرتها خارج ذلك القطاع كما سيأتى فى موضع آخر . وقد أشار الحكيم إلى شىء من ذلك فى التعليق الذى نشره على لغة مسرحية « الورطة »[2] فقال : « كان أهل المصلحة منهم (أهل اللغات الحية) يمعنون فى ايهامنا بعمق الهوة بين الفصحى والعامية . وباستحالة تلاقيهما يوماً . . والواقع الذى ألاحظه اليوم ولاحظه كثيرون هو عكس هذا الزعم . . فالعامية هى المقضى عليها بالزوال . . . والفارق بينها وبين الفصحى يضيق يوماً بعد يوم . . . ويكفى أن نستمع إلى فلاحنا أو عاملنا فى مجلس الأمة أو مجالس الإدارات ليتضح لنا أن لغة الكلام العادى قد ارتفعت إلى المستوى الفصيح فهو مثلا يقول : « دا موضوع يهم جميع الفلاحين » . أو « الأرباح دى لم توزيعها بالنسبة لأغلب العمال . . . إلخ » . فإذا تجاوزنا عن الإبدال فى الذال ، والدال فى اسم الإشارة ذا و ذى وذه «الذى يصبح فى التخاطب «دا ، دى ، وده » فإن العبارة كلها تصبح صحيحة . . »[3] .

(١) د . محمد مندور . مسرح توفيق الحكيم . دار نهضة مصر . الطبعة الثانية بدون تاريخ . ص ١٣٣ .

(٢) صدرت بعد « الصفقة » بعشر سنين تقريباً وبغرض استمرار التجارب اللغوية التى بدأها الحكيم فى الصفقة .

(٣) الورطة : « لغة المسرحية » فى نهاية الكتاب .

وهذا هو المنهج الذى حاول اتباعه فى تجربته الأولى فى « الصفقة » ، وقال إنه استمر فى تطبيقه فى تجربته الثانية فى « الورطة » .

على أنه بالرغم من كل الحديث عن تقريب العامية من الفصحى ، والارتفاع بلغة العامة ، والوصول إلى مستوى موحد من لغة عربية أقرب ما تكون إلى السلامة ... إلخ على الرغم من كل هذه الأقوال التى ترددت فى مسرحيتى « الصفقة » و « الورطة » فإن لغة الثانية أقرب إلى العامية من لغة الأولى . ويتضح ذلك من المثال التالى الذى أخذناه من « الورطة » عفواً ودون عمد أو تدقيق :

« منير : جرى ايه يا بسبس ؟ . . . مالك ؟

بسبس : ولا حاجة . .

شوشو : قل لنا بالحق . . شاعر بإيه ؟

بسبس : بهمود فى جسمى . .

منـير : همود ؟

بسبس : ووجع شديد فى كتفى . . يظهر أنها دخلت كتفى وما[1] . .

بل إن المتأمل فى تعليق الحكيم نفسه على اللغة المستخدمة فى « الورطة » يشعر بأنه يهدف فيها إلى مستوى أقل من « الصحة والسلامة » القصحى فهو يقول : « فى هذه المسرحية حاولت شيئاً من هذا التقارب الذى سبق لى أن حاولته فى « الصفقة » بما أسميته « اللغة الثالثة » . . . فلغتها هى لغة التخاطب العادية فى حياتنا اليومية . . . ولكنها مع ذلك قريبة إلى العربية الصحيحة » . فاللغة : « قريبة إلى العربية الصحيحة » بينما كانت فى « الصفقة » مستقيمة مع الأوضاع اللغوية السليمة » . وكانت « لغة صحيحة لاتجافى قواعد القصحى . . » . . إلخ .

وقد حدثت هذه « النكسة » — إذا جاز لنا أن نستخدم هذه الكلمة التى تلزم من تعليق توفيق الحكيم نفسه — على الرغم من الفاصل الزمنى بين ظهور الاثنتين . ذلك الفاصل الذى استغرق الفترة ما بين عامى ١٩٥٦ — العام الذى صدرت فيه الصفقة —

(١) الورطة : ص ٨٢ .

و ١٩٦٧ — العام الذى صدرت فيه الورطة — وهى الفترة التى صدرت فيها القوانين الاشتراكية وشارك فيها أبناء الطبقات العاملة فى المجالس المختلفة مما نتج عنه ارتفاع اللغة التى يستخدمونها .

كانت مقتضيات المنطق الجامد ومقتضيات الفلسفة التى قامت عليها محاولة الحكيم أن تنعكس الآية فتكون لغة « الورطة » أقرب إلى الفصحى من لغة أختها التى سبقتها بعشر سنوات .

على أن لنا تفسيراً — وإن كنا لا نجزم بأنه ما قصده الحكيم فعلا — إلا أنه يتفق وطبيعة الأشياء ، وقد يشرح السبب فيما بدا فى لغة الحكيم — بل وفى فلسفته أيضاً — من تغيير :

كان توفيق الحكيم فى مسرحية « الصفقة » أولا وقبل كل شىء مصلحاً لغوياً ، ولم يكن مجرد كاتب مسرحى فهو يقول فى مقدمتها : « مسرحية الصفقة » هى عندى بمثابة حقل تجارب » . كان يريد أن يدفع بعجلة التطور اللغوى فى اتجاه معين هو اتجاه الفصحى بعد أن تضافرت عوامل كثيرة على دفعها فى الاتجاه المضاد وهو العامية : « إذا نجحت هذه التجربة فقد يؤدى ذلك إلى نتيجتين : أولاهما السير نحو لغة مسرحية موحدة فى أدبنا ، تقترب بنا من اللغة المسرحية الموحدة فى الآداب الأوربية ، ثانيتهما — وهى الأهم — التقريب بين طبقات الشعب الواحد ، وبين شعوب اللغة العربية ، بتوحيد أداة التفاهم على قدر الإمكان دون المساس بضرورات الفن »[1] . وهذه هى مهمة الكتاب المسرحيين فى نظر الحكيم . و « كتاب الحوار القصصى والتمثيل . . هم المنوط بهم مهمة إزالة الفوارق اللغوية . . »[2] .

وبناء على هذه الفكرة رأيناه فى « الصفقة » يضحى بأشياء كثيرة من أجل أن يرتفع بلغة العامة وأن « يصنع واقع الغد ولا يستنيم إلى واقع اليوم[3] . فسعداوى الفلاح الأمى يقول : « الميت ما يحمل حاجة . . الميت ما يحمل نفسه (ص ٢٨) (بدلا

(١) الصفقة : ص ١٥٨ .

(٢) الورطة : ص ١٩٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٩٧ .

من : ما يشلش) . . . من غير ما نخليه ياخد ويدى فى الكلام . . . سامعين . . . مستحيل . . . . مستحيل (٩٨ ص) (بدلا من . . . ما يمكنش) . نستطيع أن نقول أن ما قام به الحكيم فى الصفقة كان مغامرة لغوية ، كان رغبة فى إحداث تغيير ، بل لنقل كان نبوءة .

ثم تحققت هذه النبوءة . فقد أسرعت عجلة التطور الاجتماعى فى دورانها بصدور القوانين الاشتراكية وأخذت صورة المجتمع فى التغير تبعاً لذلك وعكست لغة الخطاب فى المجتمع هذه التغييرات باقترابها من الفصحى بسرعة تتناسب مع سرعة التغير الذى حدث فى المجتمع . وبدا واضحاً أن الأمور تسير فى الاتجاه الصحيح . إذن ففيم العجلة؟ ولم المبالغة ؟

لقد استطاع الحكيم أن يخفف من مستوى « التفصيح » فى الورطة بعد أن رأى أن التطور الاجتماعى قد أصبح فى صفه وصف الاتجاه نحو الفصحى ، وأن لغة الخطاب ستصل لا محالة إلى المستوى المطلوب . فالتغير الذى حدث فى لغة الحكيم ليس تغيراً فى الموقف بقدر ما هو تغيير فى (التكتيك) ، أو التخطيط .

وكما لاحظنا على لغة « الصفقة » — فإن لغة « الورطة » أيضاً ليست فى مستوى واحد : فالدكتور يحيى — الأستاذ الجامعى — يتكلم دائماً بلغة أعلى مستوى من لغة « بسبس » لص الخزائن . وهذا شىء طبيعى ، وإن كان لا يتفق مع المنهج الذى ألزم به الحكيم نفسه (أو على الأقل المنهج الذى نعتقد أن الحكيم قد ألزم به نفسه) .

على أن من المتناقضات التى تستوقف النظر فى محاولة الحكيم أنه فى الوقت الذى أراد فيه توحيد اللغة فى مصر وإنهاء الازدواجية القائمة بين الفصحى والعامية لدى أبنائها — نراه قد نجح لا فى إنهاء الازدواجية ، بل فى إضافة مستوى آخر هو اللغة الثالثة ، أو بعبارة أدق فى الاعتراف بوجود مستوى آخر ، ولفت الأنظار إليه . ذلك أن هذا المستوى كان موجوداً وقائماً فعلا حتى قبل أن يكتب عنه الحكيم .

• • •

أما على الصعيد العلمى ، — فعلى قدر علمى — لم يتناول أحد فى مصر هذه « اللغة الثالثة » بالدراسة والتحليل اللغوى . وهذا وضع يتفق مع عدم وجود الاهتمام الكافى بالدراسة العلمية للغة العامية بصفة عامة . ولكن الأمر مختلف قليلا فى الغرب . فهناك تنبه إلى وجود مثل هذا المستوى وإلى قيامه بدور اجتماعى منفرد ، وإلى وجوب توجه الدراسة لاكتشاف جوانبه المختلفة . وقد سبق للمستشرق كارل فولرز فى كتابه عن العامية المصرية والمنشور فى كمبردج عام ١٨٩٥ أن أشار إلى وجود مستويات ثلاثة فيها تقوم على أسس اجتماعية هى ما أسماه بلهجة الطبقة الدنيا ولهجة الطبقة الوسطى ولهجة الطبقة العليا . وإن لم يقم ببيان الفروق العلمية بين هذه اللهجات .

أما الدراسة التى وصلت إلى يدى والتى قامت بها الدكتورة كارولين كلين من جامعة شيكاغو — فيقوم على أساس يختلف عما نفهمه باللغة الثالثة . فقد أتمت هذه الباحثة فى عام ١٩٧٠ بحثاً يقع فى ١٩ صفحة من النوع المتوسط بعنوان « الأسلوب المختلط فى العربية المصرية »[1] بينت فيه صعوبة الوصول إلى نتائج مرضية من وجهه نظر البحث اللغوى نظراً إلى صعوبة وضع حدود واضحة تعين مادة البحث وتفصلها عن غيرها . وفى رأيها أن هذا « الأسلوب المختلط » ينتج عن إدخال المصريين صفات اللغة العربية الفصحى (من نحوية وصوتية) فى أحاديثهم التى تجرى فى بعض المناسبات مثل المقابلات والحوار الإذاعى والتليفزيونى . ولما كانت ترى أن النصوص المكتوبة لا تصلح أساساً صادقاً للدراسة ، نظراً إلى أن الكاتب توجد أمامه فرصة فى العادة للرجوع إلى ماكتب وتصحيحه وتنقيته من كل شوائب العامية — لما كان ذلك رأيها فقد قصرت دراستها على الأحاديث والمادة الشفوية التى سجلتها من الإذاعة والتليفزيون المصرى فى زيارة للقاهرة لهذا الغرض دامت حوالى ثلاثة أشهر .

ويبدو أن الباحثة ترى أن هذا المستوى — أو الأسلوب كما تسميه — هو عبارة

---

(١) Carolyn G. Killean, Mixed style in Egyptian Arabic, Univereity of Chicago.

وقد قرئ البحث فى المؤتمر الرابع لرابطة دراسات الشرق الأوسط الذى عقد بمدينة كولمبس بأوهايو فى نوفمبر عام ١٩٧٠ .

عن خلط متعمد ولأغراض غير تلقائية (مثل إظهار التفوق اللغوى . . . إلخ) . بين صفحات المستويين الفصيح والعامى . ولذلك فهى تدخل فى هذا المستوى المختلط المحاولات الفاشلة التى يقوم بها بعض المتكلمين للكلام بالفصحى الخالصة . فهى تقول فى بداية البحث « هذا الخليط (الذى يمثل مادة بحثها) يتراوح من وجود القليل من صفات الفصحى فى الأحاديث العادية التى تتناول أموراً عادية صعوداً إلى الحالات النادرة التى يحاول فيها المتكلم استخدام الفصحى كوسيلة للتعبير الشفوى التلقائى . وهذا النوع الأخير يلى مباشرة تلك الحالات التى يحاول فيها الشخص القراءة بصوت مرتفع من ورقة مكتوبة — وهى حالة يحاول فيها بكل حرص أن يتفادى صفات المستوى العامى » .

و بناء على تحديد مادة البحث بتلك الصورة ظهر أن الباحثة ترى أن هذا الخليط لا يمثل مستوى لغوياً مستقلا ، ولا يتمتع بوحدة داخلية خاصة به . وهو بهذا التحديد — أو عدم التحديد — يختلف كلية وبصفة أساسية عن « اللغة الثالثة » أو « الوسطى » فى اصطلاح فرح أنطون وتوفيق الحكيم ، كما أنه يختلف أيضاً عن الأساس الذى نقيم عليه دراستنا الحالية وخاصة إدخالها « الحالات التى يحاول فيها المتكلم استخدام الفصحى كوسيلة للتعبير الشفوى التلقائى » . فى نطاق اللغة الثالثة . فهذه الحالات حتى لو فشل المتكلم فى تحقيقها بطريقة مرضية لا تدخل فى اللغة الثالثة فى تعريفنا ، بل تبقى كما هى « محاولة فاشلة للحديث بالفصحى » . أما اللغة الثالثة فهى لغة تلقائية كما سنشرحه فى الأجزاء التالية . ولما كنا سنتناول بعض الأمور التى أثارتها الدكتورة كلين فى بحثها فى موضوع آخر فإننا سنكتفى بهذا القدر فى الوقت الحاضر .

وكما وجدت العامية من يرى فيها مستويين لا مستوى واحداً كما كان يظن من قبل ، كذلك وجدت الفصحى المعاصرة من نظر إليها نظرة مشابهة : فى الغرب وجد هؤلاء الذين يتصدرون لاختيار مادة لدراسة العربية فى الجامعات الأوربية والأمريكية — وجدوا أمامهم إنتاجاً من أنواع مختلفة مما جعلهم يحسون بأنه لا يمكن أن يندرج تحت مستوى لغوى واحد . وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك دراسات علمية تسند هذه المسلمات فإنهم أصدروا كتب القراءة تحت عناوين مثل : « عربية الصحافة » ، « عربية الدبلوماسية » ، « عربية الأدب » . . إلخ .

وتجرى الأبحاث فى الوقت الحاضر لدراسة المستوى اللغوى الذى يستخدم فى كل وجه من أوجه النشاط فى المجتمع العربى . مثل التجارة والصناعة والخدمة الاجتماعية ... إلخ . بحيث يستطيع متعلم العربية أن يركز على الميدان الذى يتصل بدراسته — وخاصة فى ميدان المفردات والمصطلحات — بعد أن يحصل القدر الأساسى المشترك بين كل تلك المستويات . وكل الدلائل تشير إلى أن التأليف فى الفصحى المعاصرة سيتركز فى الغرب وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية — على هذا الاتجاه فى السنوات المقبلة .

على أن تناول هذه المستويات فى الغرب لم يقتصر على إصدار مجموعات القراءة فقط . فقد ظهرت فى عام ١٩٦٠ دراسة فى حوالى خمسين صفحة قام بها اللغوى الأمريكى ريتشارد هاريل للنواحى الصوتية والصرفية لما أسماه عربية الإذاعة المصرية . وقد حدد موضوع دراسته بأنه يشمل العربية الفصحى المسموعة من راديو القاهرة والتى قام بتسجيلها — كما ذكر فى المقدمة — وهو فى الولايات المتحدة .

ويقوم منهج دراسته على فكرة بسيطة ومعقولة . وتتلخص فى مقارنة الصفات الصوتية والصرفية للغة هذه الإذاعة بما يقابلها من صفات العربية الفصحى كما وصفها لنا النحاة العرب القدامى . ومن عملية المقارنة هذه ينتج لديه نقاط اختلاف أو اتفاق (وإن كان يركز اهتمامه على نقاط الاختلاف بالطبع) . وهذه النقاط هى ما يمكن أن يسميه « خصائص فصحى الإذاعة المصرية » .

وقد ساعد المؤلف على القيام بتلك الدراسة خبرته الفائقة فى الدراسات الصوتية الخاصة باللهجة المصرية . فهو صاحب دراسة[1] فى صوتيات لهجة القاهرة تعد فى رأيى — على اختصارها — من أحسن ما كتب فى هذا الموضوع إلى الآن . على أن عيب الطريقة الحسابية التى اتبعها الأستاذ هاريل فى دراسته أنها قد لا تفرق بين الصفات التى تندرج تحت ما يمكن أن يسمى بالفرق « الأصيل » بين المستويين اللغويين موضوع

---

(١) قام المؤلف بهذه الدراسة كموضوع للدكتوراه أثناء تدريسه اللغة الإنجليزية بالقاهرة ، ثم نشر ملخصاً لها فى الكتاب التالى :

Richard S. Harrell, The Phonology of Colloquial Egyptian Arabic, American Council of Learned Societies, Series B no. 9 (Washington, D. C., 1957).

الدراسة وما يعد مجرد سبق لسان أو خطأ صرفاً فى المستويين معاً . فمثلا : تظهر طريقة المقارنة الحسابية أن صوت « الثاء » فى مستوى الفصحى كثيراً ما يقابله فى مستوى الإذاعة صوت السين ولما كان هذا الإبدال شائعاً ، وكثيراً ما يمر بدون ملاحظة — إلا من المختصين فى اللغة — فإننا نستطيع أن نعده من الفروق الأصلية بين المستويين مما يسوغ القول بأنه حقيقة من خصائص مستوى فصحى الإذاعة فى مصر وغيرها من المستويات المشابهة . أما إسقاط ياء جمع المذكر السالم فى الحالة الوحيدة التى سجلها الأستاذ الباحث فى عبارة « بالنسبة لحضرات (مستمع) هاتين الموجتين » فإن مرجعه فى رأيى أما سوء الاستقبال الإذاعى فى الولايات المتحدة وأما سبق لسان من المذيع . وهناك بالطبع احتمال ثالث وهو أن يكون المذيع قد نطق بصوت الياء قصيراً جداً مع الاحتفاظ به أطول من صوت الكسرة فى الوقت ذاته — كما يحدث فى بعض الأحيان بدرجة تعذر على الباحث معها أن يلاحظه . ولما كانت هذه الحالة تختلف — كما قال الباحث عن صفات كل من الفصحى الموصوفة فى التراث والعامية المصرية فإنه قد سجلها وتركها جانباً[1] دون أن يصدر عليها حكماً . ونحن نرى أنها مجرد خطأ من المذيع ولا تكشف شيئاً من خصائص فصحى الإذاعة المصرية .

على أن هناك اعتراضاً آخر على تحديد مادة الموضوع بتلك الصورة . فإن « عربية الإذاعة » ليست ذات مستوى واحد . ففيها الأحاديث الدينية والتعليقات السياسية ، والنشرات الإخبارية ، والأحاديث العلمية . . . . إلخ . فإجراء دراسة تتخذ أساساً لها هذه المستويات مجتمعة ، وبدون تفريق بينها . لابد وأن يؤدى إلى إعطاء نتائج مضللة . وعلى كل حال فنتائج الدراسة فى حد ذاتها قليلة جداً خاصة وأنها ركزت على — أو ربما لم يجد مؤلفها الكثير خارج — الناحية الصوتية وبعض الصيغ الصرفية القليلة . وترجع قيمة هذه الدراسة[2] فى نظرى — لا إلى ما ورد فيها بالذات — فقد كان الكثير منه معروفاً من قبل — بل إلى أنها فتحت الطريق أمام غيرها وإن كانت الثمار لم تنضج بعد .

(١) المرجع السابق : ص ٤٥ .

(٢) نشرت هذه الدراسة ضمن مجموعة بعنوان : "Contributions to Arabic Linguistics" بإشراف اللغوى الشهير «Charles A. Ferguson» وكان عنوان الدراسة ذاتها A linguistic analysis of =

أما فى مصر فقد اتخذ الموضوع وجهاً آخر : فقد قام إجماع على أن العصر الحديث حمل معه نهضة لغوية تمثلت فى التخلص من السجع والجناس وغيرها من الحلى اللفظية بحيث أصبحت الكتابة أداة للتعبير المباشر لا للتلاعب بالألفاظ وغيره من المعوقات الشكلية . كما جرى العرف على اعتبار هذا الشكل الجديد من التعبير مجرد رجوع إلى بساطة اللغة الأولى أو مجرد تنقية للغة من أوزار حملتها لها عصور التخلف الفكرى التى مرت بها البلاد العربية . ولم يتحدث الكثيرون عن نشوء لغة فصحى عصرية . ومع ذلك فلا يعدم المرء من وصف التغيير الذى حدث — أو الذى تمنى أن يحدث — بأنه لغة مستقلة عن اللغة التى طرقت بها مصر أبواب العصر الحديث :

فهذا فرح أنطون يلقبها « باللغة الجديدة » فى رده على القاضى ويلمور الذى دعا إلى إحلال العامية محل الفصحى فى الكتابة والتعلم حتى يستطيع العامة فهم ما يكتب الخاصة فينتشر العلم وتعم الحضارة البلاد . فبعد أن يرفض فرح أنطون هذا الرأى ، ويقدم الأدلة على وجود الأخطاء فيه يقول : « إن المستر ويلمور مصيب كل الإصابة إذا كان غرضه فى اقتراحه هذا إنشاء أسلوب جديد للكتابة يفهمه جميع أبناء اللغة ... ولكن هذه اللغة الجديدة المطلوبة التى تقتضيها حالة العصر ويوجب سير التمدن قيامها ليست اللغة العامية . لأن هذه لغة ساقطة ، ولكنها لغة بين اللغة الفصحى القديمة التى لا يفهمها العامة والخاصة أيضاً وبين العامية . وهذه اللغة الجديدة موجودة الآن وهى لغة المجلات والجرائد التى تحسن اختيار ألفاظها وأساليبها وتتوخى الخطأ فيها ... »[1] .

وكذلك يفعل زكى مبارك فى بعض ما كتب بعد حوالى ربع قرن من الزمن وإن كان قد رأى أن تلك اللغة لم توجد بعد : « إننا نريد » لغة من لغات المدنية » ، نريد لغة يفهمها الفلاح والملاح والنجار والبناء . . . يرى فيها العوام ما يشامون من البساطة والجمال ، ويرى فيها الخواص ما يريدون من السمو والتحليق ، نريد لغة مبلولة

Egyptian Radio Arabic= ونشر المجموعة Harvard Univ. Press عام ١٩٦٠ وصدرت طبعتها الثانية عام ١٩٦٤ .

(١) فرح أنطون . حياته — أدبه — مقتطفات من آثاره . منشورات دار صادر بيروت ص ٥٦ — ٦٣ .

على نحو ما يبذل الضوء والهواء . . . إن « البيان » الذى سمعتم عنه لا يعرفه إلا الأقلون من كتاب هذا الزمان ، وإلا فأين الكاتب الذى استطاع أن يصل بقلمه اللعوب إلى أفئدة الجماهير من أهل الريف ؟ نحن نريد لغة تشبه لغة القوانين والمعاهدات . لغة محددة الألفاظ واضحة المعانى . . . وهذه اللغة المنتظرة يجهد فى خلقها كتاب الصحف اليومية الذين عرفوا بالتجربة أن لهم « زبائن فى جميع الهيئات »[1] .

ولا يهمنا فى هذه المرحلة أن نفصل فى النزاع الخاص بتسمية هذا النوع الجديد من التعبير أو فى تقرير ما إذا كان لغة مستقلة أم لا . كل ما يهمنا هو أن نسجل أن مطالب الحضارة الحديثة من جهة، وصيحات المتطرفين — ولا نقول المغرضين — من أمثال ويلكوكس وويلمور من جهة أخرى قد نبهت الكثيرين من أمثال فرح أنطون الكاتب المسرحى وزكى مبارك الكاتب الصحفى إلى أن قوالب التعبير القديمة قد ضاقت فعلا عن الوفاء بمتطلبات العصر الحديث ، عصر الجريدة الصباحية التى لا تنتظر أحداً والتى ينتظرها كل إنسان : « لقد قضيت فى مهنة التعليم نحو عشرين سنة ، واختبرت ألوفاً من التلاميذ فى المدارس المصرية والأمريكية والفرنسية ، وكنت أحض الطلبة على القراءة والاطلاع . وكان الطلبة يسألون : ماذا نقرأ ؟ وأقسم صادقاً أنى لم أوفق مرة واحدة إلى الجواب ، لأنى لا أجد ما أوصى بقراءته غير عدد يسير جداً من المصنفات لا يغثّ ولا يشرق »[2] .

ثم ننتقل عبر الزمن حتى نصل إلى الوقت الحاضر لنرى صورة الفصحى بعد هذه المحاولات ، أو بعبارة أدق لنرى كيف يرى أصحاب الفصحى ودارسوها والمتعاملون بها صورة هذه اللغة فى الوقت الحاضر . ولكى نتفادى التطويل فسنختار رأيين فقط يتناول كل منهما اللغة من زاوية مختلفة ، لعرضهما فى هذه المرحلة : الرأى الأول يتناول الفصحى المعاصرة من حيث بنيتها وتراكيبها المميزة بينما يتناولها الرأى الثانى من حيث طريقة أدائها وكيفية وفائها بالحاجات التعبيرية لمجتمعنا المعاصر .

فمن ميدان الدراسات اللغوية المتخصصة ، نرى الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس

(١) زكى مبارك . المرجع السابق ص ٢٦ — ٣٠ .

(٢) زكى مبارك المرجع السابق : ص ٣٤ — ٣٥ .

يقول فى تعليق له على بحث ألقاه الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، فى إحدى جلسات الدورة الرابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية ، عن مستقبل الفصحى — نراه يقول إن لدينا الآن فصحى جديدة لها صفاتها الخاصة بها والتى هى أقرب إلى صفات العامية المحلية منها إلى صفات الفصحى القديمة « . . . ولا شك — كما قال الدكتور إبراهيم مذكور — إن لدينا لغة فصحى حديثة لا تكاد تمت إلى الفصحى القديمة إلا بصلة قليلة . فحين أقارن بوصفى لغوياً ما يكتب فى الصحف ونسميه باللغة الفصحى من حيث هندسة الجملة ومن حيث الأصوات بما نسمعه نجد هذه الظواهر المحلية لا تزال سائدة بيننا الآن »[1] ولا نظن أننا نحمل كلام الدكتور أنيس فوق ما يحتمل إذا قلنا إنه يعد هذه الفصحى التى يتحدث عنها مرحلة متوسطة بين « فصحى التراث » وبين العامية المصرية .

ومن ميدان البرامج الثقافية للإذاعة المصرية — وهى البرامج التى تلعب فيها اللغة بمستوياتها المختلفة وبكل ما لديها من إمكانيات حضارية دوراً رئيسياً فى الارتفاع بمستوى المخاطبين — من ميدان هذه البرامج نرى مديرها الأستاذ فاروق شوشه[2] يقرر أن لدينا الآن — إلى جانب العاميات (بصيغة الجمع) — لغات فصحى ، أو فصحيات أربع :

١ — لغة التراث — وهى لغة جامدة تنظر إلى الخلف .

٢ — لغة العلم — وهى لغة تختلف تماماً عن لغة التراث لأنها لا تعتمد على

(١) مجمع اللغة العربية . مجموعة البحوث والمحاضرات للدورة الرابعة والثلاثين عام ٦٧ — ١٩٦٨ ص ٢٧٦ .

(٢) الأستاذ فاروق شوشة هو صاحب أقدم برنامج بالفصحى عن الفصحى لا يزال حياً فى الإذاعة المصرية ، ونعنى به برنامج « لغتنا الجميلة » . هذا فضلا عن عمله كمدير للبرامج الثقافية بالإذاعة ومؤهلاته الشخصية كمتخصص فى اللغة العربية ودراساتها ، وكشاعر وكاتب للأغنية الجماهيرية فعلاقته بالفصحى المعاصرة هى من النوع الذى يؤهله لأن يكون حكماً فيما تصلح له وفى إمكانية تطويعها لمختلف الأغراض . وفى اعتقادى أن رأيه هو القسم الطبيعى لرأى الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس — العالم اللغوى وعضو مجمع اللغة العربية — الذى أوردناه من قبل .

المتوارث المألوف قدر اعتمادها على الاشتقاق والتعريب والنحت اللغوى فى محاولتها لاستيعاب منجزات الحضارة العلمية والبحوث التجريبية .

٣ — اللغة الأدبية — وأساسها الانفعال والعاطفة والشعور .

٤ — لغة الاتصال بالجماهير — وهذه اللغة تولدت من تفاعل اللغات الثلاث الأولى وهى لذلك تختلف عن كل منها على حدة . فهى ليست حبيسة التراث ، وليست لغة علم وتجربة ، كما أنها تختلف كثيراً عن لغة الأدب والفن . ومع ذلك فهى ليست مقطوعة الصلة بأى منها تماماً[١] .

وفى مكان آخر يتحدث الأستاذ فاروق شوشة عن لغة الاتصال بالجماهير هذه فيميز فيها بين لغة الصحافة ولغة الإذاعة . ثم يقرر أن الأخيرة ذات مستويات مختلفة وأنها تتعدد بتعدد الفنون الإذاعية ذاتها كالحديث والحوار والبرنامج الخاص والتمثيلية والأعمال المترجمة فضلا عن لغة الخبر والتعليق السياسى . . . إلخ[٢]

هذه لمحة من صورة الواقع اللغوى فى مصر منذ أواخر القرن الماضى إلى الوقت الحاضر كما رآه عدد من رجال الفكر والأدب واللغة[٣] . وفى غالب الأحيان لم يقصد

(١) فاروق شوشة . « لغة الاتصال بالجماهير : هى لغة الحاضر والمستقبل » مقال منشور بجريدة الأخبار ١٩/٧/١٩٧٠ — الملحق الأدبى .

(٢) فاروق شوشة : « ليس يكفى أن تكون لغتنا الجميلة .. بل لابد أن تكون أولا لغتنا العصرية » مقال منشور بجريدة الأخبار ٢/٨/١٩٧٠ الملحق الأدبى .

(٣) يتصل بهذه الصور — وإن كان بطريقة غير مباشرة — البحث الذى نشره الأستاذ بلانك عن « المتغيرات الأسلوبية فى عربية التخاطب » :

H. Blanc : Stylistic Variations in Spoken Arabic : A sample of Interdialectal Educated Conversation.

وقد صدر فى المجموعة المشار إليها فى هامش رقم (٢) ص ٨٠ .

وقد قام البحث على دراسة محادثة بين عدد من الشبان العرب المثقفين ممن نشأوا فى أقطار عربية مختلفة (العراق وفلسطين وسوريا) بهدف اكتشاف التغييرات التى يدخلها المتحدث العربى اليوم على لهجته إذا ما قابل عربياً من بيئة لغوية مختلفة عن بيئته هو . ويمكن ذلك إما باصطناع صفات من لهجة أعلى فى المكانة الاجتماعية من لهجته هو أو باصطناع صفات من صفات الفصحى . وبناء على تلك—

أصحاب هذه الآراء أن يقدموا لنا دراسة علمية تعضد آراءهم ، بل كانوا يصدرون فى

—الدراسة الطريفة قسم الباحث أنواع الحديث فى تلك الظروف المختلطة ومن حيث صفاته اللغوية إلى ما أسماه :

١ — العامى الخالص (المحلى)
٢ — العامى المعدل
٣ — شبيه الفصيح أو العامى الرفيع (المشترك)
٤ — الفصيح المعدل
٥ — الفصيح المشترك أو العام (محلى)

ولا شك أن الظـرف اللغوى الذى وصفه الكاتب واقعى وكثير الحدوث . والمتحدث العربى فيه يقوم بمحاولة متعمدة لاصطناع صفات لغوية يظن — بناء على تقديره الشخصى — أنها هى التى يفهمها المتحدثون معه . وقد ينجح فى تقديره ذلك وقد يفشل بناء على درجة توفيقه فى اختيار التراكيب والمفردات بالطريقة التى تدخل بها فى دائرة الفهم لدى سامعيه من البيئات المختلفة .

أما بحثنا الذى نحن بصدده هنا فإنه يقوم على دعوى أن لكل من المواقف الاجتماعية فى شئون الحياة اليومية التى لا حصر لها — مثل البيع والشراء والتحيات وإلقاء المحاضرات والاشتراك فى المحاورات السياسية على مستويات مختلفة وعيادة المرضى ... إلخ — لكل من هذه المواقف مقوماته الخاصة كما أن له أصولا مرعية تبين حدودها قوانين العرف والعادات . ومن هذه الأصول « نوع اللغة » التى تستخدم فى كل موقف . فكل من يشترك فى موقف اجتماعى من أبناء البيئة المصرية يجد نفسه وقد دخل فى قبضة المستلزمات التى تفرضها التقاليـد الاجتماعية على المشتركين فى مثل هذا الموقف — سواء أكانت لغوية أو غير لغوية — دون أن يحتاج الأمر إلى تفكير واع من جانبه . ولذلك نراه يستخدم نوع اللغة المناسبة للموقف بطريقة تلقائية تماماً كما يتصرف فى جوانب المواقف الأخرى طبقاً للعرف المتبع . فإذا خالف المتكلم واحداً من مستلزمات الموقف غير اللغوية كأن يرفض دفع ثمن السلعة التى أخذها أو خالف أحد المستلزمات اللغوية كأن يخاطب البائع بنوع من اللغة يختلف عن النوع المناسب للموقف عوقب على ذلك فى الحال بعقوبة تناسب الجريمة كالضرب مثلا فى الحالة الأولى أو السخرية أو حتى عدم الفهم فى الحالة الثانية . ولنتصور رد الفعل لمن يسأل بائعاً وسط زحام السوق : بكم تبيع الرطب اليوم ؟ ومثل ذلك النادرة التى تحكى أن نحوياً ذهب إلى السوق ليشترى بطيخاً فقال للبائع :

— بكم هاتان البطيختان اللتان ناضجتان اللتان على خط مستقيم ؟

فأجاب البائع :

معظم ما كتبوا عن معاناة للغة على الصعيد العملى ، وهى — فى رأيى — أهم وأصدق تصويرا لإمكانيات اللغة التعبيرية مما تستطيع الدراسات اللغوية النظرية أن تقرره .

فأين نحن حقيقة من كل هذه الصور ؟

- هل فى مصر لغة واحدة فقط هى **الفصحى** ، وما عداها ليس إلا مجموعة من الأخطاء واللحن والدخيل . كما يقول البعض ؟
- أم أن لدينا **فصحى** فى ناحية **وعامية** فى الناحية المقابلة ، ولا شىء وراء ذلك أو بين ذلك ، كما يعتقد الكثيرون ؟
- أم أن لدينا لغات ثلاث : **فصحى** فى أقصى اليمين ، **وعامية** فى أقصى اليسار **ومتوسطة** أو ثالثة بينهما كما قال فرخ أنطون وتوفيق الحكيم ؟

وفيما يتعلق بالفصحى ذاتها :

- هل هى واحدة فى كل عصر وزمان هى التى ورثناها عن العرب الأوائل وما لدينا منها فى العصر الحديث ليس إلا نتيجة لتغير خارجى لم يمس منها جوهر التركيب كما يؤخذ كقضية مسلمة لدى الكثيرين ؟
- أم أن لدينا فصحى حديثة لا تكاد تمت فى هندسة جملها وفى أصواتها إلى الفصحى القديمة كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس والعلماء الغربيون ؟

وأخيراً ... وليس آخراً — هل الواقع اللغوى عندنا يتفق حقيقة مع إحدى هذه الصور التى رسمها له رجال اللغة والفكر أم أنه يختلف عن كل ما ذكر إلى الآن ؟

إن الجواب على تلك الأسئلة لا يكون — فى رأيى — بمناقشة الآراء التى قيلت فى حد ذاتها ، بل بتقديم وصف للواقع اللغوى كما هو من وجهة نظر هذا البحث . وهذا هو ما ننوى أن نقدمه فى الفصل التالى .

= — بيوكسان وروسيتان فبأى آلاء ربكما تكذبان !

ولما كان الظرف الذى وصفه الأستاذ بلاتك لا يتصل ببيئة اجتماعية محددة فقد أقام تقسيمه على صفات لغوية فى المقام الأول . أما فى بحثنا هذا فالأمر يختلف : فالمستويات اللغوية الخمس التى قررناها للبيئة المصرية تقوم على مواقف اجتماعية حقيقية مما دعانا إلى أن نبدأ من هذه المواقف ثم نضف اللغة التى يتطلبها كل منها باعتبارها جزءاً مكملا للموقف غير مستقل بذاته . وتأكيداً لهذا المنهج أطلقنا على المستويات مصطلحات اجتماعية فى المقام الأول مثل عامية الأميين والمتنورين ..... إلخ.

الفصل الثالث

مستويات العربية فى مصر المعاصرة

تحديد هذه المستويات

تقوم هذه الدراسة على الاعتراف بوجود خمس مستويات من اللغة فى كل مجتمع لغوى متكامل[1] فى مصر المعاصرة . هذه المستويات هى ما سنصطلح على تسميته فيما بقى من هذا البحث باصطلاحات نحددها كالآتى :

١ – فصحى التراث : فصحى تقليدية غير متأثرة بشىء نسبياً .

٢ – فصحى العصر : فصحى متأثرة بالحضارة المعاصرة على الخصوص .

٣ – عامية المثقفين : عامية متأثرة بالفصحى وبالحضارة المعاصرة معاً .

٤ – عامية المتنورين : عامية متأثرة بالحضارة المعاصرة .

٥ – عامية الأميين : عامية غير متأثرة بشىء نسبيًا ، لا بالفصحى ولا بالحضارة المعاصرة .

ولعل من المفيد فى هذه المرحلة أن نقدم تعريفا لكل واحد من هذه المستويات بشىء يقربه من القارئ ويوضح ما نعنيه بصفة مبدئية . وسنركز فى هذا الوصف على الجانب المنطوق وخاصة كما يستخدم فى برامج الإذاعة المصرية المختلفة ، نظراً لوضوح الخصائص الصوتية أكثر من غيرها .

١ – **فصحى التراث** : تكاد تكون الآن وقفاً على رجال الدين من علماء الأزهر . واستخداماتها المنطوقة تكاد تنحصر أيضاً فى البرامج الدينية المعدة مسبقاً مثل برنامج « رأى الدين » الذى كان يشرف عليه أحد علماء الأزهر ويتولى فيه قراءة الأسئلة الدينية المرسلة من المستمعين ، ثم يرد عليها ضيف الحلقة بفصحى متأثرة بقواعد القراءات القرآنية تأثراً قوياً .

(١) نحيل القارئ على صفحة ٥٣ من هذا الكتاب للوقوف على المقصود بالمجتمع اللغوى المتكامل .

٢ – **وفصحى العصر** : ومجالها أوسع كثيراً من مجال المستوى السابق . فهى تبدو فى كل الموضوعات التى تتصل بحياتنا المعاصرة والتى تستخدم فيها العربية الفصحى . ومثلها فى الإذاعة نشرات الأخبار والتعليق السياسى . والأحاديث العلمية المعدة مسبقاً والتى يقرؤها أصحابها من ورقة مكتوبة . ونظراً لاتساع هذا المستوى وشموله ، فإن بداخله أنماطاً مختلفة مثل النمط العلمى والنمط السياسى والنمط الأدبى والنمط الاجتماعى على ما سيأتى بيانه[١] .

٣ – **عامية المثقفين** : وهى التى تستخدم عادة فى الأمور التجريدية وفى المناقشات التى تجرى بين المثقفين فى الموضوعات الحضارية مثل مسائل العلم والسياسة والفن والمشاكل الاجتماعية . ويمثلها فى الإذاعة برامج الرأى والمناقشات والحوار مثل بعض أحاديث صفية المهندس فى برنامج ركن المرأة عندما تتحدث عن العادات والتقاليد أو عن أخبار خارجية بغرض بيان ما فيها من مغزى يتصل بحياة ربة البيت المصرية مثل حديثها عن إضراب عمال الكهرباء فى إنجلترا وموقف ربات البيوت هناك من الذين قاموا به . كذلك يمثل هذا النوع البرنامج التليفزيونى « المسرح فى بادنا » الذى يتناقش فيه مؤلفو المسرح مع بعض النقاد حول مسرحية من المسرحيات ويتناولون جوانبها المختلفة من قصة وحوار وإخراج وإضاءة ومدى اهتمام الجمهور بها ... إلخ .

وينتشر هذا المستوى ويتغلغل فى كل ميادين الثقافة والمعرفة فى المجتمع المصرى فى الوقت الحاضر . بحيث إنه لا يدور حديث أو تجرى مناقشة بين المثقفين خارج إطاره . **ولذلك فقد أصبحت « عامية المثقفين » بمفرداتها وتعبيراتها ومرونتها مستودع الحضارة المصرية الحديثة ولسان العلم المعاصر :**

وقد امتدت هذه اللغة إلى حلقات برنامج كان الكثيرون يتوقعون أن يكون من أكثر البرامج إخلاصاً للفصحى وهو برنامج « مع النقاد » من إذاعات البرنامج الثانى . ومع أن ذلك أمر طبيعى (على ما سنبين فى موضعه) إلا أنه أثار غضب بعض النقاد

(١) انظر ص١٢٨ – ١٣٣ من هذا الكتاب .

بدرجة جعلته يلقب هذا المستوى اللغوى « باللغة الخنثى »[١] .

كذلك امتدت هذه اللغة إلى مدرجات الجامعة وكادت تصبح الآن الوسيلة الوحيدة للتعليم والمناقشة فيها .

٤ – **عامية المتنورين** : وهى التى يستخدمها غير الأميين عموماً فى أمور الحياة العملية اليومية من بيع وشراء ورواية أخبار . كما يجرى بها الحديث بين الأهل عن المشاهدات اليومية والانطباعات عن الأصدقاء والجيران وألوان الطعام والملابس ... إلخ .

ويمثل هذا المستوى فى الإذاعة بعض البرامج الخفيفة مثل برنامج « سينمائيات » الذى كان يشرف عليه الأستاذ كمال الملاخ وخاصة تلك الحلقات التى كان الضيف فيها من السيدات .

٥ – **عامية الأميين** : يتصل هذا المستوى – كما يبدو من اسم المصطلح الدال عليه بأمية أصحابه . ولهذا السبب لا يوجد بين برامج الإذاعة برنامج معين يتخذ منه لغة أساسية له على عكس المستويات الأربع الأخرى . ومع ذلك فقد يسمع المرء نماذج منه فى البرامج التى تقوم على الاتصال بالجمهور خارج الأستديوهات مثل برنامج « على الناصية » الشهير . ولولا أن المذيعين – بكل أسف – يتبعون أسلوب « إعناد الحوار » قبل تسجيله لكان من الممكن الحصول على مادة لغوية طيبة من هذا النوع .

على أن هذا المستوى يحظى بنصيب كبير فى البرامج التمثيلية والمسرحيات وخاصة الفكاهية منها . فهو لغة « أولاد البلد » من الجنسين على الرغم من بعض المبالغات التى يلجأ إليها بعض الكتاب والتى سماها توفيق الحكيم « المبالغة فى تصيد الملابط من الألفاظ بغرض إضحاك الناس أو بحجة تصوير واقعنا .. مع أن واقعنا ليس فى كل الأحيان بهذا السوء »[٢] .

(١) عباس خضر : « اللغة الخنثى فى البرنامج الثانى للإذاعة » جريدة الأخبار ٨/٤/١٩٧٠ الملحق الأدبى .

(٢) الورطة ص ١٩٤ .

ومن البرامج الإذاعية التى تستخدم هذا المستوى والتى احتلت قمة الشهرة لفترة طويلة بلا منازع « خالتى بنبه » وهى جزء من برنامج ركن المرأة . فهى وزوجها « عم سيد » يمثلان هذا المستوى بكل خصائصه كما سنذكرها مؤخراً[1] . وقد شاركهما فى هذه الشهرة — بل وسبقهما فيها — المعلم « عماشة » فى مغامراته الرمضانية وإن كانت الرغبة المبالغة فى الإضحاك قد أفسدت كثيراً من خصائصه اللغوية .

العوامل التى تحكم تفاعل هذه المستويات بعضها مع بعض :

على أن هذه المستويات الخمس لا تعيش منعزلة بعضها عن بعض داخل حدود مقفلة ، بل إنها فى اتصال وتفاعل دائمين فيما بينهما . ويحكم هذه الصلات ويبقيها حية وجود : **بعض العوامل المشتركه بينها والتى من أهمها الآتى :**

(ا) إن كل هذه المستويات — على الرغم من اختلافها — ترجع فى أساسها إلى أصل تاريخى لغوى واحد هو ما نسميه « بالعربية » ، مما يبقى باب التأثير والتأثر فيما بينها مفتوحاً على مصراعيه .

(ب) وأن كل هذه المستويات توجد وتعمل وتتفاعل معاً داخل مجتمع واحد متكامل هو المجتمع أو بعبارة أدق أحد قطاعات المجتمع المصرى ، مما يجعل من الممكن مادياً لأى شخص أن ينتقل من الواحد إلى الآخر متى توافرت الشروط النفسية والاجتماعية .

(جـ) وأن بعض الوظائف الاجتماعية التى يؤديها مستوى ما قد تختلف اختلافاً حاداً عن بعض الوظائف التى يؤديها غيره ، وقد تختلف اختلافاً طفيفاً عن بعضها الآخر . فمثلا « عامية المثقفين » تؤدى وظائف كثيرة مثل « المحاضرة الجامعية » و « المناقشة التليفزيونية » ، وقد يستخدمها بعض الأزواج الشبان فى الحديث مع زوجته فى بعض الأحيان . فإذا ما قارنا هذه الوظائف بما تؤديه « عامية المتنورين »

(١) انظر ص ١٨٩ — ١٩١ من هذا الكتاب .

لوجدنا خلافاً حاداً بينهما فى الوظيفة الأولى « المحاضرة الجامعية » بينما نجد الخلاف بينهما هيناً فى الوظيفة الأخيرة وهى « الحديث مع الزوجة » . فهذه المناسبة الأخيرة بطبيعتها يصلح لها أى من المستويين طبقاً لنوع الموضوع بينما لا يمكن « لعامية المتنورين » أن تؤدى الغرض المطلوب فى المحاضرة الجامعية مهما كانت الأحوال. فتقارب المستويات من ناحية الظرف الاجتماعى الذى يصلح له كل منها فى بعض المناسبات يبقى صلة — ولو كانت قليلة — بين كل مستوى والذى يجاوره .

(د) وأن كل فرد من أفراد المجتمع المصرى (إلا فى الحالات النادرة وبين الأميين فقط وخاصة النساء منهم) يستطيع استخدام أكثر من مستوى . والمثقف الذى أكمل تعليمه الجامعى من شأنه أن يكون قادراً على استخدام المستويات الثلاثة : الثانى والثالث والرابع كل فيما يناسبه . ولما كان الشخص ذاته وحدة متشابكة فإن المستويات التى يستخدمها — حتى ولو كانت فى مناسبات مختلفة — تبقى على اتصال فيما بينها .

(هـ) وأن الشخص الواحد قد يستخدم مستويين أو أكثر فى نفس المحادثة ، بل وينتقل بين المستويات صعوداً أو هبوطاً من جملة إلى أخرى . وإن كان ذلك الانتقال لا يجرى بدون قواعد أو قوانين تحكمه . فلا بد فيه من تحقق الشروط التى سنذكرها فى موضعها[1] .

هذه العوامل الخمس يمكن أن تسمى هنا « عوامل مزج » أو خلط للمستويات وتأثيرها معاكس لتأثير « عوامل الفصل » التى أشرنا إليها فى المقدمة[2] والتى أدت إلى تعدد المستويات اللغوية وانفصالها فى المجتمع المصرى (من عوامل الفصل المذكورة اختلاف درجة الثقافة ، واختلاف النشأة — فالذى يولد فى أسرة من الأميين يتعلم مستوى لغوياً يختلف عن المستوى اللغوى الذى يتعلمه من يولد فى أسرة من المثقفين — واختلاف الظرف الاجتماعى ... إلخ) .

وتصارع « عوامل الفصل » و « عوامل المزج » المذكورة وتجاذبها باللغة فى

(١) انظر ص ٢٠٧ — ٢١٢ من هذا الكتاب .
(٢) انظر ص ٩ — ١١ من هذا الكتاب .

اتجاهين متقابلين أدى إلى أن توجد هذه المستويات وتتصل معاً (أو تنفصل) بطريقة خاصة . فهى فى الواقع لا توجد منفصلة عن بعضها تمام الانفصال . والتحديد الذى ذكرناه لكل مستوى يبغى أن يؤخذ على أنه مجرد تخطيط أكاديمى يهدف إلى تسهيل دراسة كل مستوى على حدة . وإلا فإن هذه المستويات الخمس تتدرج فى واقع المجتمع المصرى من المستوى الأول إلى الخامس أو بالعكس بحيث ينساب كل مستوى فى المستوى المجاور له انسياباً يتعذر معه تحديد بداية كل مستوى أو نهايته . كل ما يمكن بيانه على وجه القطع هو وسط المستوى أو قلبه فى المنطقة التى تكون بعيدة عن حدوده المشتركة مع المستوى الذى فوقه والذى تحته أى حيث تتركز صفاته اللغوية والاجتماعية وتتجمع بطريقة لا تدع مجالا للشك فى حقيقته .

ولما كانت هذه الخاصية — وهى انسياب المستويات بعضها فى بعض — من النقط الرئيسية التى يقوم عليها البحث فإننا سنورد لها تمثيلا من عالم المحسوس ليوضحها توضيحاً لا يترك مجالا للشك فى تحديد ما نقصده هنا :

يتحدث علماء الطبيعة عن ألوان الطيف السبعة . ونحن لو استخدمنا منشوراً زجاجياً حللنا به أشعة الشمس أو نظرنا إلى قوس قزح عند ظهوره فى السماء فإننا سنرى هذه الألوان السبعة تظهر متلاصقة ومرتبة على النحو التالى . الأحمر فالبرتقالى فالأصفر فالأخضر فالأزرق ، فالنيلى فالبنفسجى . (وما قبل الأحمر — أو ما تحته كما يقولون — وما بعد البنفسجى — أو ما فوقه — مناطق من ضوء تعجز العين الإنسانية المجردة عن رؤيته بحسب خلقتها) .

على أننا لو دققنا النظر فى المنطقه الواقعة على جانبى كل لون (وهى ما يمكن أن يطلق عليه اسم « الهامش اللونى » حيث يتصل اللون باللون المجاور له لوجدنا أنه لا يوجد خط واضح يظهر عنده ابتداء لون وانتهاء آخر . بل سنرى أن لون الهامش عبارة عن خليط من اللونين المتجاورين ولا يمكن نسبته كلية إلى أحد اللونين دون الآخر وخاصة فى وسطه (أى وسط الهامش) . وهذا هو السبب فى أن تلك الألوان السبعة تظهر بتلك الطريقة الخاصة : كل لونين أساسيين بينهما لون فرعى ناتج عن اختلاطهما ذلك أن تجاور لونين أساسيين كالأحمر والأصفر مثلا

بالطريقة المذكورة (أى طريقة انسياب كل من اللونين فى الأخرى فى منطقة الهامش) ينتج عنه تولد اللون الفرعى الناشئ عن اختلاطهما فى تلك المنطقة وهو هنا اللون البرتقالى . ومثل ذلك يقال عن سبب وجود الأخضر (وهو لون فرعى) بين الأصفر والأزرق (وهما لونان أساسيان يتكون منهما اللون الأخضر) .

على أن اللون فى منطقة الهامش أيضاً لا يظهر بطريقة فجائية . فهو بدوره يبدأ خفيفاً جداً من الجانبين ثم يزداد وضوحاً كلما اتجهنا إلى منطقة الوسط فيه حيث يسمى عندئذ بالبرتقالى أو الأخضر وغيرهما من الألوان الفرعية .

فما تراه العين العجلى ونسميه ألوان الطيف السبعة ليس إلا مناطق الوسط أو القمم اللونية أو النقط التى يتركز فيها اللون . وكلما ابتعدنا عن هذه المناطق من أى من الجانبين كلما خف تركز اللون إلى أن ندخل فى منطقة الهامش الذى يحيط بتلك القمم اللونية ، وهكذا .

فألوان الطيف فى الواقع هى مناطق وسط واضحة اللون هى ما نسميه الأخضر والأصفر والأزرق ... إلخ وما بينهما مناطق هوامش لونية يعسر تحديد طبيعة ألوانها على وجه القطع ويعسر نسبتها إلى إحدى مناطق الوسط على أى من جانبيها .

ولهذا فالانتقال من لون إلى آخر يتم فى الواقع بطريقة تدريجية لا تلاحظها العين ولا تستطيع معها أن تعين النقطة التى يبدأ فيها لون وينتهى آخر . كل ما تستطيع القطع به هو النقطة التى يتركز فيها اللون أى القمة اللونية وهى فى المركز .

وهكذا الحال بالنسبة للمستويات اللغوية الخمسة التى حددناها . فهى ليست ذات حدود واضحة جامدة تفصل كل واحد عن الآخر . والانتقال من مستوى إلى ما يجاوره يتم تدريجياً بحيث يمكن أن نميز فى كل مستوى بين « منطقة وسط » أو قمة « وبين منطقة هامش » تلك المنطقة التى تختلط فيها صفات المنطقتين المتجاورتين اختلاطاً قد يتعذر معه فى بعض الأحيان القطع بنسبة إنتاج معين إلى مستوى ما أو إلى المستوى الذى يجاوره . وهذا ليس عيباً فى « المستويات » بل انعكاس للواقع اللغوى كما هو :!

فمثلا كتاب « الفصحى المعاصرة » لا يكتبون فى درجة واحدة من المعاصرة اللغوية

من حيث بنية العبارة ، وجدة الأساليب ، ومدى الانسلاخ عن القوالب التعبيرية القديمة كما أن محصولهم من المفردات يختلف بصورة ملحوظة . ووضعنا لكتاب مثل الرافعي وطه حسين والعقاد وهيكل والزيات والمازني في نمط واحد من هذا المستوى لا يبرره إلا تحديدنا لمعنى المستوى على هذا الأساس التدريجي . فما بينهم من الفروق ليس من القلة بحيث يمكن التغاضي عنه كلية ، وليس من الجذرية بحيث يبرر تخصيص كل منهم بمستوى قائم بنفسه .

ومثل هذا يمكن أن يقال بالنسبة للغة المنطوقة . فنحن ندرج معاً في مستوى واحد هو « فصحى التراث » أشخاصاً من أمثال الشيخ بدر عبد الباسط ، والشيخ محمد أبو شهبة ، والشيخ أحمد الشرباصي ، والشيخ سيد سابق — وجميعهم من نجوم البرامج الدينية في الإذاعة والتليفزيون بمصر — على الرغم من وجود خلافات بينهم في مدى القرب من « الفصحى المثالية » التي صورها لنا العلماء الأقدمون في كتب التراث .

قواعد التفريق بين المستويات :

أما القواعد التي يتم عليها التفريق بين المستويات الخمس فترجع إلى أساسين رئيسيين :

١ — الأساس اللغوي : وهو مجموع الصفات التي يختص بها كل مستوى من النواحي الصوتية والصرفية والنحوية وأنواع التعبيرات التي تشيع فيه .

٢ — الأساس الاجتماعي[1] : وهو ينقسم إلى شقين :

(أ) الظروف الاجتماعية التي تهيئ لطائفة معينة من أفراد المجتمع المصري أن يكتسبوا القدرة على استخدام بعض المستويات الخمس دون بعضها الآخر .

(ب) الظروف الاجتماعية التي تتحكم في لغة الفرد وتجعله يكاد يكون مضطراً إلى استخدام مستوى لغوي معين في ظرف أو موقف اجتماعي معين في الوقت الذي تسمح حصيلته اللغوية باستخدامه مستويات أخرى في مواقف مغايرة .

(١) انظر الملحق الخاص بدراسة « بعض المسائل المتعلقة بالمستويات بصفة عامة » ص ٢٠١ — ٢١٣ .

ذلك أنه إذا تحقق لنا أن كلا من هذه المستويات اللغوية الخمس يتصف بصفات لغوية تميزه عن غيره وأن كل مستوى من هذه المستويات يصلح في مناسبات اجتماعية معينة دون غيرها . أو يصلح في مناسبة قد لا يصلح لها مستوى آخر وإذا تحقق لنا أيضاً أن ظروف النشأة والتربية وغيرها تساعد الشخص على أن يكتسب مستوى أو عدداً من المستويات دون غيرها — إذا استطعنا البرهنة على ذلك فإن النتيجة الحتمية التي لن نجد مفراً من الاعتراف بها هي أن هذه المستويات قائمة وموجودة فعلا في مجتمعنا المصري وأن لكل منها كيانه الخاص المميز . بل قد نذهب إلى أبعد من ذلك فنبرهن على أن كل مستوى يحمل في داخله عوامل بقاء — على الأقل في الوقت الحاضر — وأنه — طالما بقيت هذه العوامل — محكوم لهذه المستويات بالبقاء في ظروفها الحالية .

الصفات اللغوية التي تميز كلا من المستويات الخمس :

قواعد وأصول عامة :

تلك الصفات تنبع من مصدرين رئيسين : الفصحى والعامية ، ومصدر فرعي : هو اللغات الأجنبية من قديمة كالفارسية والقبطية وحديثة كاليونانية والإيطالية والإنجليزية . . . إلخ . ويختلف نصيب كل مستوى من صفات هذه المصادر ونسبة ما يوجد فيه من صفات كل مصدر إلى صفات المصادر الآخر . أي أن صفات كل مستوى أو « شخصيته » هي عبارة عن مزيج أو « تركيبة » بنسب متفاوتة من خصائص العامية والفصحى والدخيل . وقبل أن نبين الصفات اللغوية لكل مستوى على حدة نرى من المفيد أن نرسم خريطة عامة لكيفية توزيع الملامح اللغوية على المستويات الخمس وكيفية تحديد نسب العامية والفصحى والمدخيل في كل مستوى . إذ أن باستخدام تلك الطريقة ستبدو المستويات كما هي في الواقع : أفراداً في كل متكامل أو « أعضاء نظام لغوي واحد » كما يقول الإصطلاح اللغوي . فالمستويات الخمس تستوعب النشاط اللغوي في المجتمع المصري كله عن طريق اقتسامه فيما بينها ، أو بعبارة أخرى عن طريق تخصص كل مستوى بجانب من جوانب هذا النشاط .

ولكي نستطيع رسم هذه الصورة العامة سنفرض أن السلم اللغوي الذي تحدثنا عنه

فى المقدمة[1] — وهو يمثل فى فهمنا النشاط اللغوى للمجتمع — سنفرض أنه بدرجاته كلها يتوزع فى خمس طبقات متراصة بعضها فوق بعض — لا شىء فوقها ولا تحتها — وأن الطبقة العليا تمثل المستوى الأول « فصحى التراث » بينما تمثل الطبقة التى تحتها « فصحى العصر » والتى تليها « عامية المثقفين » والتى بعدها « عامية المتنورين » والخامسة — وهى الأخيرة — « عامية الأميين » انظر الشكل التخطيطى رقم (١) .

رقم (١)

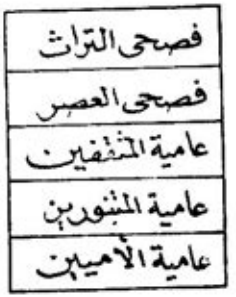

شكل فرضى يبين تركيب المستويات فى المجتمع

رقم (٢)

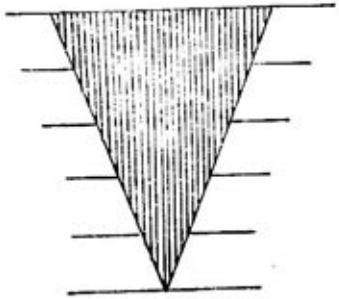

شكل فرضى يبين نسبة صفات الفصحى فى كل مستوى

فإذا ما أردنا أن نبين نسبة توزيع صفات الفصحى على المستويات المختلفة — مبتدئين من أعلى إلى أسفل — وجدنا أنها تتجه اتجاهاً تنازلياً مبتدئة « بفصحى التراث » حيث توجد أكبر كمية منها ثم تقل تدريجياً فى « فصحى العصر » ثم تقل أكثر فى « عامية المثقفين » ثم أكثر فى « عامية المتنورين » إلى أن تكاد تختفى فى « عامية الأميين » — نقول « تكاد تختفى » ولا نقول « تختفى تماماً » نظراً إلى

(١) انظر ص ١٠ — ١١ من هذا الكتاب .

أن فى عامية الأميين قدراً من صفات الفصحى سيكون موضع حديثنا فى مكان آخر[1] . ويبين الشكل رقم (٢) كيفية هذا التوزيع ونسبته فى كل مستوى بطريقة تخطيطية .

ولكى نبين طريقة تمثيل هذا الشكل التخطيطى لكيفية توزيع صفات الفصحى وتدرجها تنازلياً من مستوى إلى آخر ، نأخذ مثالا من الواقع اللغوى نوضح به ما نقول : ترك لنا النحاة العرب تصويراً « مثالياً » لصوت القاف فى الفصحى . فقد وصفوه لنا بأنه صوت مجهور لهوى شديد . فإذا ما استعرضنا أصوات القاف الموجودة فى المستويات الخمس المذكورة وجدنا أن صورتها تختلف من مستوى إلى آخر ولكن بطريقة منتظمة . فهى تتدرج فى بعدها عن هذا « المثال » كلما انتقلنا من مستوى إلى الذى يليه بطريقة تناظر التخطيط الذى يمثله شكل(٢) وتوضيح ذلك كالآتى :

فى المستوى الأول وهو فصحى التراث يتحقق أكبر قدر موجود الآن من الصفات التى ذكرها الأقدمون[2] للقاف (لا كل الصفات التى ذكروها) . فعلماء الأزهر ومن لهم مثل ثقافتهم والمجيدون من قراء القرآن اليوم ينطقون القاف مهموسة لهوية شديدة . أى يتحقق فيها صفتان من ثلاثة (باستثناء صفة الجهر) .

أما فى المستوى الثانى وهو فصحى العصر فإن صوت القاف يصيبه تغير آخر : فبدلا من أن ينطق من اللهاة فى أقصى الحنك نراه ينطق من نقاط متقدمة تمتد فيما بين اللهاة وبين الحنك اللين (وهو مخرج صوت الكاف) . فالمذيعون والأطباء والمحامون والمدرسون وغيرهم لا ينطقون صوت القاف بمثل « الخلفية » التى ينطقها بها

(١) انظر ص ١٩١ — ١٩٢ من هذا الكتاب . ويرجع وجود هذا القدر أساساً إلى التأثر بالقرآن وبالوعظ الدينى ، كما يرجع جانب منه إلى النهضة الاجتماعية الأخيرة وما صاحبها من نهضة لغوية موازية لها .

(٢) نحيل القارئ على المناقشة التى يعقدها الدكتور كمال بشر لتحسير الخلاف الموجود بين الواقع المعاصر لصوت القاف وبين صورته المثالية التى رسمها لنا القدماء ، وذلك فى الصفحات من ١٣٨ — ١٤٢ من كتابه علم اللغة العام ، القسم الثانى : « الأصوات » دار المعارف ١٩٧٠ .

قراء القرآن . بل إن بعض الناطقين – وخاصة النساء – يكادون يخلطون بينها وبين صوت الكاف[١] . ولا يمكن القول بأن هذا تغيير لا يستحق الذكر لأنه صفة تميز طبقة المتكلم ونوع ثقافته . فلو أن طبيباً مثلا نطق صوت القاف كما ينطقه عالم الأزهر لكان ذلك موضع دهشة من المستمعين . (لأنه استخدم صفة صوتية لا تتفق مع صفات المستوى الذى ينتظر منه أن يتحدث به) . أما إذا كان الناطق طبيبة – لا طبيباً – فلن يمر الحادث دون إطلاق بعض الفكاهات عن الطب « الشرعى » . . . الخ . وإثارة الدهشة أو التفكه من العلامات القاطعة على حدوث « الخطأ اللغوى » من المتكلم . وهو هنا الكلام بمستوى لا يتفق مع الظرف اللغوى حتى ولو كان أعلى فى « الصحة » اللغوية من المستوى المناسب للظرف القائم .

المستوى الثالث : فإذا ما هبطنا إلى المستوى الثالث – أى إلى « عامية المثقفين » – وجدنا أن تغيراً آخر قد حل بهذا الصوت . فنصف أصوات القاف تقريباً ينطق فى هذا المستوى همزة بينما ينطق الباقى بصوت القاف الخاصة بالمستوى الثانى . ويكفى أن نستمع إلى مناقشة فى التليفزيون أو بين اثنين من المثقفين فى موضوع عام لنقابل تعبيرات مثل « تقليد جديد » ، « النقد الأدبى » ، « قمة الأداء » ... إلخ . كذلك نقابل أيضاً « الفرد واحد » ، « من مآس مختلف » ، « أبل ما يستلم عمله » إلخ . والظاهرة الواضحة فى هذا المستوى من العامية والتى تميزه عن غيره من العاميات هى انتشار أصوات القاف فيه بصورة ملحوظة[٢] . ولعل هذا هو منشأ التعبير الشائع « بيتكلم بالآف » صفة لمن يتعالون بثقافتهم على من حولهم عندما

(١) ذكر أمامى الأستاذ أنيس منصور أن (الآفة) الكبرى التى لاحظها عندما اشترك فى لجان اختيار الأصوات الجديدة للإذاعة كانت عدم قدرة الغالبية العظمى من المتسابقين على النطق بصوت القاف بطريقة مقبولة . كما ذكر أنه هو وزملاءه أعضاء اللجنة كانوا يحكمون فى الحال برسوب الذين ينطقون القاف مختلطة بصوت الكاف .

(٢) خص الأستاذ متشل وصفه لصوت القاف فى العامية المصرية بقوله أنه لو كان علينا أن نختار صفة واحدة لنميز بها حديث المثقف عن غيره لما اخترنا فى الغالب سوى « القدرة على استخدام صوت القاف فى المواضع الصحيحة من الكلام » انظر

T.F. Mitchell, An Introduction to Egyptian Colloquial Arabic, Oxford University press, 1956. P.5.

يتحدثون فى الشئون العامة ويدعون العلم ببواطن الأمور [١] .

أما فى عامية المتنورين : فإن صوت القاف يكاد يختفى منها ، بينما يتغلب صوت الهمزة بصورة ملحوظة . والواقع أن ما يوجد فى هذا المستوى من أمثلة صوت القاف بصفة أصلية لا يخرج عن عدد محصور من الكلمات التى تتصل بأمور الدين والحضارة الحديثة مثل القرية ، القرآن ، القاهرة ، كتاب القراءة ، القنابل . وقد دخل فى هذه المستوى كلمات حضارية جديدة بصوت القاف مثل « على مستوى القاعدة » .

عامية الأميين : يكاد يقتصر ظهور القاف فى هذا المستوى على كلمة واحدة هى القرآن . بينما يستعاض عن كلمة « القرية » « بالفلاحين » وعن « القاهرة » « بمصر » وعن « القراءة » « بالإرايه » وعن « القنابل » « بالأنابل » . . . وهكذا .

هذه الصورة التى رسمناها هنا للتدهور التنازلى الذى لحق بصوت القاف الفصحى ينسجم مع مغزى الشكل التخطيطى رقم (١) كما يمثل الواقع اللغوى فى الوقت نفسه . ومن الممكن تطبيق الطريقة عينها على غير صوت القاف من أصوات الفصحى التى أصابها التغير فى اللهجات الحديثة على ما سنذكره فيما بعد . ولكى نبين مدى شمول صورة التطور الهرمى المقلوب والتى رسمناها لتوزيع صفات الفصحى على المستويات الخمس سنأخذ مثالا آخر من تلك الصفات وليكن هذه المرة من ميدان القواعد : فنحن نعلم أن من خصائص الفصحى استخدامها نوعين من الجمل : الجمل الفعلية والجمل الاسمية ، ولكن ليس بنفس النسبة . فالفصحى القديمة تميل نحو استخدام الجملة الفعلية أصلا وتكاد تقصر استخدامها للجملة الاسمية عادة على أغراض خاصة مثل الاهتمام أو التخصيص . . . إلخ . وقد وردت أمثال هذه الملاحظات فى أقوال الأقدمين وخاصة علماء المعانى منهم . فالأصل فى جملة فصحى التراث إذن أن تكون من البناء الفعلى أى (فعل + اسم = جاء محمد) .

(١) وانظر أيضاً ص ١٨٠ – ١٨١ من هذا الكتاب .

أما فى العامية المصرية فالأمر على العكس ، إذ الأصل فى جملتها أن تكون من البناء الاسمى أى (اسم + فعل = محمد جه) .

ولذلك إذا ما تتبعنا توزيع الجملة الفعلية فى المستويات الخمسة فسنجد أن صورة التوزيع العامة لا تخرج من حدود الرسم التخطيطى رقم (٢) .

فى فصحى التراث : يتحقق أكبر قدر ممكن من صفات الفصحى : تأخذ الجملة الفعلية مكان الصدارة فى الاستخدام اللغوى بينما تأتى الجملة الاسمية فى المقام الثانى .

أما فصحى العصر : فيقل نصيبها من هذا النوع من صفات الفصحى عن نصيب المستوى السابق فتنعكس الآية فيها . فالجملة الاسمية هى الأثيرة فى الاستخدام لدى كتاب العصر وخاصة القصاصين وكتاب المسرح والصحفيين . ويكفى أن يلتقط المرء أية جريدة ليرى مصداق هذا . حقيقة أن لغة الصحافة تفوق غيرها فى هذا السبيل (باستثناء كتاب « تيار الوعى » من القصاصين) . ولكن الصفة العامة اليوم هى إيثار الجملة الاسمية فى الكتابة ، وإن كانت الجملة الفعلية لا زالت تستخدم بكثرة . وقد يكون من الممكن تصنيف الكتاب المعاصرين تصنيفاً داخلياً بحسب قربهم أو بعدهم عن لغة التراث على أساس نسبة شيوع الجملة الفعلية الاسمية فى كتاباتهم . وهذه أمثلة من الخبر الصحفى وردت فى جريدة الأهرام (أخبار الصباح لكمال الملاخ) واختيرت بطريقة عفوية من عدد اليوم .

— المعرض السادس لفنان مصر الراحل رائد الفن السيريالى فى مصر عبد الهادى الجزار يفتحه وكيل وزارة الثقافة .

— أكبر معمرى الأردن الحاج على شيلش (١٢٠ سنة) مات أمس فى قرية أبو عبيدة ، شمال الأردن .

— عميد كلية اللغة العربية د . إبراهيم نجا أصدر د . عبد العزيز كامل قراراً بتجديد عمادته .

على أن الأخبار لم تكتب كلها فى صيغة الجملة الاسمية ، بل ورد بعضها فى صيغة الجملة الفعلية وإن كانت نسبة شيوع الأخيرة إلى الأولى فى هذا العدد بالذات لم تزد على ٤ إلى ٨ ومثالها :

— أصدرت الجامعة العربية كتاباً بالإنجليزية (٢٥٠ ص) عنوانه « معالم السياحة فى العالم العربى » .

وفى عامية المثقفين : تقل نصيبها عن نصيب مستوى فصحى العصر . فتكاد الجملة الفعلية تختفى من الاستعمال ولا يبقى من آثارها التى تستخدم بانتظام سوى بعض الحالات المعدودة ومن أهمها الجمل التى تبدأ بالأفعال المبنية للمجهول (فى الواقع من الصفات التى تميز هذا المستوى عن المستويين الرابع والخامس استخدام الجملة الفعلية ذات الفعل المبنى للمجهول بكثرة). ومثالها من الأحاديث المسجلة من الإذاعة .

— بيقال إن الشبان فى السن دى بيميلوا للانطواء والعزلة . .

— بيؤخز علينا أن ما عندناش روح المغامرة . .

— وتترك على نار هادئة حتى تنضج . .

وفى عامية المتنورين : يقل ظهور الجملة الفعلية فيها كثيراً عن ظهورها فى عامية المثقفين . ويكاد يقتصر ظهورها هنا على الحالات التى تكون جواباً عن سؤال يلعب فيه الفعل دوراً هاماً مثل — مين شافك هناك ؟ — شافنى ناس كتير !

وفى عامية الأميين : يكاد يقتصر ظهور الجملة الفعلية فى هذا المستوى على التعبيرات الشائعة والجمل المحفوظة مثل « يسمع منك ربنا » « جاله الداء الخافى » . . . إلخ ومع ذلك فقد تظهر أيضاً بعض حالات قليلة من جمل الإجابة على الأسئلة ذات الصيغة الفعلية ، كما مر فى المستوى السابق .

هذه هى الصورة العامة لطريقة توزيع صفات الفصحى على المستويات الخمس وعلاقة ذلك بالشكل التخطيطى رقم (٢) . فإذا قلنا إن « الجملة الفعلية » هى من

صفات فصحى التراث أى تكثر فيها فإن ذلك يمثل قاعدة المثلث المقلوب (أى الجزء العريض فيه) وكلما بعدت عن تلك القاعدة كلما قلت نسبتها فهى فى مستوى (٢) أقل منها فى مستوى (١) وفى مستوى (٣) أقل منها فى مستوى (٢) وفى مستوى (٤) أقل منها فى مستوى (٣) وهكذا إلى درجة تكاد تختفى معها فى مستوى (٥) وهذه الصورة المتدرجة فى القلة تشبه تدرج مساحة المثلث المقلوب فى الصغر فى نزولنا من قاعدته إلى قمته .

أما إذا أردنا أن نبين نسبة توزيع صفات العامية على المستويات الخمس فسيتعين علينا أن نسير فى اتجاه عكسى مبتدئين « بعامية الأميين » حيث يتمثل أعلى نسبة من صفات العامية ثم نأخذ فى الصعود حيث تقل العامية تدريجياً « بعامية المتنورين » « فعامية المثقفين » . « ففصحى العصر » إلى أن نصل إلى أعلى مستوى وهو « فصحى التراث » حيث تكاد تتلاشى صفات العامية . ومرة أخرى نقول « تكاد تتلاشى » ولا نقول « تتلاشى تماماً » نظراً إلى أن فى « فصحى التراث » كما تستخدم الآن فى مصر (بل وفى بقية البلاد العربية) آثاراً من صفات العامية سيأتى بيانها فى الموضع المناسب[1] ويبين الشكل رقم (٣) كيفية توزيع صفات العامية على المستويات الخمس ونسبتها فى كل مستوى بطريقة تخطيطية .

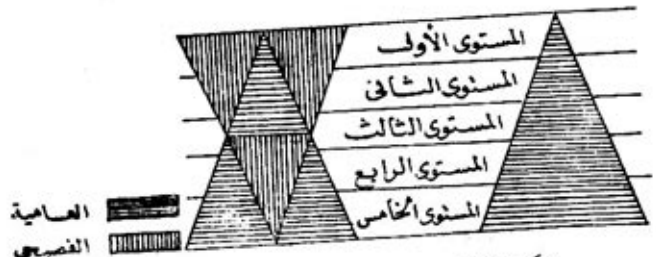

شكل (٣)

شكل فرضى يبين نسبة صفات العامية فى كل مستوى

شكل (٤)

شكل فرضى يبين نسبة صفات الفصحى فى صفات العامية فى كل مستوى

(١) انظر ص ١١٩ من هذا الكتاب .

ولكى نبين طريقة توزيع صفات العامية على المستويات الخمس وعلاقة ذلك بالشكل التخطيطى رقم (٣) فسنأخذ مثالا من الواقع اللغوى لهذه الصفات . ولكى نبرز كيفية عمل النظام الواحد – الذى سلكنا فيه كل الصفات اللغوية للمستويات الخمس – فيمكن لنا أن نتناول الوجه الآخر من الأمثلة ذاتها التى استخدمناها لبيان صفات الفصحى ونستخدمها فى بيان توزيع صفات العامية . ونعنى بذلك « صوت القاف » و « بنية الجملة » ولكن من وجهة نظر العامية هذه المرة .

والصفة التى نريد تتبعها هنا – وهى من صفات العامية – هى ظاهرة حلول الهمزة محل القاف فى مثل آل = قال ، ساء = ساق ... الخ .

فى عامية الأميين : يتمثل هذا الحلول بصورة كاملة ، ولا يوجد فى هذا المستوى من أصوات القاف سوى مثال أو اثنين (كالقرآن . مما يمكن أن يعد من قبيل القرض من فصحى التراث بتأثير عامل الدين) بينما تستخدم الهمزة بدلا عنها بصورة منتظمة تتفق فى حجمها مع حجم قاعدة المثلث التى تمثلها .

وفى عامية المتنورين : يخف أثر هذه الظاهرة قليلا فيظهر عدد من أمثلة القاف ، ولكنها على كثرتها النسبية لا تزال فى حكم الحالات المعدودة دون أن تصبح القاف ذات قاعدة مطردة أو يكون لها شيوع يعتد به .

أما فى عامية المثقفين : فالأمر يختلف إذ تبدأ ظاهرة حلول الهمزة محل القاف فى الاضمحلال الحقيقى . وعلى الرغم من أن ظهور القاف ذاتها فى هذا المستوى لا يدخل بعد فى حكم القاعدة المطردة إلا أنه من الشيوع والكثرة بحيث تبلغ حالات ظهوره عدداً مساوياً لحالات ظهور الهمزة تقريباً .

وفى فصحى العصر : يبدأ انهيار الظاهرة العامية ، إذ يختفى فى هذا المستوى صوت الهمزة البديل وتستأثر القاف بالميدان كله . ولكنها قاف من نوع خاص قد تأثرت بظاهرة عامية شائعة وهى ميل الأصوات الحلقية (كالقاف والغين والخاء والحاء والعين) إلى الانتقال إلى مخرج متقدم نحو مقدمة الحنك .

أما فى فصحى التراث : فإن الظاهرة العامية تنهار ولا يبقى منها إلا أثر ضئيل ومشكوك فى حقيقته هو فقدان صوت القاف «صفة الجهر التى كانت لها فى السابق .

كذلك من الممكن تتبع تأثير بنية الجملة العامية على المستويات المختلفة ، وذلك باتباع طريقة عكسية لما اتبعناه فى بيان تأثير بنية الجملة فى الفصحى ، وإن كان ذلك غير ضرورى بعد ما قدمناه من أمثلة .

على أن شكل (٢) وشكل (٣) وما يماثلانه إذا أخذ كل منهما على حدة يعتبران تشويهاً للواقع . فصفات الفصحى وصفات العامية توجد مختلطة معاً فى كل مستوى وبنسب متفاوتة تختلف من الواحد إلى الآخر . وتحديد هذه النسب من المعالم التى تعطى لكل مستوى شخصيته ووظيفته الخاصة به . لذلك كان علينا — لكى نقترب من الواقع قليلا — أن ندمج شكلى (٢) و(٣) فى شكل مركب واحد هو رقم (٤) . فباستخدام هذا الشكل نستطيع أن نبين مقدار ما فى كل مستوى من تأثير صفات الفصحى وتأثير صفات العامية ؛ مما يساعدنا على تفسير كثير من ظواهر الواقع اللغوى كما يوجد فى المجتمع المعاصر . ففى وسط الشكل[1] توجد منطقة « عامية المثقفين » وفيها يتساوى نصيبها من صفات الفصحى وصفات العامية تماماً . فإذا ما صعدنا نحو المستوى الأول ، تتناقص صفات العامية وتتزايد صفات الفصحى بنفس النسبة . ويحدث العكس إذا ما هبطنا نحو المستوى الخامس .

ومع ذلك فشكل (٤) وإن كان يعتبر أقرب إلى الواقع من شكلى (٢) و (٣) على انفرادهما فإنه لا يمثل الواقع تمام التمثيل . ذلك أن صفات الفصحى وصفات العامية لا توجد فقط مختلطة فى كل مستوى ، بل تتفاعل معاً بصورة يعسر معها تخليص ما للعامية وما للفصحى فى كثير من الظواهر . بل إنه لمن الخطأ العلمى أن يفصل الباحث فصلا حاداً داخل المستوى الواحد بين صفات ينسبها إلى الفصحى

(١) يوجد فى شكل (٤) عيب طبيعى هو أن المساحة التى تمثل كلا من المستويات الخمس غير متساوية كما كان ينبغى . والمعول فى الشكل على نسبة الجزء المخصص للعامية إلى الجزء المخصص للفصحى فى كل قسم لا مساحة القسم كله بالنسبة إلى غيره من الأقسام . ومع ذلك فهذا العيب يختفى تماماً فى شكل رقم (٥) .

وصفات ينسبها إلى العامية . فصفات المستوى الواحد تشكل وحدة متكاملة — بصرف النظر عن أصلها التاريخى — وهى بهذا المعنى لا ينبغى أن تنسب إلى أى شىء آخر سوى المستوى الذى توجد فيه . ودليلنا على ذلك نستقيه فى هذه المرحلة من بحثنا هذا من شعور المتكلم . فالمثقف الذى يشرح موضوعاً علمياً أو يناقش زميلا له فى محاضرة سمعاها أو مشكلة اجتماعية ويستخدم فى كل ذلك ، المستوى اللغوى الذى أطلقنا عليه اسم « عامية المثقفين » — هذا المثقف لا يخطر بباله مطلقاً أنه يستقى فى حديثه صفات من العامية وصفات من الفصحى ويخلط بينهما . بل نراه يمضى فى كلامه دون أن يشغل نفسه بالتركيب اللغوى فى حد ذاته بقدر ما يشتغل بالفكرة التى يعالجها وكيفية نقلها إلى سامعيه والدفاع عنها . وشعور المتكلم بأنه لا يتكلم لغة فيها « ترقيع » — أو بعبارة أدق عدم شعوره بأن فى لغته « ترقيعاً » — هو بعينه ما نعبر عنه هنا ، « بالوحدة الداخلية » لكل مستوى .

على أن الباحث اللغوى كثيراً ما يلجأ فى بعض مراحل بحثه إلى أشياء قد لا تمثل الواقع تمام التمثيل . يفعل ذلك بصفة مؤقتة من أجل تسهيل عمليه التحليل اللغوى ، وهو عالم تمام العلم بمدى « صناعية » الطريقة التى يتبعها . وهدفه من وراء ذلك التجزئ أن يصل فى النهاية إلى بيان حدود « الكل » الذى يستكشف جوانبه . وهو هنا مستويات اللغة الخمس التى حددناها فى بداية هذا الفصل . وهذا هو أساس استخدامنا هذه الخرائط التخطيطية لصفات العامية والفصحى وتوزيعها فى المستويات الخمس .

على أنه بالرغم من كل هذه التحفظات فإننا نستطيع أن نقول إن شكل (٤) يعكس الواقع بطريقة معقولة . فلو ألقينا نظرة فى القطاع الذى يمثل المستوى الثالث فيه فسنجد أنه نظراً لمركزه المتوسط بين المستويات الأربعة الأخرى يتساوى فيه تأثير صفات الفصحى وتأثير صفات العامية بشكل يدعو إلى الحيرة مما يجعل من العسير على المرء أن يكتشف حدود الوحدة الداخلية التى لا بد وأن يكون قائماً عليها والتى لا بد وأن تتوافر لكل مستوى لغوى متكامل — على ما سبق بيانه .

هذه الصورة القلقة التى يرسمها شكل (٤) للمستوى الثالث هى فى الواقع انعكاس للوضع القلق الذى لهذا المستوى فى واقع الاستعمال ، باعتباره نقطة التقاء التيارين العامى والفصيح ، وباعتباره أيضاً الجسر ذا الاتجاهين الذى تعبر عليه الصفات الهابطة من المستويين الأول والثانى فى رحلتها نحو المستوى الخامس والذى تعبر عليه الصفات الصاعدة من المستوى الخامس والرابع فى رقيها نحو المستوى الأول .

هذا الوضع نفسه هو الذى هيأ لتوفيق الحكيم أن يصف اللغة الثالثة (هى ما يقابل المستوى الثالث هنا) بأنها هى التى تصلح لأن تكون فصحى إذا نطقتها حسب قواعد الفصحى وتصلح لأن تكون عامية إذا اعتبرتها كذلك . وهو أيضاً الوضع الذى هيأ للأستاذ عباس خضر أن يحكم عليها حكماً مشابهاً ولكن من وجهة نظر متشائمة حين قال عنها « إنها لغة خاصة لا هى عربية سليمة ولا هى عامية خالصة . . لغة شاذة شوهاء : لغة خنثى . »[1]

على أن هناك جانباً من المادة اللغوية فى مصر المعاصرة لم نتناوله فى التخطيط الذى رسمناه إلى الآن : فالشكل التخطيطى الذى قدمناه فيما سبق يقوم على أساس وضع صفات **الفصحى الخالصة** فى جانب ووضع صفات **العامية الخالصة** فى الجانب المقابل ثم خلط هذين النوعين من الصفات النظرية بطريقة تدريجية فى الفراغ الموجود بينهما بحيث تكون المادة اللغوية الخاصة بكل منطقة أو مستوى خليطاً بنسب متفاوتة — وبصورة تدريجية — من صفات الفصحى وصفات العامية . ونتيجة ذلك أن يعكس التخطيط الذى قدمناه فى (شكل ٤) التركيب اللغوى للمستويات الخمسة بحيث يبدو الجزء الخاص بمستوى (٢) مثلا وقد تغلبت فيه صفات الفصحى على صفات العامية والجزء الخاص بمستوى (٤) وقد انعكست فيه النسبة ، بينما تتساوى صفات الفصحى وصفات العامية فى المنطقة الوسطى أى فى مستوى (٣) وهكذا .

ولكن الواقع اللغوى المصرى يزيد على ما رسمته تلك الصورة : فهناك جزء لايستهان به من المادة اللغوية — سواء فى المفردات أو التراكيب — لايرجع إلى الفصحى أو العامية بقدر ما يرجع إلى مصادر خارجية عنهما هى اللغات الأجنبية التى اتصل بها أبناء العربية بطريقة أو بأخرى .

(١) المرجع السابق .

وتأثر العربية بلغات أجنبية عنها واقتراضها منها ظاهرة ليست وليدة اليوم أو الأمس القريب ، بل هى قديمة قدم تاريخها المعروف . فمؤرخو العربية يحدثوننا عن وجود كلمات أجنبية اقترضتها اللغة فاستقرت فيها على قدم المساواة مع المفردات الأصلية واستخدمها القرآن دون تمييز أو تفريق مثل : سندس واستبرق والصراط والإبريق . . . . إلخ .

وفى العصر الحديث نرى اللغة بجميع مستوياتها حافلة بعدد هائل من الكلمات الأجنبية مثل : شورت وبرلمان ومانوڤير . . . إلخ كما نرى فيها تراكيب مقترضة مثل : صواريخ جو — أرض ودبابة برمائية ومحلات عبد النبى إخوان . . . إلخ . وهذا كله أمر واضح ومسلم به . ولكن الأمر الذى يحتاج إلى إيضاح هو علاقة عملية الاقتراض هذه بالمستويات اللغوية ونسبة المقترض ونوعيته فى كل مستوى ومدى اتساق كل هذا فى نظام مشترك بين المقترض والأصلى .

والذى نريد أن نقترحه هنا هو أن هذا الطوفان من الدخيل اللغوى لا يتسرب اليوم إلى عربيتنا المعاصرة بطريقة عشوائية تخضع للصدف ، ولكنه يتبع نظاماً دقيقاً يتفق فى **كيفية دخوله** مع طبيعة المستويات اللغوية الخمس وخصائصها الاجتماعية والحضارية كما يتفق فى **الخط الذى يسير عليه وفى مراحل انتقاله من مستوى إلى آخر** مع تدرج هذه المستويات وعلاقة كل منها بالآخر . ولتوضيح هذه الفكرة نضرب مثلا بالكلمتين : « الآى لاينر » Fye-liner و « النوهاو » Know-how . فمع أن هاتين الكلمتين قد دخلتا المصرية المعاصرة إلا أنهما لم تدخلاها من باب واحد : فالأولى دخلتها من باب عامية المتنورين ، بينما دخلتها الثانية من باب عامية المثقفين . والسبب فى ذلك واضح ويرجع إلى اتفاق المستوى الحضارى للكلمة الأولى مع المستوى الحضارى لعامية المتنورين واتفاق المستوى الحضارى للكلمة الثانية (وهى ترتبط بعملية التخطيط وحركة التصنيع فى البلاد) مع المستوى الحضارى لعامية المثقفين . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن حصيلة كل مستوى من الدخيل اللغوى تتفق طرداً وعكساً مع مدى قرب أبناء هذا المستوى أو بعدهم من منابع الحضارة والعلم الأجنبيين . فكلما زادت صلة أبناء مستوى بمنابع الحضارة الأجنبية كلما زاد تأثرهم بمقومات تلك الحضارة — مما يستتبع بدوره زيادة اقتراضهم من الثروة اللغوية المعبرة عن تلك المقومات —

والعكس العكس . وليس المقصود بالقرب من منابع الحضـــارة والعلم الأجنبيين الاتصال المباشر فقط ، بل يكفى فى هذا الاتصال غير المباشر أيضاً : فالسيدة التى تستخدم « الآى لاينر » تعتبر متصله بمنابع الحضارة الأجنبية على الرغم من أنها قد لا تكون على علم بأية لغة أجنبية .

وإذا ما سلمنا بالأسس السابقة ، فإننا نجد — عند فحصنا الدخيل فى عربية مصر المعاصرة — أنه موزع على المستويات الخمس المذكورة بصورة تقترب من التخطيط التالى :

١ — فصحى التراث :

نصيب هذا المستوى من الدخيل اللغوى عبارة عن تلك الكلمات التى اقترضتها اللغة فى عصور ازدهارها. واعتبرها علماء العربية جزءاً من تراثها فدونوه فى قواميسها وسمحوا باســتعماله دون قيد . (مثل الصولجان — ديوان — زنجبيل — المغناطيس . . إلخ) ونظراً إلى أن هذا المستوى تاريخى ورثناه كما هو عن الأقدمين فإن نصيبه من الدخيل ثابت وغير متجدد وأقل كثيراً جداً من نصيب المستوى الذى يليه .

٢ — فصحى العصر :

للدخيل فى هذا المستوى مصدران :

١ — فصحى التراث : فحصيلة ذلك المستوى من الكلمات أجنبية الأصل والتى وصفناها فوق هذا الكلام مستخدمة فى فصحى العصر بشكل عام .

(ب) اللغات الأوربية المعاصرة باعتبارها حاملا للعلم والحضارة الغربية : فمنذ عصر محمد على والعلماء دائبون على ترجمة العلم الغربى إلى اللغة العربية . وهم فى نقلهم لأفكار هذا العلم كثيراً ما يخالفهم التوفيق فى صياغة كلمات عربية الأصل للتعبير عنها مثل :

المضادات الحيوية = Ant-biiotics

النظائر المشعة = Isotopes

الأشعة السينية = X — Ray ... إلخ

غير أنهم كثيراً ما يعجزون أيضاً عن — أو لا يرون ضرورة إلى — ابتكار اصطلاحات عربية للتعبير عنها . فينقلون المصطلحات الأصلية كما هى ، مثل : الفيروس — الملاريا — الهليكوبتر . . . إلخ . وقد يظهر بعد البحث أن إبقاء المصطلح الأجنبى مرغوب فيه ، ربما لعدم وجود مقابل عربى يفى بمدلوله تمام الوفاء . ولعل هذا هو السبب فى ترجمة مجمع اللغة العربية لمصطلح "Phoneme" (فى مجموعة مصطلحات علم اللغة والأصوات) بـ : **الصوت اللغوى — الفونيم**[1] . فلما كان التعبير عن المصطلح الأصلى « بالصوت اللغوى » من العموم والسعة بحيث لا يكاد يعنى شيئاً محدداً اضطرت اللجنة — على ما يبدو — إلى اعتماد المصطلح الأجنبى كما هو فكتبته بحروف عربية مجيزة بذلك استخدامه فى الكتابة العربية « الفصيحة » . وعلى هذا فمن الواضح أن نصيب فصحى العصر من الدخيل ليس فقط أكثر من نصيب فصحى التراث منه بل إنه فى ازدياد كل يوم على الرغم من المجهود الذى يبذله مجمع اللغة العربية فى وقف هذا التيار . ونحن مثلا لا نزال نستخدم فى الكتابة ألفاظاً مثل : التليفون والأوتوبيس والاستنسل والفرملة على الرغم من سلك المجمع لها البدائل التالية على التوالى : المسرة والحافلة وورق الشمع أو المهرق والكابحة .

ولا يقف الأمر عند الألفاظ وحدها بل يمتد إلى التعبيرات أيضاً . وتغلغل هذه فى اللغة يتم خلسة وبصورة أقل لفتاً للنظر من تغلغل الكلمات . وفى اللغة طائفة لا تكاد تحصى من ابتكارات المترجمين أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث العربى ، وقد نندهش الآن إذا ما قيل إن الكثير منها كان موضع استنكار علماء العربية فى وقت مولده . وخير مثال على ذلك ما جاء فى بحث للسيد محمد كرد على ألقاه فى الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦[2] وجمع فيه قدراً كبيراً من التراكيب التى وصفها بأنها « ما أنزل الله بها من سلطان » . ونحن ننقل هنا قدراً

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية : ج ١٨ ، ص ٢٥٥ .

(٢) نشر البحث فى مجلة المجمع : ج ٧ ، ص ٣٠ — ٣٧ تحت عنوان : تطور الألفاظ والتراكيب والمعانى .

كبيراً نوعاً ما من القائمة التى أوردها لأهمية دلالتها فيما نحن بصدده : « ... لا أكتمكم يا سادتى أن سمعى لم يتألم قط أكثر من لفظ أو إضافة جاءنا بها المشتغلون بعلم الترجمة ، فنسبوا إلى التربية « التربوى » . وأتونا بعد ذلك بألفاظ وتراكيب لو حلفنا لأهل عصور زهو العربية بالطلاق والعتاق أنها عربية ما صدقوا ولا آمنوا .

جاءنا متفاصحو المترجمين بتركيب : النزعة الواقعية. القوة الوجدانية . الذاتى . الموضوعى . الإقليمى . الفكرة الأساسية . الطريقة الاعتباطية . السبب المباشر... تغلبت العناصر التقدمية على الرجعية . وطن معنوى مثالى . الوطن المرقوب المرغوب . من حيث الأساس . تفرض نفسها على اتجاهات السياسة . . . ضرب الرقم القياسى . النزعات السياسية السائدة . عمله على ضوء كذا . رفع رأس أمته عالياً . يحيطونها بهالة من الرهبة . استغل الموقف . جرى على خطته التقليدية . خلقت جوا من المفاوضات تجرى فى جو يسوده الود . الوضع الحاضر . الوعى القومى . سر المهنة . فقيدالواجب . التربية المثالية . المجال الحيوى . المثل الأعلى . الشخصيات البارزة . السوق السوداء . الجهود الجبارة . الحل الحاسم . حقل الأدب والعلم . الروح الوثابة . أتون الحرب . الرغبة الملحة . جملة داوية صارخة . وأخيراً تم الشىء الفلانى بحسب الخطة المرسومة . رجل الساعة . الأهداف القومية . حركة خاطفة . الروح المعنوية المتوثبة . فى ظل النظام . ظهر على مسرح السياسة . يضحى على مذبح أغراضه . طاب يد فلانة . ذر الرماد فى العيون . يشق طريقه إلى الحياة . فشلت المناورة . انفرجت شفتاه عن عدة ابتسامات كان لها أثر طيب فى تلطيف جو الاحتفال ... ويضيف السيد كرد على بعد ذلك قائلا : « ألا تصابون بالبرداء وقاكم الله شرها ، إذا سمعتم مترجماً يقول : هذا الشعور ليس سلبياً بل إيجابياً . وتربية فلان الإيجابية العالية . المركز الاستثنائى . . . إلخ » .

ولا شك أنه من الصعب على المرء اليوم أن يشارك مستمعى عام ١٩٤٦ من أعضاء مجمع اللغة العربية استنكارهم لهذه الألفاظ . بل من الصعب علينا اليوم أن نتصور إمكانية التعبير عن الأغراض المعاصرة بدون هذه الألفاظ .

والفارق الأساس بين مستوى فصحى التراث وفصحى العصر فى موضوع الاقتراض أن الباب

لايزال مفتوحاً أمام الأخيرة للاستزادة من معين اللغات الأجنبية . والسبب فى ذلك واضح ، فالمجتمع العربى المعاصر لازال يستورد مظاهر الحضارة ومبتكرات العلم من المجتمعات الغربية ، وكثيراً ما يقترض مع كل منها المصطلح الأجنبى الذى أطلق عليه فى مهده الأصلى .

على أن هذا الاقتراض — كما نعلم جميعاً — لا يتم دون رقيب أو حسيب . فالمؤسسات الرسمية الموجودة فى الدول العربية (مثل مجمع اللغة العربية بمصر ، والمجمع العلمى بدمشق ، ولجنة التعريب بالمغرب . . . وغيرها) تناهض الاقتراض الحرفى من اللغات الأجنبية خوفاً على اللغة من أن تفقد شخصيتها الخاصة فى طوفان الدخيل . بل إن الأمر لا يقتصر على المؤسسات الرسمية فهناك ما يمكن أن يسمى بـ « رأى عام لغوى » فى العالم العربى يناهض مبدأ الاقتراض اللغوى فى الفصحى . وقد نتج عن كل ذلك وجود نوع من المقاومة لتيار الدخيل أخضعه للرقابة وخلق نوعاً من التوازن بين عوامل الاقتراض وعوامل المحلية اللغوية .

٣ — عامية المثقفين :

يتوفر لهذا المستوى من الظروف ما يجعله أوسع الأبواب قبولا للدخيل اللغوى . ونستطيع أن نوجز هذه الأسباب فى أن ظروف هذا المستوى من حيث اتساع أفق أصحابه الثقافى وصلتهم بمنابع الدخيل هى عينها ظروف مستوى فصحى العصر مع فارق واحد هو عدم وجود الرقابة اللغوية فى حالة مستوى عامية المثقفين .

فالمتكلمون بعامية المثقفين هم صفوة النتاج العلمى والحضارى والثقافى للمجتمع المصرى . وغالبيتهم على معرفة بلغة أجنبية واحدة على الأقل ، وبعضهم قد تلقوا تعليمهم وتخصصاتهم فى الخارج وبينهم وبين منابع العلم والثقافة الأجنبية صلة مباشرة : فهم بهذا الوصف يعتبرون سابقين لمجتمعهم فى نواحى الثقافة والعلم والفن والحضارة الحديثة ، مما يضع على عاتقهم مهمة التبشير بهذه الألوان الغريبة على مجتمعهم . وفى محاولاتهم للقيام بتلك المهمة يصطدمون بعقبة افتقار اللغة إلى المصطلحات والعبارات الجاهزة التى يمكنهم أن يستخدموها فى التعبير عن مظاهر تلك الحضارات (وهذا أمر طبيعى ، فمن غير المعقول لغوياً أن يوجد فى لغة عبارات وأسماء تنطبق

على أفكار ومسميات لم تدر بخلد أبناء هذه اللغة ولم تتصل بحياتهم) ولذلك فمن الطبيعى أن يلجأوا إلى شرح الأفكار الغربية مع ذكر المصطلحات الأجنبية التى تعبر عنها . ولما كان هذا المستوى عاميًّا من ناحية وشفاهيا من ناحية أخرى فإن أصحابه لا يتعرضون فى اختيارهم اللغوى للقيود التى يتعرض لها من يتناول الموضوعات ذاتها فى مستوى فصحى العصر . ولا حاجة بنا إلى التأكيد على أن المقعد الذى يكتب يخضع لشروط قاسية لا يخضع لها هو ذاته عند ما يشرح شفاهيًّا ما يكتبه .

هذا هو الفارق الأساسى بين فصحى العصر وعامية المثقفين فى مرقفهما من الألفاظ الأجنبية : القيد بالنسبة للأولى والحرية النسبية بالنسبة للثانية . وخير مثال على ذلك ما نراه فى ميدان الحياة الجامعية فى مصر : فؤلفو الكتب الجامعية يبذلون مجهوداً كبيراً لتنقية ما يكتبون من الدخيل ، وإذا ذكروا مصطلحاً أجنبيًّا فإنهم يقدمونه بحروف لاتينية تبقيه حيث هو خارج حدود اللغة العربية . أما فى قاعة المحاضرات فإن الكثيرين منهم لا يتحرجون من تطعيم لغتهم بكلمات ومصاحات أجنبية حتى فى الحالات التى لا تفتقر فيها اللغة العربية إلى وجود المقابل العربى الصحيح . وقد سجلت لأحد علمائنا فى حديث شخصى معه الكلمات الآتية فى حوالى الدقيقتين : « إكْسْبِرِمِنْ » / « المائيانكس » بتاع الحكاية دى / من غير « رِظَلْطْ » ، وذلك على الرغم من وجود المقابلات العربية : معادلة / والحسبة بتاعة الحكاية دى / ومن غير نتيجة — على التوالى . حقيقة يلزم بعض المتكلمين أنفسهم بعدم تطعيم لغتهم بكلمات أجنبية حتى فى المحادثات الشفاهية ولكن هؤلاء أقل بكثير ممن يلتزمون بالفصيح فى كتاباتهم .

٤ — عامية المتنورين :

على الرغم من عدم وجود القيود اللغوية التى تمنع أبناء هذا المستوى من استخدام الألفاظ الأجنبية فى محادثاتهم فإن نصيب عامية المتنورين من الدخيل أقل بكثير من نصيب المستوى السابق . والسبب فى ذلك هو ضيق المحيط الثقافى الذى تدور فيه لغة هذا المستوى بالمقارنة مع المحيط الثقافى لعامية المثقفين . فالألفاظ المستخدمة هنا تكاد تقتصر على النواحى الحضارية التى تتعلق بالثياب وأدوات التجميل والأثاث والأدوات المنزلية ووسائل السفر . . . إلخ (مثل المانوكير والبادوكير والبانكيك والجوب

والأباجورة والباروكه . . . إلخ) ويمثل هذا النوع الألفاظ التى وصلت إلى المجتمع المصرى وسدت حاجة من حاجات طبقة معينة فيه فاستقرت بينهم وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم . وعدم انتشار هذه الألفاظ بين بقية طبقات المجتمع يرجع بصفة أساسية إلى مستوى المعيشة الخاص الذى تمثله . وقد تنجح بعض هذه الألفاظ فى الانتشار وتتخطى حدود طبقتها الضيقة فتصبح ملكاً لكل الطبقات وبالتالى لكل المستويات اللغوية على السواء مثل كلمة « بودرة » و « سكر البودرة » . . . إلخ .

٥ — عامية الأميين :

يقف جهل أبناء هذا المستوى باللغات الأجنبية وانخفاض مستواهم المعيشى حائلا بينهم وبين الاتصال المباشر بالحضارة الأجنبية وما يمثلها فى المجتمع المصرى المتنور . ولذلك يقتصر نصيب هذا المستوى من الألفاظ الأجنبية على تلك التى استقرت فى المجتمع المصرى وعاشت فيه وأصبحت جزءاً أصيلا فى كيانه مما أخضع معظمها للنظام الصرفى للغة العربية فجرت عليه قوانينها فى الاشتقاق والتصريف وغيرها . ونحن نرى هذه الألفاظ اليوم تعبر عن ألوان من النشاط الأساسى فى المجتمع المصرى بطريقة تضعها على قدم المساواة مع الألفاظ المصرية الأصيلة بقطع النظر عن أصلها التاريخى . وأوضح مثال على هذا النوع الألفاظ المتصلة بلعبة كرة القدم ، تلك التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كيان المجتمع المصرى : فهناك « السنتر » ومشتقاته « يسنتر » و « سنتروا » وهناك « باصة » و « بياصى » و « باصّى » و « باصى » وهناك « شوته » و « شات » و « يشوت » . . . إلخ . وبالإضافة إلى لعبة الكرة فهناك مجموعات أخرى من الكلمات مثل : « جراش » و « تجريش » و « يجرش » و « أسفلت » و « يسفلت » . . . إلخ . وقد اشتق حديثاً أفعال من أسماء أجنبية سبق اقتراضها مما يؤذن بتأصيلها أو بإعطائها حق الإقامة مثل : « يتلفن » من « التليفون » و « يكنسل » بمعنى يلغى وإن كانت هاتان الكلمتان لم تستقرا بعد فى عامية الأميين .

وهكذا نرى أن هناك عاملين يتحكمان فى مقدار تسرب الدخيل اللغوى ونوعه إلى المجتمع المصرى بجميع مستوياته . وهما :

١ — وجود الصلة الثقافية أو عدم وجودها . !

٢ – وجود القيود اللغوية على استخدام الدخيل أو عدم وجودها .

وتتوقف نسبة الدخيل فى كل من المستويات الخمس على درجة نشاط كل من هذين العاملين فى كل مستوى :

فى المستوى الثالث : (أى عامية المثقفين) توجد الصلة الثقافية المباشرة بين أصحابه وبين الثقافات الأجنبية كأقوى ما تكون ، فى الوقت الذى تختفى فيه القيود اللغوية تقريباً على استخدام الدخيل . ولذلك توجد فى هذا المستوى أعلى نسبة من الألفاظ الأجنبية .

أما فى المستويين الثانى والرابع : فتكاد نسبة الدخيل فى كل منهما تكون متعادلة ويرجع ذلك إلى تعادل كفتيهما من تأثير العاملين السابقين (وإن كان هذا بصورة عكسية) كالآتى : فى **المستوى الثانى** (أى فصحى العصر) يشتد تأثير العاملين معاً ، فتوجد الصلة الثقافية فى نفس قوة وجودها فى المستوى الثالث ولكن يعارضها ويقلل من تأثيرها وجود قيود لغوية قوية تحد من حرية الاقتراض من الألفاظ الأجنبية . بينما نجد الأمر على العكس **فى المستوى الرابع** : إذا يضعف فيه تأثير العاملين معاً فلا توجد فيه قيود لغوية على استخدام الدخيل فى الوقت الذى تضعف فيه الصلات الثقافية بين أصحاب المستوى وبين منابع الثقافة الأجنبية إلى درجة من السطحية نجد معها فى النهاية أن حصيلة هذا المستوى من الألفاظ الدخيلة تكاد تعادل نصيب المستوى الثانى منها .

وفى المستوى الأول : (أى فصحى التراث ، وهو مستوى تاريخى موروث لا يتغير بالزيادة أو النقصان) نجد أن هذين العاملين قد انتهت فاعليتهما . ولذلك فنصيبه من الدخيل ثابت مقرر ، فى الوقت الذى تزداد فيه حصيلة المستويات الأخرى بما يضاف إليها من ألفاظ جديدة مقترضة . ولذلك نستطيع القول بأن نصيب هذا المستوى من الدخيل **أقل** من نصيب كل من المستويات السابقة .

وفى المستوى الخامس : (أى عامية الأميين) لا توجد الصلة الثقافية المباشرة . بين أبناء هذا المستوى وبين الحضارات الأجنبية على وجه الإطلاق ؛ ولذلك فعلى الرغم من عدم وجود القيود اللغوية على استخدام الدخيل فإن نصيب هذا المستوى منه يكاد يقتصر على ما يترسب فيه من الألفاظ التى استقرت وتقادم عليها العهد فى

المجتمع . أى أنها فى الواقع نوعية من الألفاظ تشبه فى استقرارها نصيب فصحى التراث من الدخيل مع فارق واحد هو أن مجموعة فصحى التراث تاريخية وأن مجموعة عامية المثقفين مجموعة تاريخية ومعاصرة فى الوقت ذاته .

وهكذا نستطيع القول بأن كل مستوى من المستويات اللغوية الخمس الموجودة فى مجتمعنا المعاصر يتركب من مجموعة من الصفات والخصائص اللغوية تستمد أصولها من مصادر ثلاثة :

١ – خصائص الفصحى التاريخية .

٢ – خصائص العامية التجريدية .

٣ – خصائص من لغات أجنبية .

ويستمد كل مستوى شخصيته ومقوماته من نسبة كل نوع من هذه الخصائص فيه ويمكننا أن نصور ذلك بتقديم شكل تخطيطى خامس يأخذ فى الاعتبار كل هذه المصادر ، ويمكن أن يعتبر هذا تطويراً للشكل رقم (٤) السابق بإضافة

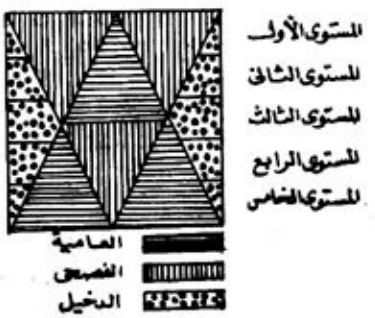

شكل رقم (٥)

شكل فرضى يبين تخطيطا لنسبة نصيب كل من المستويات اللغوية من صفات الفصحى وصفات العامية والصفات المقترضة من اللغات الأجنبية

المنطقتين الجانبيتين لتمثلا نسبة الخصائص المستمدة من اللغات الأجنبية فى كل مستوى :

وهكذا نستطيع القول بأن شكل (٥) يلخص الخطوط العريضة للأسس التى يقوم عليها الفروق والعلاقات اللغوية للمستويات الخمس . ونحن فى استعراضنا للصفات اللغوية هنا نستطيع أن نأخذ صفة منها على حدة (مثل الثاء مثلا) نستعرض صورتها والتعبيرات التى دخلت عليها فى كل مستوى من المستويات الخمس ثم نعود ونأخذ صفة أخرى وهكذا إلى أن ننتهى من الصفات التى نريد مناقشتها . ولكننا لو اتبعنا تلك الطريقة فسوف نكون كمن يهتم بالصفات اللغوية فى حد ذاتها لا بالمستويات نفسها .

ولذلك فقد قامت الطريقة التى اتبعناها فعلا على ذكر صفات — أو ما يهمنا ذكره من صفات — كل مستوى على حدة ، مما يكفل لنا رسم صورة متكاملة لكل مستوى . على أننا سنراعى عند ذكرنا لصفات كل مستوى أن نرتبها بطريقة تكفل للقارئ — إذا ما أراد — أن يتبع صفة معينة كما وردت فيها جميعاً مستعيناً بالشكل التخطيطى رقم (٥) .

أسس اختيار الصفات اللغوية لإجراء المقارنة :

كلمة أخيرة لابد منها قبل أن نبدأ فى استعراض صفات المستويات الخمس وهى أنه ليس الهدف هنا استعراض كل الصفات اللغوية لكل مستوى فذلك عمل لا يمكن الإحاطة به فى كتاب واحد (يكفى أن نتذكر أن فصحى التراث وحدها قد وردت صفاتها فى مجلدات عدة من النحو والصرف والقراءات والقواميس .) ولكن هدفنا هو أن نأخذ عينات من الصفات اللغوية نستطيع عن طريق استعراضها أن نرسم الخطوط العريضة لكل مستوى وأن نميزها بصفات محددة تفرق كلا منها عن الآخر .

وتحقيقاً لهذا الغرض العام فسنختار من خضم الصفات اللغوية للمستويات الخمس ما يتوافر فيه الشروط الآتية :

١ — أن يكون ذا طبيعة واضحة ما أمكن حتى لا يقتصر استخدامه على المتخصصين فى الدراسات اللغوية أو من لهم اهتمام بهذه الجوانب وحدهم .

٢ — أن يكون عاما تمتد آثاره فى المستويات الخمس ما أمكن حتى يمكن لنا أن نسلك المستويات الخمس معاً فى إطار واحد هو شكل (٥) .

٣ — أن يكون فى هذه الصفات — أو بعبارة أخرى فى صور ظهورها فى كل من المستويات الخمس — من التقابل أو من الفروق ما يكفل رسم الصورة المتميزة لكل مستوى على حدة .

ونحن نحيل القارئ على المثالين الذين قدمناهما عند شرح المقصود بشكل (٢) : كنموذج لما تحققت فيه الشروط الثلاثة المذكوره هنا .

• • •

أما الصفات الخاصة بكل من المستويات الخمس على حده فبيانها كالتالى :

١ — الصفات اللغوية التى تميز « فصحى التراث » :

تختلف « فصحى التراث » — وهى ، من ناحية المنزلة الاعتبارية وبقطع النظر عن وظيفتها الاجتماعية ، أعلى مستوى فى قمة « السلم اللغوى » للمجتمع المصرى — تختلف بعض الشىء عن « الصورة المثالية » التى تركها لنا اللغويون القدامى للغة العربية . ولنا على ذلك دليل مشاهد ندركه جميعاً . فلا يوجد الآن فى مصر (ولا فى أى بلد عربى آخر) من يستطيع مهما بلغت درجة إتقانه للفصحى — أن ينطق بها دون أن يكشف عن البلد العربى الذى نشأ فيه . ومعنى ذلك بدون حاجة إلى الدخول فى مناقشات لغوية — أن نطقنا جميعاً للفصحى مشوب بصفات محلية — يمكن لنا أن نسميها صفات عامية — لم تكن لهذه اللغة فى عصورها الأولى . **أى أن « فصحى النحو العربى » قد أصبحت الآن « مثالا » فى التجريد لا يمكن أن تتحقق فى الواقع بكامل صفاتها .**

على أن الفروق بين الاثنتين : « فصحى التراث » و « فصحى النحو » هى من القلة ، ويتركز معظمها فى الصفات الصوتية التى لم يعن بها النحاة — مثل النبر — بحيث يمكننا أن نعتبر أن « فصحى التراث » هى « فصحى النحو » زائداً عليها الصفات العامية التى أشرنا إليها . وهى الصورة التى يعكسها القسم العلوى من الشكل رقم (٥) .

وما دمنا سنعتبر مستوى فصحى التراث بهذه الصورة فلن نكون بحاجة إلى تقديم

وصف جديد له بعد أن تكفل علماء العربية القدامى بهذه المهمة . فقد تركوا لنا وصفاً دقيقاً « لفصحى النحو » من معظم نواحيها : فخصصوا أبواب الإدغام وكتب القراءات لأصواتها ، وأبواب الصرف لبنية كلماتها ، وأبواب النحو لبنية الجملة فيها ، وأبواب المعانى لأساليبها ، كما أودعوا القواميس من متخصصة وغير متخصصة ، ما جمعوه من كلمات . وقد هيأ كل ذلك للغة العربية أن تصبح من أكثر لغات العالم توثيقاً فى تاريخ الإنسانية إن لم تكن أكثرها فى ذلك باستثناء اللغة الإنجليزية .

ونظراً إلى وجود هذا التوثيق الجيد فسنعتبره نقطة بداية أو معياراً على أساسه نقيس أونضاهى صفات المستويات الأخرى . وإن كنا — كما قلنا سابقاً — سنختار من الصفات ما يخدم غرضنا الرئيسى هنا وهو رسم الخطوط العريضة للمستويات الخمس .

أما الصفات التى سنوردها فسنناقشها تحت عناوين ثلاثة :

(ا) الأصوات .

(ب) بنية الكلمات .

(ح) بنية الجمل .

وذلك على النحو التالى :

(ا) الأصوات :

السواكن :

١ — الأصوات الأسنانية ث / ذ / ظ /

ينطق متقنو الخطاب والقراءة فى هذا المستوى بالأصوات الاسنانية من مخرجها الصحيح (وهو ما بين طرف اللسان وأطراف الأسنان العليا) . ولما كان هذا النطق متأثراً بقراءة القرآن ، والمتدربون عليه لديهم حساسية فائقة لكل ما ينبو عن قواعده المدروسة ، فإن كل نطق لا يتفق مع الصفة المذكورة لتلك الأصوات يعد خطأ فى هذا المستوى .

٢ — صوت ج ينطق دائماً معطشاً .

٣ — الأصوات الخلفية ق / خ / غ / ح / ع

تصدر هذه الأصوات دائماً من أقصى نقطة ممكنة من مخارجها . فالقاف والخاء والغين من اللهاة (لا من الحنك اللين كما هو الحال فى غيرها من المستويات) والحاء والعين من أقصى الحلق . على أن هناك ظاهرة عضوية مصاحبة لهذه الأصوات تعطيها فى هذا المستوى — دون سواه — تأثيراً صوتياً خاصا . هذه الظاهرة هى ما يسمى فى علم اللغة بتدوير الشفتين Labialization ، وهى تضفى على الصوت الذى تصاحبه ضخامة ترجع إلى توسيع فراغ الفم نتيجة لانفتاح الفكين واستدارة الشفتين مع بروزهما قليلا إلى الأمام .

٤ — الأصوات المفخمة : ط / ض / ص / ظ . تنطق هذه الأصوات بدرجة عالية من التفخيم مع استدارة فى الشفتين .

الحركات :

١ — للنطق بالحركات فى فصحى التراث طريقة خاصة تعد أهم الصفات الصوتية التى تعطى لهذا المستوى طابعه الصوتى الخاص . هذه الطريقة تتلخص فى الاحتفاظ لكل صوت من أصوات الحركة (طويلها كواو المد وياء المد وألف المد وقصيرها كالضمة والكسرة والفتحة) بطوله النسبى دون السماح لوضع المقطع الذى فيه الحركة بالتأثير على طوله كما يحدث فى بقية المستويات على ما سيأتى بيانه[1] . وكنتيجة لهذه الظاهرة يجد السامع لكلام ينطق فى هذا المستوى إيقاعا خاصا . ويرجع تقدير أطوال الحركات إلى التدريب الذى يتلقاه المجيدون فى دراستهم للقراءات وخاصة قواعد المد والقصر (حيث تقدر أطوال الحركات طبقاً لما يسبقها أو يتلوها من الأصوات من ناحية وطبقاً لنوعها هى من قصيرة أو طويلة من ناحية أخرى) . ومن العسير أن يصف المرء للقارئ الانطباع الذى يحدث عن صوت ما بطريقة تستحضره له تماماً . فالوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هى سماع الصوت نفسه لا قراءة وصفه . ولكن لما كان هذا متعذراً فسنحاول إعطاء مثال يقرب الفكرة بعض الشىء .

---

(١) أنظر صفحات ١٣٨ — ١٣٩ و ١٦٥ — ١٦٦ من هذا الكتاب

جاء فى إجابة لفضيلة الشيخ بدر عبد الباسط فى برنامج « رأى الدين » قوله :

« والخطبة لا تثبت أى حق للخاطب قبل خطيبته / ولا للمخطوبة قبل خاطبها » .

وقد لاحظنا أنه نطق هذه الجملة على مرحلتين تفصلهما سكتة خفيفة بعد كلمة « خطيبته » . وعلى الرغم من اختلاف طول القسمين فى عدد كلماتها إلا أنه أعطى كلا منهما وقتاً مساوياً . وقد اقتضاه ذلك أن يسرع عموماً فى الشق الأول ويبطىء فى الشق الثانى مما أعطى العبارة كلها نوعاً من التوازن الإيقاعى . وقد قوى هذا التوازن مهارته الفائقة فى تناول أصوات المد فى العبارة : ففى القسم الأول منها ثلاثة أصوات يقابلها ثلاثة مماثلة فى القسم الثانى هى :

لا ... الخاطب ... خطيبته

لا ... المخطوبة ... خاطبها

وقد أعطى لكل صوت مد فى القسم الثانى وقتاً مساوياً لما أعطاه لنظيره فى القسم الأول ولما كان عدد الأصوات فى القسم الأول أكثر بكثير من عددها فى القسم الثانى فقد احتفظ بالتوازن بين القسمين على الرغم من ذلك بأن أسرع كثيراً فى نطقه بالأصوات الساكنة فى القسم الأول دون الثانى . فعل ذلك على حساب الأصوات الساكنة لأنها لا تؤثر على الإيقاع بنفس الدرجة التى تؤثر بها عليه أصوات المد والحركات .

وتوزيع أصوات المد داخل كلمات فصحى التراث يختلف عن نظيره فى كل المستويات الأخرى . وينتج عن ذلك خلق نوع من الإيقاع لعبارات الفصحى يختلف عن إيقاع عبارات العامية مما سنتناوله فى موضع آخر .

٢ — كذلك يمتاز نطق الفتحة المفخمة فى هذا المستوى بمصاحبة ظاهرة « تدوير الشفتين » التى وصفناها سابقاً . مثال ذلك نطق ألف المد فى كلمة « للقاء » ، وفتحة الباء فى كلمة « الخطبة » وهما واردتان فى البرامج المشار إليه .

٣ — وجود ظاهرة القلقلة المعروفة فى القراءات . وتقضى هذه الظاهرة بأنه إذا سكن أحد الأصوات ق / ط / ب / ج / د وبعده صوت صحيح (مثل : الخطبة ،

القبلة) فإن الصوت الساكن يحرك بحركة مجانسة لحركة ما قبله . والداعى لهذا « التحريك » إبقاء هذه الأصوات[1] مجهورة على الدوام . فلو لم تحرك لكان من الممكن أن تهمس فى حالة ما إذا كان الصوت التالى لها ساكناً مهموساً مثل كلمة : « رجفة » .

مسائل أخرى :

١ — كذلك من الخصائص الصوتية لهذا المستوى ما يسمى بالغنة ، وما يسمى بالأقلاب (وهو قلب نون التنوين ميماً إذا تلتها باء) ،وذلك من آثار التدريب على القراءة والقراءات . وإن كانت آثار هذا التدريب تمتد لتؤثر على طريقة النطق بالفصحى فى غير قراءة القرآن . مثال الأول : الاستعاضة عن تنوين كلمة « مداراة » بغنة أنفية فى قوله : « فترة مداراةٍ ورياء » ومثال الثانى : تحول تنوين كلمة « قول » إلى ميم فى قوله « قَوْلُمْ بعيد عن الحق والصواب » .

٢ — النبر : وهو الضغط على مقطع معين فى الكلمة بقوة أكبر نسبياً من الضغط على غيره من مقاطع تلك الكلمة . مثال ذلك أن النبر فى كلمة مثل « راحت » يكون على المقطع الأول فى الكلمة وهو / را / مما يجعله أقوى نسبيا من المقطع الثانى فى الكلمة وهو / حت / وأوضح منه فى السمع .

ولما كان اللغويون القدامى لم يتناولوا مسائل النبر فى وصفهم للفصحى ، فمن غير الممكن أن نقرر ما إذا كان النظام الموجود الآن مخالفاً أو مشابهاً لما كان يجرى عليه النطق فى الماضى . غير أنه من الملاحظ أن الفصحى تنطق فى كل بلد عربى بنظام من النبر شبيه بنظام نبر العامية فى لهجة نفس القطر مما يجعل من المرجح أن يكون نظام النبر كما كان موجوداً فى الفصحى القديمة قد اندثر وحل محله نظم أخرى متأثرة باعتبارات محلية .

ونظام النبر فى فصحى التراث فى المجتمع المصرى الآن هو من الصفات التى تجعل من اليسير كشف جنسية المتكلم فى الوقت الحاضر على ما أشرنا إليه سابقاً .

---

(١) يتخذ البعض هذه الظاهرة دليلا على أن صوتى القاف والطاء كانا مجهورين فى الماضى وألا ما ضمنا بين أصوات مجهورة .

(ب) بنية الكلمات :

تختار من النظام الصرفى لفصحى التراث كما تستخدم فى مصر الآن مما يفيدنا فى إجراء المقارنة مع المستوى التالى له وهو فصحى العصر نقطتين فقط تاركين غيرهما — على قلته — لعدم الاتفاق العام عليه :

١ — الإفراد وغيره : فهذا المستوى يختص بوجود أربعة أنواع من الصيغ للدلالة على التجمعات العددية . هى :

صيغة المفرد	مثل	سيف
صيغة المثنى	مثل	سيفان
صيغة جمع القلة	مثل	أسيف
صيغة جمع الكثرة	مثل	سيوف

٢ — نظام العدد : وهو معروف بقوانينه المتشعبة المذكورة فى كتب النحو. ويحرص المتكلمون بهذا المستوى على النطق بصيغ العدد نطقاً يتفق وهذه القواعد مثل : « الخمس خلون من رمضان سنة مائتين وألف » . . . إلخ .

أما المعارك التى دارت أو كانت تدور حول أوزان مثل جمع «عنوان» و « موضوع » وهل هو عناوين أو مواضيع أو يجب أن نقول عنوانات وموضوعات . . . إلخ . فلا نريد أن « نثيرها جذعة » هنا مرة أخرى . ذلك أن الخلاف فى هذه المسائل ونحوها كان فى الواقع حول « نوع » الصحة أو الخطأ فى الاستعمال لا مجرد وجود الرواية أو الصيغة أو القياس الذى يمكن اتباعه فى مثل هذه الأمور .

والسبب فى قلة نقاط الخلاف الصرفى بين مستويى فصحى التراث والعصر هنا هو أن سرعة تطور الصيغة أقل من سرعة تطور الصوت ، وخاصة فى لغة مثل اللغة العربية تلعب الصيغة فيها دوراً أساسياً فى التخصص المعنوى للمشتقات المختلفة لأصل المادة .

(ح) بنية الجمل :

١ — للجملة فى فصحى التراث نوعان من البنية يختلفان فى نسبة شيوعهما على الترتيب التالى :

(ا) فعل + اسم (فاعل) = جملة فعلية

(ب) اسم (مبتدأ) + خبر = جملة اسمية

وعلى الرغم من وجود هذين النوعين فيها إلا أنهما ليسا فى الأصلية سواء . . فكما ذكرنا سابقاً يستخلص من أقوال علماء العربية وملاحظاتهم أن الجملة الفعلية هى الأساس فى التعبير وأن الجملة الإسمية يؤتى بها لأغراض خاصة كالاهتمام بالاسم . . . إلخ ويؤيد هذه الأقوال ما نلاحظه فى كتابات التراث وفى القرآن الكريم من زيادة شيوع الجملة الفعلية بدرجة كبيرة .

٢ — كذلك تمتاز بنية فصحى التراث باعتمادها على علامات الإعراب للدلالة على معانيها المختلفة . وأهم من ذلك فى تمييز هذا المستوى اللغوى استمساك الناطقين به بهذه العلامات وعدم إسقاطها فى وصل الكلام (انظر مثلا القطعة المذكورة فى الصفحة التالية وخاصة وضع الضم على (وبعد) وهو مما يسقط الآن فى النطق الفصيح) . ويظهر ذلك خاصة فى المواضع التى كادت تختفى منها علامات الإعراب فى مستوى فصحى العصر . وأهم هذه المواضع ما يلى :

(ا) الأعلام الثلاثية أو الثنائية سواء كانت مسبوقة بألقاب التكريم أو لم تكن. مثال ذلك مما ورد فى البرنامج الإذاعى المشار إليه قول مقدم البرنامج :

« ومعنا صاحبُ الفضيلة الأستاذُ الشيخ / بدرُ عبدُ الباسط /

(ب) الأرقام .

(ح) أسماء البلاد والمدن .

وترجع أهمية ذكر الناطقين بهذا المستوى لعلامات الإعراب فى أسماء الأعلام إلى كونه أصبح خاصة مميزة لهم . ومما يدل على اختصاصهم تقريباً بهذه الميزة أن المجمع

اللغوى رأى – بعد أن اختفى الإعراب كلية أو كاد فى استعمال الغالبية العظمى من أسماء الإعلام الثلاثية – رأى أن يترخص فيجيز للناطقين بالفصحى أن يسقطوا علامات الإعراب فى الوصل من أواخر الإعلام الثلاثية . وقد جاء قراره هذا بعد مناقشات استمرت عامين ودارت فى جلسات متتالية من دورات المجلس . وجاء نص القرار كما يلى :

« يجوز الوقوف بالسكون عند تتابع الأعلام فى مثل « سافر محمد على حسن » مع حذف « ابن » تيسيراً على القراء والكتاب ، وتخلصاً من صعوبة الإعراب . »[1]

ولكى تتضح نوعية اللغة التى تستخدم فى ذلك المستوى نقدم نموذجاً لها من التسجيلات التى تمت للبرامج الدينية بالإذاعة . ويلاحظ فيها وإن كان ذلك غير ظاهر فى الكتابة بالطبع – تميزها بطول أصوات المد ، والقلقة ، والإدغام ، والاستمساك بالإعراب ، وإخراج الأصوات من مخارجها الموصوفة فى كتب الأقدمين وخاصة الأصوات الأسنانية والحلقية ، إلى آخر الأوصاف التى ذكرناها .

وتمثل القطعة التالية إحدى حلقات برنامج « رأى الدين » . والمقدم والضيف من علماء الأزهر الشريف . ونلاحظ فيها على الأخص ألف الإثنين فى مثل « ولا يحل لهما أن يختليا أو يتلامسا أو يتناجيا . . . » فقد أعطاها المتكلم فى كل المواضع حقها من الطول كما تقرره قواعد القراءات ، ولم يقصّرها كما هو المتبع فى النطق بفصحى العصر الآن :

مقدم البرنامج : « بسم الله الرحمن الرحيم / أيها السادةُ والسيدات / سلامُ الله عليكم ورحمتُه وبركاته / وبعدُ فإحدى الفتيات / بعثت إلينا تقول : / رأيتُ خطيبَ أختى يقبلُها / وهو لم يَعْقِد عليها / فلما استنكرتُ هذا / قالا لى : / إنه لا شىء فى ذلك . / فهل للخطيب هذا الحق أثناء الخطبة ؟ / ويسأل نفسَ السؤال الفتاةُ محاسن سيد / ومعنا صاحبُ الفضيلةِ الأستاذُ الشيخ / بدرُ عبدُ الباسط / نعرضُ على سيادتِه هذا السؤال . /

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٠ صفحة ١١٠ وما بعدها .

الضيف : بسم الله الرحمن الرحيم / الحمد لله رب العالمين / والصلاة والسلام على أشرف المرسلين / سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . / أما بعد / فإن الله سبحانه وتعالى شرع للخاطب الحق فى رؤية مخطوبته فقط / حتى لاينفر منها عند الزفاف / وحتى تكون مألوفة له . / والخطبة لاتثبت أى حق للخاطب قبل خطيبته / ولا للمخطوبة قبل خاطبها . / ولا يحل لهما أن يختليا ، أو يتلامسا ، أو يتناجيا ، فضلا عن القبلة . /

وإن على أهل الخطيبة ألا يمكنوا الخاطب من الاختلاء بخطيبته / فكم من مأساة وقعت بسبب هذا التهاون / الذى يدعو إليه بعض الكتاب وبعض القصاصين / الذين استقوا ثقافتهم من معين غير معيننا .

والقول بأن مدة الخطبة / ليختبر الخاطب خطيبته / والخطيبة خاطبها / قول بعيد عن الحق والصواب . / فإن هذه الفترة / كما هو الواقع / فترة مداراة ورياء ينافق كل منهما الآخر / حتى إذا تم الزواج / كانت المعاملة على غير ما اعتاده كل منهما من الآخر / فى زمن الخطبة . /

وليعلم الجميع / أن الخطبة لاتعطى أى واحد من الخاطبين حقًّا / إلا أن الخاطب أولى من غيره / فلا يحل لمسلم أن يخطب على خطبة أخيه / أدبنا الله بأدب الإسلام / بمنه وكرمه / والسلام عليكم ورحمة الله . /

مقدم البرنامج : شكراً ، شكراً / وإلى اللقاء غداً إن شاء الله / والسلام عليكم ورحمة الله . /

٢ – الصفات اللغوية التى تميز فصحى العصر :

فصحى العصر هى السجل المكتوب لعلوم العصر الحديث ومعارفه . وقد يبقى هذا السجل مكتوباً ، وقد يقرأ جهرة ، وقد يحاول القلة – بشىء من النجاح أحياناً – أن يرتجلوا مثل المكتوب فى مستواه اللغوى وفى التزامه بالقوانين التى يجرى عليها .

وتتنوع الموضوعات التى تتناولها فصحى العصر بتنوع حضارة المجتمع ومعارفه : فهناك العلم بفروعه من طب ، وحيوان ، وهندسة وكيمياء وطبيعة ، وزراعة ، وفلك ... إلخ .

وهناك الفن من موسيقى ، ونحت ، ورسم ، وتصوير ، وزخرفة ... إلخ . وهناك الدراسات الإنسانية من تاريخ ، وجغرافيا ، وأجناس واجتماع ، ولغات ، واقتصاد ، وسياسة . . . إلخ . وهناك الأدب من شعر ، وقصص ، وروايات ، ومسرحيات ، ورحلات . . . إلخ . وهناك الصحافة بموضوعاتها المختلفة من أخبار داخلية وخارجية وسياسية ووفيات وإعلانات وفقد أختام . . . إلخ . وهناك الإذاعة ببرامجها المتنوعة تنوع المجتمع نفسه .

ولهذا السبب تتمثل فى فصحى العصر جهود المجتمع فى اللحاق بغيره من المجتمعات التى سبقته وجهوده فى تطويع الأفكار الجديدة لبنية اللغة ومفرداتها . وهذا هو السبب أيضاً فى أنه على الرغم من أن فصحى التراث أعلى درجة من حيث ما يسمى بالصحة اللغوية من فصحى العصر . فإن الأخيرة أبعد منها متناولا وأشد منها مراساً وخاصة فى مجال النطق والارتجال . فالتكلم الشفاهى بفصحى التراث أسهل على متقنها من التكلم الشفاهى بفصحى العصر على متقنها . ذلك أن الموضوعات التى تعبر عنها فصحى التراث فى الوقت الحاضر موضوعات قليلة العمق محدودة التنوع مما لا يتطلب كثيراً من تركيز الانتباه أثناء الكلام . فيستطيع المتكلم أن يمنح جانب الصحة اللغوية بعض انتباهه دون أن تضيع منه خيوط الفكرة . أما فى فصحى العصر فإن غنى الموضوع وعمقه وسعة الأفكار وتنوعها تستدعى تركيز الانتباه عليه بقدر لا يترك للمرتجل ولمن لا يقرأ من ورقة مكتوبة فرصة التفكير فى الصحة اللغوية وخاصة علامات الإعراب .

نتيجة أخرى لتنوع الموضوعات التى تتناولها فصحى العصر واختلاف الميادين التى تعبر عنها هى : التشعب اللغوى لهذا المستوى وموازاته بنائياً لهذه الموضوعات المتنوعة . وهذا شىء طبيعى . فلغة كتاب عن « الخلية » مثلا لابد وأن يكون فيها اختلاف عن لغة كتاب عن « نقد الشعر » وهكذا . ومع ذلك فإن الأسس التى يقوم عليها هذا البحث فى تحديده لمعنى المستوى اللغوى كما تقدم شرحه (ص ٥١ – ٥٣) لا تسمح لنا باعتبار هذه الخلافات أسساً كافية لتخصيص كل من الموضوعات السابقة بلغة أو حتى مستوى مستقل كما اقترح بعض الباحثين [١] .

(١) انظر فاروق شوشة . المرجع السابق . وعلى كل حال فالخلاف هنا لا يرجع إلى حقيقة الاعتراف بوجود الظاهرة اللغوية بل إلى طريقة تصنيفها ، كما سيتضح فى ص ١٣١–١٣٣ من هذا الكتاب .

فهناك قدر مشترك من الثقافة العصرية بين أصحاب الفروع المختلفة من المعرفة يخلق بينهم قدراً من الاشتراك فى طريقة التفكير العامة ، وفى تناول الأشياء . وينعكس ذلك على الطريقة التى يعرضون بها موضوعاتهم وبالتالى على اللغة التى يكتبون بها . ويكفى أن نستعرض بعض النماذج التى اختيرت بطريقة عفوية من بعض ما وقع عليه النظر من كتب فى فروع العلم المختلفة لنرى مدى التشابه بينها لا فى طريقة العرض فقط بل وفى بنية الجملة من الناحية اللغوية أيضاً :

١ – النموذج الأول :

ويتناول التفريق بين الكشف الصوفى والاستدلال العقلى :

« ومرتبة الذوق أو المشاهدة أو الكشف الصوفى ، هى مرتبة الصديقين . أما مرتبة الاستدلال العقلى فهى مرتبة الراسخين فى العلم . وقد فسر الغزالى المشاهدة بأنها نور يقذف فى النفس فيظهر معه كل شىء .. وهذا النور من الوضوح والجلاء بحيث إنه يخفى لشدة جلائه ، وقد لا يفطن إليه العارف نفسه لإشراف حيائه . وأيا كان الأمر فإن نسبة الذوق أو المشاهدة إلى الاستدلال العقلى هى ، فى رأى الغزالى ، نسبة الروح القدسى النبوى إلى الروح العقلى والروح الفكرى . ويريد بالروح العقلى الملكة التى يدرك بها الإنسان المعانى الضرورية البديهية ، وبالروح الفكرى الملكة التى يمكن بها الاستدلال من صحة حكم على صحة حكم آخر . أما الروح النبوى القدسى فهو الذى يختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة »[١] .

٢ – النموذج الثانى :

مأخوذ من تحديد « للمكان » من وجهة نظر النسبية .

« أن المكان متصل ثلاثى الأبعاد ، ونعنى بهذا أننا نستطيع أن نحدد موضع النقطة الساكنة بوساطة ثلاثة أعداد (إحداثيات) س . ص . ش . وأن هناك عدداً لا نهائياً من النقط المتجاورة يحدد موضع أى منها الإحداثيات س' . ص' . ش' . يمكن أن تكون قريبة بأية درجة نختارها إلى الإحداثيات س . ص . ش . الخاصة بالنقط

(١) د . محمود قاسم « دراسات فى الفلسفة الإسلامية » ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٠ .

الأولى ولهذا السبب نسميها المتصل . ونظراً لأن له إحداثيات ثلاثاً فإننا نقول عنه إنه ثلاثى الأبعاد[١] .

٣ – النموذج الثالث :

يتحدث عن مفهوم الشعر من وجهة نظر الرومانتيكية

« إن الشعر من وجهة النظر الرومانتيكية لا يقتصر مفهومه على التعبير عن العواطف ، وإنما يتجاوز ذلك إلى شىء آخر هو توصيل هذه العواطف المعبر عنها إلى نفوس القراء والسامعين على نحو يثير لدى هؤلا المتلقين للشعر عواطف شبيهة بالعواطف التى يوصلها إليهم هذا الشعر »[٢] .

٤ – النموذج الرابع :

يتحدث عن طرق التزاوج بين الحشرات :

« والقاعدة فى الحشرات كمعظم الحيوانات هى أن الذكر هو الجنس النشيط الذى يبحث عن شريكه . ولكن هناك بعض الأمثلة القليلة تقوم فيها الأنثى بالبحث عن الذكر . ومن الأمثلة المعروفة الفراشة الشبح (هيبالس هيوميولى) . فى هذه الحالة يكون لون الذكر الأبيض اللامع هو الذى يدل عن وجوده عند ما يكون محلقاً بأجنحته المهتزة بسرعة . وينشر بهذه الطريقة رائحة تساعد أيضاً فى هدى الأنثى عندما تكون طائرة بين الحشائش للبحث عنه »[٣] .

٥ – النموذج الخامس :

من نقد لقصيدة للبازنى كتبها فى محادثة بينه وبين طفل :

« أمر هذا الطفل يحتاج إلى نظر . لنقرأ القصيدة قراءة حرفية . هناك جزء من الجدل القوى بينه وبين صوت الشاعر . هذا الجدل الذى يكون بين متناظرين

(١) ألبرت اينشتين : «النسبية » ترجمة د . رمسيس شحاته ، القاهرة ١٩٦٥ ص : ٥٥ .
(٢) د . محمود الربيعى « فى نقد الشعر » القاهرة ١٩٦٨ ، ص : ١٣٨ .
(٣) د . أمز « حياة الحشرات » ترجمة د . سميرة الزيادى . القاهرة ١٩٦٣ ص : ٢٧١ .

متكافئين . بل ربمان يكون الطفل أقوى من الوالد إلى حد ما . الوالد يسأله سؤالا ما لا يستطيع أن يكظمه ، ولكنه لا يجد جواباً شافيا عن سؤاله . ويروح الطفل يهذى كل يوم . هذا الهذيان يأخذ فى الواقع شكل التحدى . الهذيان ضرب غريب من المعنى لا يحقق مفهوم الإجابة بطريقة مباشرة . ولكنه نوع من الرد القسوى لا يستهان به ... »[١] .

٦ – النموذج السادس :

من كتاب عن المعاجم العربية :

« وفى كتاب « أساس البلاغة » ظاهرة تستحق العناية ، فإن الغالبية من المواد التى أفردها بالذكر والشرح مستقلة ، ثلاثية الأصول ، وقل ما ذكره من مواد غير الثلاثى . بل يمكن إحصاء هذه المواد ومناقشتها ، وتبلغ نحو الثنتين وستين مادة رباعية ، ومادتين خماسيتين هما مادتا : ص ه ص ل ق / ع د ل ب »[٢] .

٧ – النموذج السابع :

فى وصف « الأسماك الرئوية »

« هى أسماك قديمة يرجع ظهورها إلى العصر الديفونى المتوسط . وهى تكوّن مع الأسماك المصلية الأجنحة طائفة تعرف بقمعية الأفواه . وقد انقرض معظم أنواع هذه الطائفة . ولا يمثل الأسماك الرئوية فى العصر الحالى إلا ثلاثة أجناس . ولا يقتصر تنفس هذه الأسماك على الخياشيم وحدها بل لها – إلى جانب ذلك – جهاز تنفس هوائى على شكل رئة لها دورة دموية خاصة »[٣] .

فبالرغم من اختلاف فروع المعرفة التى اختيرت منها النماذج السابقة فإننا لا نجد فرقاً كبيراً بين طريقة العرض فى أى منها ، كما أننا لا نجد فرقا كبيراً بينها فى بنية الجملة . فهى جميعاً تكاد تقتصر على استخدام الجملة الاسمية ذات المدلول المباشر . ولنقارن مثلا بين النصوص الخاصة بالتصوف والنسبية والحشرات والنقد الأدبى والأسماك .

(١) د . مصطفى ناصف « رمز الطفل – دراسة فى أدب المازنى » القاهرة ١٩٦٥ ص : ٣٠١ .
(٢) د . عبد السميع محمد أحمد « المعاجم العربية »، القاهرة ١٩٦٩ ، ص : ١٤١ .
(٣) د . حسين فرح زين الدين « أطلس أسماك نهر النيل» القاهرة بدون تاريخ ص ١٧ .

فنحن نلاحظ أنها – على اختلاف الموضوع – تتشابه فى استخدام عبارات بسيطة فى تركيبها البنائى . مباشرة فى مدلولها ، مع تسلسلها فى الأفكار وأيضاً فى ارتباط كل فكرة بما قبلها ارتباطاً مباشراً .

– **مرتبة اللوق** أو المشاهدة أو الكشف الصوفى هى **مرتبة الصديقين** .

– **إن المكان متصل ثلاثى الأبعاد .**

– **القاعدة فى الحشرات** – كمعظم الحيوانات – **هى أن الذكر هو الجنس النشيط الذى يبحث عن شريكة .**

– **أمر هذا الطفل يحتاج إلى نظر .**

– **الأسماك الرئوية هى أسماك قديمة يرجع ظهورها إلى العصر الديفونى المتوسط .**

وحتى النص رقم ٣ الذى يتناول موضوعاً معقداً هو تعريف الشعر من وجهة نظر الرومانتيكية – هذا النص ليس فيه من الصفات اللغوية البنائية ما يؤهله لأن يفرد فى مستوى خاص . حقيقة قد نجد نصوصاً فى فروع متشابهة من المعرفة ولكتاب آخرين (خلاف الذين سألتنا الصدفة المحضة – كما قررنا سابقاً – إلى الاقتباس من لغتهم) ممن يكتبون لغة معقدة أو ليست بمثل التسلسل أو الوضوح الذى عرضناه هنا . ولكن ذلك لا يضعف – أو لا ينبغى أن يضعف – القضية التى نحاول البرهنة عليها . فوجود مثل الأعمال التى اقتبسنا منها النصوص السابقة وتشابهها بهذا القدر من شأنه أن يضعف أية محاولة للاعتراف بقيام لغة خاصة – أو حتى مستوى لغوى مستقل – لكل فرع من فروع المعرفة .

نعم هناك ملامح خاصة بلغة كل فرع من فروع المعرفة تتمثل فى اختصاص كل واحد منها بمجموعة من الاصطلاحات والاستعمالات التى لا يشركه فيها فرع آخر : « فالمشاهدة » فى النص الأول ، « والإحداثيات » فى النص الثانى و « المواد » فى النص السادس « والمصلبة » فى النص السابع كلها أمثلة لهذه الاصطلاحات التى لا ينبغى أن تنقل خارج هذه الفروع أو تخلط بما قد يتفق مع بعضها فى الحروف من مصطلحات فرع آخر . فوجود لفظ مثل « المشاهدة » فى نموذج من النوع الرابع أى علم الحشرات لا يعنى تشابه فى المدلول مع مصطلح « المشاهدة » فى نموذج

من النوع الأول أى التصوف . ولكن هذه الخلافات هى فى النهاية خلافات فى الألفاظ ومتى تم شرح مدلول كل لفظ منها زال الغموض عن النص الذى توجد فيه .

ومع ذلك فينبغى تحقيقاً للتفريق بينها ولتصنيفها أن نقسم فصحى العصر إلى أقسام متعددة بتعدد فروع المعرفة التى تعبر عنها ، نطلق عليها اسم « الأنماط » فيكون عندنا نمط علمى ، ونمط موسيقى ، ونمط لغوى ، ونمط فلسفى ، ونمط تجارى ، ونمط سياسى ... إلخ . وبتلك الطريقة نتمكن من أن نجرى الإحصائيات الخاصة بحصر مصطلحات كل نمط وعمل قوائم بالألفاظ الشائعة فيه بحيث نستطيع اتخاذها أساساً للدراسات متقدمة من أنواع مختلفة .

جانب آخر من جوانب فصحى العصر لم تتناوله الملاحظات السابقة هو الجانب المنطوق . ويتمثل فى بعض المحاضرات والخطب التى تلقى فى مناسبات خاصة . والخلاف الذى يظهر على الصعيد المنطوق بين المتكلمين ومن موضوع إلى موضوع أشد وضوحاً من نظيره على الصعيد الكتابى . ذلك أنه فى حالة المنطوق لا توجد فرصة للمراجعة والتصحيح . كما هو الحال فى الكتابة ، كما أن التشكيل – فى حالة القراءة من ورقة معدة – لا يستخدم عادة مما يسمح للقدرة الشخصية ودرجة إتقان اللغة أن تظهر بوضوح . وحتى فى الحالات القليلة التى يستخدم فيها التشكيل ، فإن فى الصفات الأخرى التى لا يحكمها التشكيل مثل مخارج الأصوات ما يكفى للتفريق بين شخص وآخر .

وبرامج الإذاعة التى تستخدم « فصحى العصر » وسيلة للتعبير ، تتدرج تنازليا بناء على درجة إتقانها وقربها من « المثال » الذى أقامته نظم التعليم للفصحى فى الوقت الحاضر .

وبالإضافة إلى **درجة التعليم** التى أشرنا إليها سابقاً **فهناك عوامل إضافية تحكم** هذا التدرج **اللغوى** فى برامج الإذاعة التى تستخدم الفصحى . **فمن هذه العوامل الموضوع نفسه** : فبرنامج عن الفصحى مثل « لغتنا الجميلة » يكون مستواه اللغوى أعلى من برنامج عن « طرائف حول العالم » يذاع فى « ركن المرأة » . ومن هذه

العوامل « شخصية الإذاعة » نفسها (البرنامج العام ، صوت العرب ، الشرق الأوسط ، إذاعة الشعب . . . إلخ) : فموضوع عن اللغة الفصحى فى البرنامج العام مثل « لغتنا الجميلة » يكون عادة أقرب إلى « المثال الفصيح » من موضوع مشابه فى إذاعة الشرق الأوسط مثل « أبجد هوز » .

عامل آخر له أهميته فى الوقت الحاضر ، هو جنس المتكلم : فالنساء بصفة عامة أقل قدرة على تحقيق « المثال » الفصيح من الرجال فى ظروف مشابهة . وهذا هو ما نلاحظه فى البرامج التى يقدمها مذيع ومذيعة يقرآن من ورقة معدة مثل برنامج « بمناسبة ومن غير مناسبة » .

ومع ذلك وعلى الرغم من هذا التدرج فى « الصحة اللغوية » فهناك قدر مشترك من الصفات بين كل هذه الدرجات من الفصحى . هذا القدر المشترك هو الذى يضم بينها ويجمعها كأمثلة أو أنماط لمستوى واحد . ونحن فى دراساتنا لهذا المستوى نهدف إلى استخلاص هذا القدر المشترك من الصفات لاستخدامه كأساس لتعيين حدود هذا المستوى وفصله عن غيره من المستويات الأخرى .

ولما كان مستوى فصحى العصر بأنماطه المذكورة (من فلسفية وعلمية وتجارية وفنية . إلخ) يتلوفى ترتيبه تنازليًا (من حيث علاقته « بالمثال » الذى توارثناه عن القدماء) مستوى فصحى التراث ، فسنذكر من صفاته ما يميزه عن المستوى السابق عليه ، أى ما يؤهله لأن يكون مستوى منفصلا عنه . ولكننا قبل أن نفعل ذلك نرى من الضرورى أن نميز بين نوعين من الفروق التى تلاحظ بين طريقة استخدام فصحى التراث وطريقة استخدام فصحى العصر :

الأول : نوع من صفات فصحى العصر يميزها عن فصحى التراث ولكنه يعد من قبيل الخطأ فى المستويين بإجماع الآراء ولا نجد له قبولا فى الاستعمال إلى الآن .

الثانى : نوع من صفات فصحى العصر يميزها عن فصحى التراث ، ويعتبر خطأ فى فصحى التراث ، ولكنه فقد صفة الخطأ فى مستواه ، أى فى مستوى فصحى العصر ، بحيث أصبح لا يهتم بتصحيحه أحد ، بل لا يفكر أحد فى أنه خطأ فى أصله .

فمثال النوع الأول : الخطأ فى الإعراب . فعلى الرغم من كثرته وشيوعه فى فصحى العصر إلا أنه لا يزال يعد من قبيل الخطأ . يحاول تفاديه كل مستخدم للفصحى مهما بلغت درجته من الثقافة . كما يلاحظه العارفون به ، ويصححونه كلما سنحت الفرصة وفى أى مستوى كان .

ومثال النوع الثانى : نطق الأرقام فى نشرات الأخبار أو فى غيرها من المناسبات التى ينطق فيها بالفصحى المعاصرة . فرقم ١٨٨ مثلا ينطبق عادة « مية تمنية وتمنين » دون أن يصحح هذا النطق ، بل ودون أن يفكر فى تصحيح هذا النطق — كثيرون .

فالنوع الأول ، وهو ما يعد من قبيل الخطأ فى المستويين لا يعتبر صفة مميزة لمستوى فصحى العصر على الرغم من انتشاره لأنه خطأ لم تنتف عنه صفة الخطأ ، ولذلك فلن نذكر منه شيئاً هنا .

أما النوع الثانى ، فعلى الرغم من أنه يعد خطأ فى المستوى الأول وهو فصحى التراث ، إلا أنه لابد وأن يعد من قبيل « الصواب » فى المستوى الثانى وهو فصحى العصر مادام يلقى قبولا من السامعين وما دام لا يسبب ما يسببه الخطأ الباقى على صفته الأصلية من رد فعل بين السامعين .

هذا النوع الثانى من الصفات هو الذى يعد حقيقة من المميزات الخاصة بفصحى العصر وهو بهذا الاعتبار ما يصلح أساساً للتفرقة بينها وبين الفصحى الأخرى .

على أن الفروق الموجودة بين فصحى التراث وفصحى العصر لا ترقى جميعها إلى درجة الصواب القاطع أو الخطأ القاطع كما هو الحال فى مثال قراءة الأرقام المذكور . فهناك أنواع أخرى من الفروق تمثل اتجاهاً عاما فى الاستخدام يميز مستوى عن مستوى دون أن يكون خطأ فى واحد وصواباً فى غيره .

مثال ذلك ما ذكرناه سابقاً[1] من اختلاف المستويين الأول والثانى فى درجة استخدامهما للجملة الفعلية والجملة الاسمية . مثل هذا الفرق يعد أيضاً من الصفات المميزة وخاصة إذا كان جزءاً من اتجاه عام يتدرج فى كل المستويات ويسلكها معاً فى إطار واحد كما هو الحال بالنسبة للمثال المذكور — على ما سيأتى بيانه فى مكانه المناسب .

(١) أنظر ص ١٠١ — ١٠٣ من هذا الكتاب .

أما الصفات اللغوية التى يمكن أن نستخدمها فى تعريفنا بفصحى العصر فبيانها كالآتى :

١ – الأصوات :

يبدأ فى هذا المستوى تحول الأصوات وتغير صفاتها بدرجة ملحوظة نحو أشكالها العامية . وذلك على النحو التالى :

ففى السواكن :

١ – الأصوات الأسنانية : ث / ذ / ظ ← س / ز / ط :

تنطق الأصوات الأسنانية فى هذا المستوى من غير مخرجها الذى وصفناه فى المستوى السابق ، دون أن يعنى أحد بتصحيح هذا النطق عنايته بتصحيح الخطأ فى استخدام علامات الإعراب . فصوت الثاء ينطق بنفس صفات صوت السين ويشتبه به ، وصوت الذال ينطق بنفس صفات صوت الزاى ويشتبه به ، كما أن صوت الظاء ينطق من مخرج صوت الزاى ولكن مع تفخيم فيه أى زاى غليظة أو مفخمة كما يقول الاصطلاح . (وقد اخترنا لها رمز الظاء بنقطتين فوقه) .

على أن هناك بعض المثقفين – وخاصة من قارئى الأخبار فى الإذاعة والتليفزيون – يحاولون أن يلتزموا نطق الأصوات الأسنانية من مثل المخارج التى كانت لها ولكنهم قلة على كل حال .

٢ – صوت ج :

صوت الجيم هنا هو أشد الأصوات تدهوراً . فهو يختلف عن غيره من صفات فصحى التراث فى أنه لا يتدرج فى صفاته مع مستوى إلى آخر ، بل ينتقل انتقالا فجائيا من كونه صوتا معطشا (أى مركبا) فى فصحى التراث إلى كونه صوتا انفجاريا عاميا فى فصحى العصر . فهو يبلغ قاع التطور من أول نقلة فى المستوى الثانى ويبقى على ذلك فى باقى المستويات . (أى فى مجتمع القاهرة . وإلا فإنه يأخذ صوراً أخرى فى أماكن أخرى) .

ومن الملاحظ أن الكثيرين ممن يحسنون النطق بالصوت المعطش « يستحون » من النطق به ، لما قد يتهمون به من « التكلف » . فالإذاعى المعروف فاروق شوشة لا ينطق بذلك الصوت معطشاً فى برنامجه المتخصص عن الفصحى « لغتنا الجميلة » . كما أن الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، الإذاعى القديم ، فى إحدى حلقات « أبجد هوز » التى استضيف فيها . كان ينطق صوت الجيم مرة بالتعطيش ومرة أخرى بدونه . والمصريون المثقفون ثقافة عصرية لا يستريحون عموماً إلى استخدام الجيم المعطشة ، مما يخلع عليها صفة « الخطأ » فى فصحى العصر .

٣ – الأصوات الخلفية : ق / خ / غ / ح / ع

يختلف نطق هذه الأصوات فى هذا المستوى عن نطقها فى المستوى السابق من ناحيتين :

الأولى المخرج – فهى تنطق من نقاط متقدمة قليلا نحو مقدمة الحنك عن النقاط التى تنطق منها فى فصحى التراث .

والثانية – شكل الشفتين مع هذه الأصوات . فالشفتان معها فى هذا المستوى لا تستديران خلافاً لما يحدث فى المستوى السابق .

هذا الخلاف الذى يتميز به نطق هذه الأصوات هنا يعطيها نوعاً من « الرقة » يختلف عن صفة « الغلظ » التى تطبعها فى فصحى التراث كما أنه يعتبر أول درجة من درجات التطور الذى يصيب هذه الأصوات تدريجيا من مستوى إلى مستوى . ومن الملاحظ أنه يوجد عموما طريقتان للنطق بهذه الأصوات . إحداهما وهى « الأرق » أو بعبارة اصطلاحية الأكثر تقدماً فى المخرج هى طريقة النطق عند النساء المثقفات . فهن يكدن ينطقن صوت القاف « نصف كاف »[1] على عكس النطق عند الرجال ، وإن كان الأخيرون لا يبلغون فى نطقهم مبلغ النطق الخلفى فى فصحى التراث .

---

(١) أنظر ص ١٨٠ – ١٨١ من هذا الكتاب .

٤ – الأصوات المفخمة : ط / ض / ص / ظ

تتأثر هذه الأصوات فى مستوى فصحى العصر بدرجات متفاوتة ، أدناها ما يحدث فى نطق غالبية المثقفين من الرجال لهذه الأصوات بدون تدوير الشفتين (على عكس ما يحدث فى فصحى التراث) وبتخفيف قليل لدرجة التفخيم . وأقصاها ما يحدث فى نطق بعض المثقفات من قليلات الحظ من الثقافة العربية عند ما ينطقن بصوتى « الطاء » و « الضاد » « تاء » و « دالا » على التوالى مع إبقاء الحركة المجاورة لهما مفخمة أو شبه مفخمة ، وأيضاً فى تخفيفهن لدرجة التفخيم فى صوتى « الصاد » و « الظاء » .

وهذا التغير فى درجة التفخيم وفى توزيع صفاته يحدث نتيجة لتأثير صفات العامية كما سنشرحها فى الموضع المناسب[1] . ولما كنا سنقدم أمثلة لصفة التفخيم فى فصحى العصر مع تحليل لتوزيعها مع النموذج الذى اقتبسناه فى نهاية هذا القسم فسنكتفى بهذا القدر هنا .

وفى الحركات :

يبدأ فى هذا المستوى تطور الحركات وخاصة فى أطوالها . فمن الصفات الواضحة التى يظهر فيها الفرق بين فصحى التراث وفصحى العصر أن الحركات فى الثانية أقصر من نظيراتها فى الأولى بصفة عامة . فكلمة مثل « ساعدوهم » لا تنطق فقط فى فصحى العصر بألف وواو مد أقصر من نطقها فى فصحى التراث بل أن ألف المد فيها تكون أقصر بكثير من واو المد فى نفس الكلمة .

وعلى الرغم من أن هذا هو الاتجاه العام فى هذا المستوى إلا أن الناطقين يختلفون بدرجة واضحة فى مدى استخدامهم لأصوات الحركة فيه ، فكلما كانت ثقافة الشخص العربية أعمق كلما زادت أطوال الحركات نسبياً فى نطقة وخاصة فى المواضع التى يختلف فيها النظام العامى عن النظام الفصيح .

ولا يتوقف الأمر على درجة ثقافة المتكلم فقط بل إن للموضوع دخلا فى التأثير

(١) أنظر أيضاً ص ١٨٢ – ١٨٣ من هذا البحث .

على أطوال الحركات أيضاً : فمع أن أطوال هذه الأصوات أكثر فى برنامج « لغتنا الجميلة » عنها فى برنامج « أبجد هوز » ، إلا أن أطوال الحركات فى برنامج لغتنا الجميلة تختلف نسبياً تبعاً لاختلاف موضوع الفقرة المقروءة ذاتها . فلو قارنا بين جملتين واردتين فى حلقة واحدة مثل :

(ا) إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا . (قرآن كريم)

(ب) يقول القاضى عبد الجبار فى تفسير ذلك .

لو قارنا بين هاتين العبارتين لوجدنا أن :

١ – مقادير الحركات فى الأولى أطول بكثير جداً عنها فى الثانية . والسبب واضح . فالأولى – وهى آية من القرآن – جزء من التراث فقراءتها أقرب إلى قراءة التراث . أما الثانية – وهى من كلام مقدم البرنامج نفسه – فهى من فصحى العصر ومجرد « وصلة » لكلام تال لها مما « يحرمها الحق » فى الحركات الطويلة التى للأولى . ولا يقتصر الأمر على القرآن بل يحظى بمثل هذه القراءة ذات الحركات الطويلة كل ما رقى فى موضوعه فى إحساس مقدم البرنامج كالشعر مثلا .

٢ – تنطق الفتحة المفخمة فى هذا المستوى دون أن تصاحبها ظاهرة تدوير الشفتين التى تصاحب نطق نظيرتها فى فصحى التراث .

٣ – كذلك تختفى هنا أيضاً ظاهرة القلقة التى وصفناها فيما سبق .

أما صفات الغنة والإدغام بغنة مما ذكرناه كصفات خاصة بفصحى التراث فإنها لا تظهر هنا بنفس القدر الذى تظهر به هناك ، وخاصة فى طول أو استمرار الغنة .

(ب) بنية الكلمات :

كما ذكرنا سابقاً لا يوجد كثير من نقاط الخلاف بين نظام بنية الكلمات فى فصحى العصر وفصحى التراث كما تنطق الآن . حقيقة يخطئ الكثيرون اليوم فى النطق بكثير من الكلمات نطقاً يتفق مع بنيتها المتوارثة كقولهم أكفاء بتشديد الفاء يقصدون

الشخص الكفء ، وقولهم المتوفى بكسر الفاء يقصدون المتوفى بفتحها . ويهتم برنامج « لغتنا الجميلة » بتقديم قوائم من مثل هذه الأخطاء مع ذكر تصحيحاتها طبقا للقواعد القديمة . ومع ذلك فمثل هذه الأخطاء — كما قلنا سابقاً — لا تشكل قاعدة لأنها تلقى من يصححها دائماً كما يحدث فى البرنامج المذكور .

أما النوع الآخر من « الأخطاء » وهو الذى صار قاعدة لا يصححها أحد فهو الذى نهتم به . فلم نسمع مقدم برنامج لغتنا الجميلة يقول فى قوائم تصحيحاته مثلا : ويقولون « ميه تمنية وتمنين » والصواب أن يقولوا : مائة وثمانية وثمانون إلخ.

أما نقاط المقارنة فهى تقابل ماذكرناه فى القسم السابق الخاص بفصحى التراث وهى :

١ — الإفراد وغيره :

يوجد فى هذا المستوى ثلاثة أنواع فقط من الصيغ للدلالة على التجمعات العددية هى :

صيغة المفرد	مثل	سيف
صيغة المثنى	مثل	سيفان
صيغة الجمع	مثل	سيوف أو أسياف

أما دلالة صيغ جمع القلة على ما بين الاثنين والعشرة فلم تعد ذات مغزى فى الاستعمال الحديث للفصحى .

٢ — نظام العدد :

ينهار نظام العدد بخصائصه المعروفة فى التراث وتختفى تماماً فى فصحى العصر . فسواء أنطق المذيع رقم ١٨٨٢ « ألف وثمانمائة واثنين وثمانين » أو نطقها — كما هو الأغلب « ألف تمنية اتنين وتمنين » فإن رد الفعل لدى السامعين سواء . لا أحد يلاحظ الفرق ، وحتى لو لاحظوه فإنهم لا يهتمون بالفرق . بل لا نغالى إذا قلنا إن الكثيرين قد لا يتلقون الصيغة الصحيحة تلقى الاستحسان .

وقد أقلق هذا الوضع أعضاء المجمع اللغوى ورأوا فيه خطراً على سلامة اللغة

فخصصوا « لمشكلة العدد » عدة جلسات وكتب فيها عدد من الأعضاء عدة أبحاث بهدف معالجة أسبابها . وقد ركزوا على جانب من المشكلة أو بعض أسباب تدهور النظام وهى الصعوبة التى تتمثل فى وجوب مخالفة العدد المعدود فيما بين الثلاثة والعشرة ومركباتها . وانتهت المناقشة — على طولها — بغير فائدة . وكل ما استطاعوا الاتفاق عليه هو « لفت نظر مستخدمى الفصحى إلى تركيب بديل يتقدم فيه المعدود على العدد وهو بهذه الصفة يجوز فيه المخالفة بين الاثنين والموافقة بينهما . فتقول :

رجال خمسة أو رجال خمس . . . إلخ[1]

ومع ذلك فإن المشكلة لم تحل ، ولا نتوقع لها حلا . فسقوط نظام العدد يرجع إلى أسباب كثيرة من بينها — وليس كلها — قاعدة المخالفة المذكورة .

(ح) بنية الجمل :

١ — للجملة فى هذا المستوى — كما أن لها فى المستوى السابق — نوعان من البنية : البنية الاسمية والبنية الفعلية . ولكن المستويين يختلفان مع ذلك من ناحية نسبة شيوع كل من نوعى الجملة إلى الآخر فيهما . فنحن نلاحظ فى فصحى العصر وجود اتجاه قوى إلى تفضيل الجملة الاسمية على الفعلية .

ويمكن أن نعزو هذا الاتجاه إلى مصدرين :

١ — المصدر الأول : المستويات العامية التى تكاد تقتصر فيها بنية الجملة على النمط الإسمى .

٢ — المصدر الثانى : اللغات الأجنبية . فنحن نلاحظ أن اللغة التى تستخدم فى ميادين ثقافية تتصل اتصالا قويًّا بأصول أو منابع أجنبية مثل الصحافة ومثل القوالب الأدبية الحديثة « كتيار الوعى » ، هذه اللغة يزداد فيها استخدام الجملة الإسمية أكثر من غيرها .

فالبرقيات التى لا تكف مفاتيح « التلكس » فى دور الصحف الكبرى عن دقها تترجم ترجمة مباشرة تتسبب فى صياغة الجملة العربية على نسق جملة اللغة المنقول

(١) مجلة المجمع اللغوى ج ١٥ ص ٦٨ — ٨٧

منها الخبر وهى الإنجليزية فى العادة . ولا يقتصر الأمر على البرقيات الخارجية فطبيعة العمل الصحفى ذاته — وهو بمعناه الحديث ، فن منقول عن الثقافات الغربية — طبيعة هذا العمل تقتضى نوعاً من اللغة يستوقف الانتباه عند صلب الخبر ، أو موضوع الخبر وهو العنصر الأسمى فى الجملة مما يستدعى تقديم هذا العنصر وخاصة فى الأخبار القصيرة . وخير مثال على هذا النوع ما يكتبه كمال الملاخ فى الصفحة الأخيرة من الأهرام . وقد قدمنا له بعض النماذج من قبل (ص ١٠٢) .

أما القوالب الأدبية والكتابية الغربية التى تؤثر أو من شأنها أن تؤثر على نسق الجملة العربية عند النقل إليها فإنها تأتى من ميادين عملية وفنية وأدبية متنوعة . وأوضح هذه القوالب وأشدها تأثيراً على نسق الجملة العربية ما اصطلح على تسميته « تيار الوعى » . والنموذج الآتى مختار بطريقة عفوية من رواية لواحد من الأدباء الشبان الذين يكتبون هذا القالب :

أنت عصام نفسه . . . هو لا غيره . . . ماذا بقى له بعد هذا . . . غاضب يحاول الهروب من ضيقه . . . الأرق . . . هناك مورد ثابت مكرر . . محل رتيب . لا . . . لا شىء . . . . شبع لا جوع . راحة لا قلق . جديد لا عتيق . صفحة جديدة تؤكد أنه هو لا هو كما يزعمون . الانتحار لقب مستقبلى . عمود سيء السمعه اسمه الندم . كان والدى يدعونى للبقاء أسبوعاً جديداً . مشاعر طيبه من أجل عادة قبيحة هى زواج ابنتهما الوحيدة . بقيت سجينة منزل واحد . الأوانى بجوارها . الغسيل موضوع فى النار الحارقة . . هى تقول له . يازوج ابنتى العزيز ، فيك وضعت ثقتى ، بانتظام كان يزورنا . . لا تزال شابة حية تعيش فى سجنها المنزلى مثل حيوان عزف عن كل الأطعمة لسبب مجهول إلا طعاماً من صنع هذا الحيوان الأليف . . فى البيت المجاور ذى الطوابق العديدة . . انضم طفل عار وطفلة عارية إلى حلقة واحدة . خلصنا جلدة الطفل المدلية من حق البنت . . بيوت الأزياء عرت الصدور . لا رخاء إلا بعرى الكل . وجود حى . أنت . . . أنت . . . بيوت عتيقة يحكمها جيل سابق . برود سابق لأوانه . خزعبلات . . . أى أرض هى لك . دون سواها . . . إلخ[1]

(١) محمود عوض عبد العال « سكرمر » الطبعة الأولى . القاهرة ص ١٠٩—١١٠ .

وارتباط هذا النوع من القوالب الأدبية بالجملة الإسمية هو ارتباط طبيعى فى الواقع . ذلك أن المؤلف فى مثل تلك الأعمال يتخلى عن الدور التقليدى الذى كان يقوم به المؤلفون عادة ، وهو دور المؤرخ الذى يحكى أحداثاً متتابعة انتهت قبل أن يمسك القارئ بالرواية ليقرأها . (وبذلك يتخلص القارئ) من الأسلوب السردى الذى لا يخلو عادة من تقريرية تبعث الملل إلى نفسه[1] . فتخلص الكاتب من حكاية الأحداث التى انتهت وتركه « الأسلوب السردى » فى تعبير الدكتور السكوت تعنى فى التعبير اللغوى تخلصه من « البنية الفعلية » وما يتركب منها . فحكاية الأحداث تعتمد أساساً على الفعل فى تركيباته المختلفة .

٢ — كذلك تختلف الجملة فى فصحى العصر عن جملة فصحى التراث فى عدم التزام الناطقين بها بعلامات الإعراب فالتسكين فى كل موضع هو طريق السلامة كما يقولون . وهذه الظاهرة — على العكس من الخطأ فى علامات الإعراب — تمر دون أن تثير اهتماما كبيراً أو تحدث انزعاجاً لأحد من متلقى الفصحى ، مما يعطيها درجة الصفة المميزة لهذا المستوى .

وبالطبع تختلف درجة التمسك بهذه العلامات من شخص إلى آخر ومن موضوع إلى موضوع ومن مناسبة إلى أخرى على ما شرحناه من قبل . ومع ذلك فهناك مواضع بنائية يكاد يتفق فيها الجميع على تسكين أواخر الكلمات وصلا ووقفا على حد سواء . هذه المواضع هى :

(١) الأعلام : من أحادية وثنائية وثلاثية . . إلخ ولم يسلم من هذا التسكين برنامج متخصص مثل « لغتنا الجميلة » فقد جاء فى إحدى حلقاته قول مقدمه « يقول القاضى عبد الجبار فى تفسير ذلك . . » بتسكين كل من عبد والجبار .

ويبدو أن تأصل ظاهرة تسكين الأعلام وتغلغلها فى استعمال المتخصصين أنفسهم قد حمل أعضاء المجمع اللغوى ، لا على محاولة إصلاح هذا العيب ، كما هو موقفهم بالنسبة لغيره من العيوب والأخطاء اللغوية الأخرى ، بل على الترخيص

(١) د . حمدى السكوت : ثورة فى التكنيك الروائى ، دراسة لرواية « سكر مر » منشورة كمقدمة لها ص ١٠ ، ١١ .

بهذا الوضع بل وتطويع قواعد اللغة له بعد أن تعذر تطويعه لقواعد اللغة . ويستلفت نظرى خاصة قول المرحوم الزيات فى عرض وجهة نظره التى أخذ المجمع بها فيما بعد :

« ومن واجب مجمع اللغة العربية ، وهو وحده المسئول عن سلامتها ورعايتها ، أن يطوع قواعدها لقبول هذا التركيب (يقصد تركيب « سافر محمد على حسن » بتسكين كل من هذه الأعلام وصلا) ولو بشىء من الإكراه . . . فالأمر — كما قلت — لا يعدو التماس وجه من الوجوه لتصويب تركيب اقتحم اللغة ... ولم يلبث أن تمكن وتحصن حتى أصبح طرده من الأمور المعضلة »[1] .

(ب) الأرقام : ولا يقتصر الأمر فى هذه الحالة على إسقاط علامات الإعراب وإحلال السكون محلها فى حالة الوصل ، بل إن صيغة الرقم الفصيحة تختفى تماماً وتحل محلها صيغته فى اللغة العامية : مثال ذلك قول مقدمة إحدى البرامج التى تستخدم « الفصحى » لغة لها :

« هل عدد الجمهوريات / خمسة ؟ / أو خمستاشر ؟ / أو تلاتة وعشرين ؟ /». وكما ذكرنا سابقاً كانت مشكلة العدد من المشاكل التى استنفدت من المجمعيين وقتاً وجهداً كبيرين ولكن بدون جدوى ودون أن يتوصلوا إلى قرار بشأنها على العكس من مشكلة الأعلام السابقة .

على أن ظاهرة إسقاط علامات الأعراب واحلال السكون محلها فى حالة الوصل تعنى أكثر من مجرد أسقاط العلامة . إنها تعنى إحداث تغيير جذرى فى الأصل الذى يقوم عليه تركيب الجملة فى اللغة العربية الفصحى . فعلامة الإعراب هى الظاهرة أو العرض الذى يهتدى به إلى حقيقة التركيب الداخلى للجملة ، وحقيقة الصلات التى تربط مكوناتها وأفرادها بعضها ببعض . واختفاء العلامة فى الفصحى بأساسها القديم يمكن أن يؤدى إلى حدوث واحد من أمرين

الأول : أن يحدث غموض فى حقيقة الصلات بين مكونات الجملة ، كما هو الحال إذا ما أسقطنا علامات الإعراب من مثل :

محمداً ضرب علىٌ

(١) من مقال للمرحوم أمين الخولى مجلة المجمع ج٢٠ ص ١٢١ .

لتصبح « محمدٌ ضرب علِى »

فإنه فى هذه الحالة لا يعرف الضارب من المضروب أى لا تعرف حقيقة الصلة بين الاسم الذى قبل الفعل والاسم الذى بعده أى بين محمد وعلى وهذا لا يمكن للغة حية أن تقبله أو تسكت عليه . ولم يحدث فى العربية على أية حال .

الثانى : — وهو ما حدث فعلا — أن تتخلى اللغة عن الأساس الذى يجعل من الإعراب ضرورة دلالية قصوى فى عملية الإفادة . أى تتخلى عن « حرية الكلمات داخل الجملة » وتلتزم بنظام ثابت تسلك فيه كلماتها مما يجعل من هذا الترتيب علامة على نوع العلاقة بين هذه الكلمات . وهذا الأساس التركيبى — أى ترتيب الكلمات داخل الجملة — هو الذى تقوم عليه اللغة العامية فى الإفادة ، مما مكنها من الاستغناء عن علامات الإعراب .

وبناء على ما ذكرناه فإن إسقاط علامات الإعراب فى الاستخدام المعاصر للفصحى ترتب عليه إحداث تغيير جوهرى فى بنية الجملة العربية . ذلك هو الاعتماد على ترتيب الكلمات « بدل الاعتماد على علامات الإعراب » فى فهم معانى الجمل . أو بعبارة أخرى يعنى ترك قواعد الفصحى وإحلال قواعد اللغة العامية محلها . فما نسميه بالفصحى الخالية من علامات الإعراب هو فى حقيقته لغة عامية تتخذ لنفسها بعض المظاهر الخارجية للفصحى .

وعلى ذلك فالشخص الذى يسكن الكلمات فى الوصل إنما يتكلم نوعاً من العامية لا نوعاً من الفصحى . ولا يمكن أن يعتبر صنيعه هذا مجرد تسهيل لا يضر بالفصحى كما يردد الكثيرون .

وقد ترتب على ظاهرة تسكين أواخر الكلمات فى الوصل اختفاء أنواع الأبنية التى تعتبر علامات الإعراب فيها ضرورة حيوية لبيان المعنى مثل تقدم المفعول على الفاعل وتقدم خبر « إن » أو « كان » على إسميهما إلخ .

نموذج مسجل من الإذاعة لفصحى العصر

نظراً لتنوع موضوعات البرامج التى تتخذ الفصحى لغة لها ، ونظراً لاختلاف درجات الإتقان بين مقدمى هذه البرامج فمن العسير جداً اختيار نموذج واحد يمثل

لغة هذا المستوى تمثيلا كاملا من النواحى الصوتية . لهذا فقد اخترنا نموذجاً نعتقد أن لغته تقع فى درجة متوسطة بين الأنماط اللغوية لهـذا المستوى ، مع اعترافنا بوجود برامج أعلى منه لغة مثل برنامج « لغتنا الجميلة » وبرامج أقل منه فى خصائصها بكثير .

والبرنامج الذى اخترنا منه النموذج التالى يذاع — أو كان يذاع — تحت عنوان « تسالى » . وقبل أن نقدم النموذج نود أن نشير إلى صعوبة أخرى هنا وهى تعذر تقديم صورة دقيقة بالحروف العادية للخصائص الصوتية للغة وخاصة للقارئ غير المتخصص فى الدراسات اللغوية . ولهذا فسنحاول بقدر الإمكان أن نعطى وصفاً تقريبيا لأهم الصفات التى نرى من الضرورى الإشارة إليها مع ترك الباقى لمعلومات القارئ الخاصة وخبرته بمثل هذه البرامج .

يتولى تقديم البرنامج مذيع ومذيعة يقرآن بالتبادل . وكما هو الشأن فى مثل هذه الأحوال نلاحظ أن لغة المذيع أعلى مستوى فى خصائصها الفصحى من لغة زميلته . أو بعبارة أخرى نلاحظ أن لغة المذيعة أكثر معاصرة من لغة زميلها . أما الخصائص اللغوية التى نود أن نلفت إليها الأنظار والتى نريد أن نلاحظها عنـد قراءة النموذج فهى :

١ — اختلاف توزيع صفات التفخيم داخل الكلمة فى هذا المستوى عن نظيره فى مستوى فصحى التراث . فكلمة « الفضاء » (وهى واردة فى النموذج) تختلف صوتيا عن كلمة الفداء (بفتح الفاء وتطلق على جنس الطعام كالبر والشعير)[1] فى فصحى التراث بوجود التفخيم فى صوت الضاد وألف المد التى تليها فى كلمة الفضاء ، ووجود الترقيق فى صوتى الدال وألف المد التى تليها فى كلمة الفداء . وانسحاب صفة التفخيم على صوت العلة التالى ظاهرة عامة فى الفصحى القديمة . أما فى النموذج الذى معنا فنحن نلاحظ ظاهرة هامة جداً تختص بها العامية المصرية وهى عدم وجود التلازم فى صفة التفخيم بين أصوات التفخيم الشديدة (الطاء والضاد) وأصوات العلة التى تليها ، على عكس الحال فى فصحى التراث .

(١) لسان العرب ج ٢٠ ص ٩ طبعة بولاق (النسخة المصورة) .

فصوت الضاد فى كلمة « الفضاء » هنا قد فقد تفخيمه تماماً ، ومع ذلك لم تشتبه الكلمة أبداً بكلمة « الفداء » نظراً لبقاء بعض التفخيم فى صوت المد فى الكلمة الأولى ، وهو قدر يكفى للتفريق بين الكلمتين . وقد اقتصر هذا النقل فى حلقات التفخيم على الأصوات الشديدة فقط . أما الأصوات المفخمة الرخوة (الصاد والظاء) فقد بقى التفخيم فيها وفى أصوات اللين التالية لها ، وإن كانت درجة التفخيم فيها تقل عن درجة التفخيم فى نظيراتها فى فصحى التراث .

٢ — ترقيق الراء بدرجة كبيرة وترقيق الحركة التى بعدها كذلك . والسبب فى اختلاف هذه الحالة عن الحالة السابقة هو عدم وجود تقابل بين صوت « راء » مفخمة وأخرى مرققة بنفس الطريقة الموجودة بين أصوات الضاد والدال والظاء والتاء ... إلخ .

٣ — عدم تعطيش الجيم . فهى فى النص انفجارية تماماً ، بل إنها فى الواقع يمكن أن توصف بأنها صوت قاف مجهورة .

٤ — نلاحظ — خلافاً للصفات العامة التى ذكرناها لهذا المستوى — أن المذيعين يلتزمان « بإخراج اللسان فى أصوات الظاء والذال والثاء » ويبدو أن نظام التدريب الصوتى بالإذاعة يعنى بهذه الظاهرة عناية خاصة .

٥ — تسكين أواخر الغالبية من الكلمات فى حالة الوصل .

٦ — الأرقام تنطق بصيغها العامية وكذلك الأعلام .

أما النموذج فهو كالآتى :

مذيع — عزيزى المستمعْ / مساءِ الخير .

مذيعة — مَنْ هو أولْ رَقْلْ (رجل) / سارّ فى الفداءْ (الفضاء) ؟

مذيع — الحلّ الصحيحْ / بيْن هؤلاءِ الثلاثة / :

مذيعة — جون جلين ، /

مذيع — لكسى لينوف ، /

مذيعة – فيرجيل جريسو . /

مذيع – صديقى المستمع / ما هُوَ عدد القمهوريات (الجمهوريات) التى يتكونُ منها الاتحاد السوفيتى ؟

مذيعة – هل عددِ القمهوريات (الجمهوريات) / خمسة ؟ / أوخستاشر / أو تلاتة وعشرين ؟ /

مذيع – فى آخرْ هذه الحلقة / سوف نقدّم لك الإجابة / على هذين السؤالين /.

مذيعة – ابتسمْ / من فدلك (فضلك) . / وقفتْ / المهندسة المتازة فى عملها أمامَ مديرِ المصنعْ ، وتلبت (طلبت) بزيادة مرتبها / فابتسمَ مدير المصنع وقال لها فى هدوء /

مذيع – إن مربلش اليوم / أعلى من مرتب / زميلك المهندس / مع أنه / له خمسة أولاد / ومع ذلك / لم يطلب زيادة مرتبه /

مذيعة – فقالت المهندسة / لقدكنت أظن / أن مرتباتنا / تدفع لنا / من أجل إنتاجنا العملى فى هذا المصنع / لا من أجل إنتاجنا فى المنزل .

٣ – الصفات اللغوية التى تميز عامية المثقفين :

هذا هو المستوى الذى يصل فيه تدهور صفات الفصحى التقليدية إلى حد يصبح معه من غير الممكن أن يبقى داخل حدود – أو من بين درجات – العربية الفصحى . وفى الواقع أننا لو قارنا بين نماذج من أدنى مستوى من « فصحى العصر » ونماذج مشابهة من أعلى مستوى من « عامية المثقفين » ، أى فى النقطة التى يلتقى فيها المستويان – لو أجرينا مثل هذه المقارنة لوجدنا أن الفرق بينهما فى تلك النقطة لا يتعدى وجود صفات محدودة ترجع إما إلى مستوى الفصحى واما إلى مستوى العامية . وعلى أساس استخدام الواحدة دون الأخرى تتحدد تبعية النموذج نفسه إما للفصحى أو للعامية . وهذه الظاهرة (ظاهرة التدرج فى الصفات) هى التى اتخذها الأستاذ الحكيم أساساً

فيما أسماه « إيجاد » لغة ثالثة . ويضرب الأستاذ الحكيم مثالا على ذلك بعبارة « الأرباح دى تم توزيعها بالنسبة لأغلب العمال » فى مقابل « هذه الأرباح تم توزيعها بالنسبة لأغلب العمال » ويقول أن الفارق الذى يضع الأولى داخل نطاق العامية هو استعمال الدال بدلا من الذال فى « دى » وتأخرها عن الأرباح . فاستعمال « دى » كما لاحظ الأستاذ الحكيم بحق هو فى الواقع نقطة اللاعودة فى الانتقال من الفصحى إلى العامية على الرغم من وجود أشياء أخرى قد لا تحقق مثل هذا الانتقال .

فمثلا لو قلنا : « المسألة مهمة لأغلب الفلاحين » بتسكين أواخر الكلمات لما أمكن القطع بحقيقة المستوى الذى تقع فيه هذه الجملة على الرغم من وجود كثير من صفات اللغة العامية فيها ، إذ لا يزال من الممكن أن ننسبها إلى نمط هابط من مستوى فصحى العصر (تلك التى تخلصت من الإعراب واتخذت من بنية العامية نظاماً لها كما سبق فى ص ١٤٤ – ١٤٥ .

وكما استطعنا أن نصف هذا المستوى بأنه « هو الذى يصل فيه تدهور صفات الفصحى التقليدية إلى حد يصبح معه من غير الممكن أن يبقى داخل حدود العربية الفصحى » كذلك نستطيع أن نصفه من وجهة نظر أخرى بأنه هو الحد الذى يصل فيه ارتقاء العامية فى اتجاهها نحو الفصحى إلى درجة تصبح معها قادرة على التعبير الشفاهى عن ثقافة العصر . فعامية المثقفين هى لغة الحديث التى يستخدمها كل من أوتوا حظاً من الثقافة والتعليم فى شرح الموضوعات التى تتصل بثقافاتهم كما يستخدمونها فى المناقشات والحديث فى المجردات وشئون العلم والأدب والموسيقى والفن . . . . إلخ .

وإذا ما قارنا بين هذا المستوى وبين المستوى السابق عليه أمكننا أن نقول إن عامية المثقفين تؤدى نفس الغرض الثقافى الذى تؤديه فصحى العصر ، ولها نفس إمكانياتها التعبيرية ونفس مجالها العلمى والحضارى ، وإن كانت تختلف عنها فى أنها أقرب إلى قلب المثقف وأطوع للسانه وألصق بنفسه . فالأولى مطبوعة والثانية مصنوعة . بل لانغالى إذا قلنا أن فصحى العصر هى أساساً لغة كتابية واستخدامها فى الحديث – كما يحدث فى بعض المسرحيات المعاصرة – أمر عارض . حقيقة

نرى البعض يحسنون الحديث والارتجال بفصحى العصر ، وقد يصلون فى ذلك حداً من الإتقان يكاد يصل إلى إتقانهم لمستوى العامية . ولكن هؤلاء قلة يتمتعون بمقدرة خاصة فوق المقدرة العادية للفرد المتوسط . واللغة فى أساسها مقدرة عادية وملكة من ملكات الفرد المتوسط بل وأقل منه . وأستاذ الجامعة مثلا يكتب بفصحى العصر ولكنه يلقى محاضراته عادة بعامية المثقفين وفى الحالات القليلة قد يلقيها بنوع من الفصحى يقع على الحدود بين الفصحى والعامية .

وقد وصلت عامية المثقفين إلى المركز الممتاز الذى وصلت إليه الآن نتيجة لقيام ضرورة اجتماعية صاحبها نوعان من القصور فى التعبير الشفاهى .

أما الضرورة فهى ضرورة التعبير عن نوع من الحياة لم تكن معروفة من قبل . فقد حمل غزو الحضارة الأوربية معه لمصر نوعاً من العلم وطرائق من الحياة بهرت المصريين واستطاعت بسحرها أن تحطم الأسوار النفسية التى كانت تحيط بهم والتى كانت تمنعهم لا من اصطناع هذه الطرائق الغريبة عليهم فحسب بل ومن مجرد النظر إليها وفحصها عن قرب . وقد أدى انهيار السد النفسى الهائل إلى ارتفاع طوفان من الحضارة الغربية أخذ المصريون فى اصطناعها على استحياء أول الأمر ، ثم مالبثوا أن نسوا من أين جاءت وما أصلها بعد أن أصبحت جزءاً لايتجزأ من حياتهم وثقافتهم . وقد أدى اصطناع هذا النوع الجديد من الحضارة إلى قيام ضرورة التعبير عنها تعبيراً يعكس خصائصها ويفرق بينها وبين ما كان سائداً من قبل الأخذ بها .

أما ما صاحب هذه الضرورة من قصور فى التعبير الشفاهى فقد تمثل فى نوعين :

الأول : قصور عامية الأميين وحتى عامية المتنورين عن التعبير عن أغراض الثقافة العليا كالفن والموسيقى والفلسفة والمشاكل الاجتماعية الحديثة . . إلخ .

الثانى : قصور الغالبية العظمى من المثقفين فى مصر عن استخدام الفصحى فى التعبير المرتجل وفى المناقشات العلمية والمناظرات السياسية وكل ما يتصل بشئون الحضارة والحياة المعاصرة .

ولذلك فقد كان من الطبيعى أن تخلق الحضارة الجديدة لنفسها نوعاً من التعبير له فى النفوس ما لها من أصالة وطبيعية . وقد تم ذلك عن طريق التزاوج بين صفات العامية وصفات الفصحى ، أو بعبارة أخرى بين ما يحسنه المثقفون من صفات الفصحى وهو اصطلاحاتها وألفاظها وطرق الدلالة المجردة فيها ، وبين ما يحسنونه من صفات العامية وهو هيكلها البنائى وطرائق تركيب الجملة فيها بصورة عامة . من هذا التزاوج إذن ولدت لغة الحديث عند المثقفين أو ما أسميناه بعامية المثقفين . فهى إذن وليدة الحاجة ومرآة العصر وحضارته .

وقد هيأ جمود الفصحى وفشل المؤسسات التعليمية فى غرسها فى النفوس من جهة ، وعدم ارتفاع العاميات الأخرى إلى المستوى الحضارى للعصر من جهة أخرى — هيأ كل ذلك لعامية المثقفين أن تكون بلا منافس حقيقى فى تعبيرها الحر عن العصر وحضارته وعلومه وثقافته . فهى أكثر حساسية من غيرها للتغيرات الاجتماعية والحضارية ، وهى الباب الذى تلج منه الأفكار والتعبيرات الواردة سواء أكان ورودها من مجتمعات أجنبية أو كان من المجتمع المصرى ولكن من مستويات لغوية أخرى .

فمثلا هؤلاء الذين يمرون بتجارب شخصية فى بلاد أجنبية أو يقرءون عن مثل هذه التجارب أو يقرءون عن حضارات وعلوم أجنبية ، وهؤلاء الذين يقرءون فى الفصحى عن موضوعات عربية خالصة ، وحتى هؤلاء الذين يمرون بتجارب شخصية فى المجتمع المصرى وينظرون إليها نظرة علمية كل هؤلاء قد يتحدثون عن تجاربهم . فإذا ما فعلوا فإنهم يصطنعون فى أحاديثهم الشفوية عامية المثقفين (وقد يحاول القلة منهم استخدام فصحى العصر) وسيلة للتعبير فى العادة . فإذا حدث ولم يكن فى قاموس هذا المستوى ماقد يحتاجونه من بعض ألفاظ واصطلاحات فإن المتحدث لايجد غضاضة فى نقل الكلمة الدالة على مايريد بنائها من المصدر الذى وجدها فيه سواء أكان هذا المصدر لغة أجنبية أو العربية الفصحى أو عامية الأميين وقد يقدم لهذه الكلمة ترجمة وقد يجرى عليها تغييرا يقربها من لغة مستوى عامية المثقفين الذى يتحدث به .

ومعنى كل ذلك بعبارة أخرى أن عامية المثقفين تقوم فى التركيب اللغوى للمجتمع

بدور " محطة التجارب " أو " الحجر الصحى " . فهى تقبل كل ما يرد عليها بصفة مبدئية ، ولا ترفض شيئاً دون تجربته مهما شذ أوفاق حدود الغرابة . وبعد التجربة إما أن ترفضه كما هو أو تقبله كما هو أو تجرى عليه بعض التعديلات . وهذا هو السر فى وجود ظاهرة واضحة تميز هذا المستوى لغويا ، وهى أنه عبارة عن تشكيلة من الصفات فى كل مستوى (كما سيأتى بالتفصيل) : فالأصوات المستخدمة فيه ترجع إلى الفصحى وإلى العامية وإلى شىء بينهما كما قد تكون أصواتاً من لغات أجنبية أيضاً . وكذلك الشأن فى قواعد النحو التى تجرى عليها الكلمات التى تستخدمها . وكلها يعيش جنباً إلى جنب دون حرج لأحد . وإذا راقبنا برنامجاً فى التليفزيون يقوم على الحوار بين عدة أشخاص من المثقفين فسنجد أحدهم يخرج لسانه فى الثاء مثلا فيقول : " ثقب " وآخر يستخدم السين بدلا عنها فيقول : " سقب " وقد نجد الثالث يذهب أبعد من ذلك فيستخدم الصورة العامية الخالصة فيقول : " تأب " وقد يستخدم المتحدث الكلمة أو التعبير الأجنبى بينما يستخدم زميله الكلمة العربية المقابلة ، وقد شاهدت الوزير المسئول عن البترول يتحدث فى أحد برامج العلم عن حاجة البلاد لـ " النوهاو[1] " فردد المذيع عبارته مستخدماً كلمة " الخبرة " . وليس وجود هذا الخليط عيباً فى هذا المستوى ، بل هو دليل الحيوية والتفاعل مع التيارات والأفكار المعاصرة . تماماً كما تدل كثرة العينات الموجودة فى محطة للتجارب وتنوعها على حيويتها واتصالها بما حولها .

ولا يحتاج المرء إلى طويل بحث حتى يقع على ما يشاء من الأمثلة التى تصور الحالات التى ذكرت هنا . وإرثاءً لهذا فتحت جهاز التليفزيون وقت كتابة هذه السطور فوجدت على القناة (٥) برنامجاً بعنوان " المسرح فى بلدنا " وهو برنامج — كما يبدو من عنوانه — يدعو بعض المتخصصين فى شئون المسرح والعاملين به والمتصلين به من قريب أو بعيد ثم يناقشون مشكلة من المشاكل المتعلقة به أو يقيمون إحدى المسرحيات . . . إلخ .

ونظراً لأننى قد فتحت الجهاز أثناء البرنامج فإننى لم أتمكن من معرفة اسم المسرحية التى كانت محل المناقشة ، كما لم أعرف أسماء المشتركين فيها سوى اسم " الأستاذ

(١) The Know how

العصفورى " إذ ناداه زميله باسمه[1] .

كان المشتركون فى البرنامج يتناقشون فى إحدى المسرحيات ويتناولونها من جهات متعددة . وكان من الواضح أنهم متأثرون فى القواعد التى يستخدمونها بقوالب مسرحية منقولة من ثقافات غربية قرأوا عنها وشاهدوها فى مجتمعاتها . ولذلك فلم يقتصر حديثهم على مجرد نقل الأفكار الغربية بل صاحب ذلك — نظراً لموقف الارتجال والتلقائية التى لم تعطيهم فرصة تغيير الكلمات — صاحب ذلك استخدام مصطلحات أجنبية بلفظها ثم ترجمتها بعد ذلك بمقابل عربى هو فى حد ذاته ابتكار أو إثراء للغة العربية . مثال ذلك حديث واحد منهم عن نوع من التكنيك المسرحى يرجع بالمشاهد إلى لحظة سابقة للحظة التى تجرى أحداثها أمامه وتسميتهم لها بـ « فلاش باك » Flash back . ثم التعقيب على ذلك بتقديم مقابل عربى لها هو « أن يرجع بذاكرته ويتذكر الماضى . . إلخ » .

وقد يكون النقل أيضاً من مصدر الفصحى فتدخل المصطلحات والكلمات أولا عن طريق عامية المثقفين ثم تهبط إلى عامية المتنورين وقد تصل إلى عامية الأميين . وخير مثل على ذلك ما جاءت به ثورة ١٩٥٢ من تغييرات اجتماعية واقتصادية صاحبها ابتكار أسماء للمؤسسات والأفكار الجديدة ، مثل : الاتحاد الاشتراكى ، الإصلاح الزراعى ، وضوح الرؤية ، الالتزام ، ملتزم ، المد الثورى ، تنظيم الأسرة . . إلخ . فقد ولدت هذه التعبيرات أولا فى المذكرات والأبحاث التى وضعت لتأصيل الثورة ، ثم شرحت بعامية المثقفين للقادة ومن يعملون فى نشر الوعى بين الجمهور ، ثم دخل بعضها فى الاستعمال العام إلى أن وصل جميع أنحاء البلاد ، وأصبح بعضه جزءاً لا يتجزأ من حياة بعض قطاعات المجتمع فجرى التصرف فيه بطرق لغوية شتى ،

(١) فى الواقع أن من جوانب النقص فى طريقة تقديم برامج التليفزيون والإذاعة بصفة عامة إهمال ذكر أسماء المشتركين فى البرنامج وموضوعه فى نهايته . وكثيراً ما يفتح المشاهد الجهاز بعد بدء برنامج ما ، ثم تجرى المناقشة فيه بطريقة تلفت نظره وتشوقه إلى معرفة موضوعه وأسماء المشتركين فيه . وبدلا من أن يجد هذه المعلومات فى النهاية — يجد بدلا منها أسماء المصورين ومساعديهم ومساعدى المخرج والذين قاموا بعمل الماكياج . . إلخ . ولا اعتراض لنا على ذكر أسماء هؤلاء وإنما اعتراضنا على إهمال تقليد هام ومفيد تعمل به إذاعات العالم الأخرى .

مثل : « الإصلاح الزراعى » الذى أصبح يسمى فى الريف باسم « الإصلاح » و« أراضى الإصلاح » و« بتوع الإصلاح » . . إلخ .

وقد يكون النقل هذه المرة من عامية الأميين إلى فصحى العصر ، ولكن النقل يتم أيضاً عن طريق عامية المثقفين . ويتمثل ذلك عادة فى الأبحاث الاجتماعية التى تتخذ من ظواهر المجتمع مادة لها ، فتبحث الظاهرة تحت اسمها العامى وما يتصل به من كلمات ومصطلحات . مثال ذلك عادة « الزار » و « الأسياد » . . إلخ .

والنقطة التى نود تأكيدها هنا هى أنه يبدو أن عامية المثقفين هى بطبيعتها أصلح المستويات للغرض المذكور وهو كونها باباً تلج منه الأفكار والتعبيرات الجديدة ، لتصبح جزءاً من القاموس اللغوى لمستوى أو أكثر من المستويات الخمس . والسبب فى كونها كذلك يرجع إلى حيويتها وحريتها الذاتية من جهة كما يرجع إلى جمود المستويات الأخرى ومحدوديتها النسبية من جهة أخرى . هذا إلى أن المثقف حين يستخدمها يعرف أنه لا يسجل شيئاً على نفسه كما يحدث فى الكتابة . فليس هناك علامات إعراب أو صحة نحوية . وبإمكان الشخص أن يطرق بها أرقى الموضوعات وأكثرها تعقيداً دون أن يعانى المشكلة اللغوية . وكل هذه مزايا لا يشاركها فيها أى من المستويات الأخرى .

ففصحى التراث تفتقر إلى المرونة اللازمة لقبول تعبيرات واصطلاحات جديدة . فهى مكبلة بقيود تحدد ما يجوز وما لا يجوز وجميعها تهدف إلى رفض ما لم يرد مثله على لسان العرب الأولين .

وفصحى العصر على الرغم من قبولها لاصطلاحات جديدة — نظراً لرفضها لكثير من القيود التقليدية (بترخيص من المجمع اللغوى أو بدون ترخيص منه) بطيئة الحركة والاستجابة للقادم الغريب . ويرجع ذلك إلى أن الغالبية العظمى من الإنتاج فى هذا المستوى يخرج فى صورة مكتوبة مما يتيح لأصحابه فرصة التفكير والاختيار والمراجعة بل والتنقية حرصاً على عدم التعرض للنقد . ومع ذلك فإن ذوى الجرأة من الكتاب والأدباء لا يجدون حرجاً فى ابتكار ما يشاءون[1] وفى نقل ما يروقهم من تعبيرات (مثل الميكنة)، وإن كان ذلك يقل نسبياً عن مقابله فى عامية المثقفين .

(١) أحدث ما قرأت شخصياً من هذا النوع كلمة « التأستذ » لادعاء « الأستاذية » .

وتفتقر عامية الأميين بل وعامية المتنورين أيضاً إلى سعة الثقافة اللازمة للتعبير عن الموضوعات الحضارية ، ولذلك فلا تسنح لها الفرصة للتفاعل السريع مع تيارات الثقافة الطارئة ، اللهم إلا فى الأحداث الكبرى التى تغير قوانين التطور الاجتماعى ، أو بعبارة أدق الأحداث التى تتيح قوانين اجتماعية من نوع خاص بها أقل ما توصف به ، سرعتها فى إحداث التغيير الاجتماعى . وأوضح مثل على ذلك ثورة ١٩٥٢ وما نتج عنها من تغييرات جذرية شملت كل قطاعات المجتمع فيما يشبه طرقة العين وأدخلت فى كل القطاعات وفى مستوياتها اللغوية تعبيرات واصلاحات جديدة لم يكن لها بها عهد سابق . ولكن بالطبع مثل هذه الأحداث الكبرى قليل الوقوع .

أما الصفات اللغوية التى تميز عامية المثقفين والتى يمكن أن نستخدمها فى التعرف عليها فمن بينها الآتى :

(١) الأصوات :

هذا المستوى هو أغنى المستويات الخمسة من ناحية عدد الأصوات التى يستخدمها ومن ناحية توفر مجال الاختيار فيها . فأمام المتكلم بعامية المثقفين — إلا بعض المواقف التى سنشير إليها — حرية استخدام أربعة طوائف من الأصوات :

١ — أصوات الفصحى .

٢ — أصوات العامية المرتبطة بالثقافة .

٣ — أصوات العامية الأخرى .

٤ — بعض أصوات اللغات الأجنبية مثل نطق بعض المثقفين لكلمة « البرلمان » بالباء « المهموسة » (أى التى تكتب بثلاث نقط) وإن كان ذلك نادراً إلا أنه موجود فعلا فى المستوى مما يجعل منه ميزة له .

فالمتكلم بعامية المثقفين يستطيع فى مناقشة بينه وبين نظرائه أن يستخدم مثلا إحدى الصور الثلاث الآتية لنفس الكلمة : ثقب أو صقب أو ثأب . ولا يتحقق هذا الاختيار فى أى من المستويات الأربع الأخرى . ففصحى التراث لا تستخدم إلا الصورة الأولى « ثقب » فقط ، بينما تستخدم فصحى العصر الصورتين الأولى والثانية

« ثقب » و « سقب » . أما عامية المتنورين وعامية الأميين فلا تستخدمان إلا الصورة الثالثة « تأب » فقط .

على أن مجال الاختيار فى عامية المثقفين بين هذه المجموعات الثلاث (بقطع النظر عن النوع الرابع لأنه لا يظهر إلا فى الكلمات الأجنبية الأصل ولدى قلة من الأشخاص فى نطقهم بتلك الكلمات) — على الرغم من قيام الاختيار بصفة عامة — فإنه ليس مفتوحاً أمام المتكلم فى جميع الأحوال أو بنسب متساوية . فهناك قوانين فرعية تحدد هذا العموم كما سيتضح من مناقشتنا التالية :

١ — السواكن :

(أ) الأصوات الأسنانية :

طريقة النطق بهذه الأصوات فى عامية المثقفين هى من أكثر الخصائص الصوتية مغزى فى هذا المستوى . فالكلمات التى تشتمل على صوت أو أكثر من هذه الأصوات يمكن نظرياً أن تنطق بواحد من طرق ثلاث تتدرج نسبة الشيوع فيها على الوجه التالى :

أولا — الكلمات التى بها صوت الثاء فى الفصحى :

مثل « ثقل » « العثور » و « ثوب » . تنطق هذه الكلمات عادة فى هذا المستوى بصوت « السين » ، إذ القاعدة العامة هنا هى أن صوت السين جائز فى كل ما كان من أصله ثاء فى الفصحى . وهذا الجواز العام خاص بهذا المستوى فقط . وإلا فإن فى مستوى عامية الأميين قد يتعين النطق بالتاء فى بعض الكلمات . وفى تلك الحالة قد يلازم هذا النطق الكلمة حتى ولو استعملت فى مستوى آخر مثل كلمة « أثر » فى عبارة مثل « شاف الأثر » فهذه الكلمة مرتبطة بمستوى معين هو عامية الأميين . ولذلك فصوت « التاء » — التى تعد من صفات هذا المستوى ومن خصائصه — متعينة فى تلك الكلمة ولا تفارقها حتى ولو تناولها متحدث فى أى مستوى آخر ولو كان مستوى الفصحى . ويلى النطق بالسين من حيث الشيوع فى عامية المثقفين النطق بالتاء مثل كلمات « تعلب » و « بعتر » و « حرت » إلخ . . ويرتبط النطق بالتاء عادة بالكلمات التى ارتبطت بحياة

الشعب واندمجت به منذ عهد بعيد . أما الكلمات التى لا زالت صلتها بالكتب قوية أو حية فلا تنطق عادة بصوت التاء . ومن أحسن الأمثلة على ذلك كلمتان من مادة (ث / ل / ث) الأولى كلمة « مثلث » فى عبارة مثل « فى المثلث اب جـ . . » فيمكن أن تنطق بالتاء أو بالسين فقط ولا يجوز أن تنطق بالتاء لأنها كلمة لم تهبط بعد إلى المستوى العام فى الاستعمال . أما كلمة « متلت » فى عبارة « الحبل دا متلت » أو فى عبارة « متلت على ايه . . » فلا تنطق إلا بالتاء نظراً لمستواها الثقافى المعين . ومن الكلمات التى لا تنطق بصوت التاء لارتفاع مستواها « أثر عليه » و « المبعوث الدولى » و « صمم على العثور عليه » بخلاف « بعث » و « عثر عليه » فيمكن نطقها « بعت » و « عتر عليه » (على الرغم من اشتراكها معها فى المادة الفعلية) لعكس السبب السابق .

وأقل طرائق النطق بما أصله الثاء فى الفصحى شيوعاً فى عامية المثقفين أن ينطق به « ثاء » كنطقه فى الفصحى . وأكثر ما يكون ذلك فى الكلمات ذات المستوى الثقافى المرتفع وفى المناقشات المتخصصة أو فى المحاضرات العلمية وما يشبهها ، مثل « النثر » ، « الدعوة للأخذ بالثأر » ، « الثقافة » . . . إلخ .

ثانياً — الكلمات التى بها صوت الدال فى الفصحى : مثل « بذل » و « نذل » و « ذقن » . . إلخ . تنطق هذه الكلمات عادة فى مستوى عامية المثقفين بصوت « الزاى » إذ القاعدة العامة أن كل ما جاء فى الفصحى بالدال ينطق هنا جوازاً بصوت الزاى إلا إذا كانت الكلمة التى فيها هذا الصوت ذات ارتباط حضارى أو ثقافى شعبى معين . فيقال « بزّل » و « نزّل » و « زقن » .. إلخ . أما الكلمات مثل « ذكر » فى عبارة « يوشوس الذكر » فلا تنطق بصوت الزاى إذا وردت فى هذا المستوى ، ذلك أنها فى الواقع من قاموس عامية الأميين ، ولذلك فصوت « الدال » الذى هو من خصائص ذلك المستوى متعين فيها .

ويلى النطق بالزاى فى الشيوع النطق « بالدال » فى كلمات مثل « ودن » ، « دأن » « دراع » ويرتبط النطق بالدال عادة بالكلمات التى ارتبطت بعامة الشعب وبثقافتهم وعاشت معهم زمناً طويلا بخلاف النطق بالزاى فإنه يرتبط عادة بالكلمات التى لا تزال صلتها بالعلم أو بالكتب قوية . ونأخذ مثالا على ذلك كلمتين من أصل ثلاثى واحد هو (ج / ذ / ر) . هاتان الكلمتان هما « جذر » التى تنطق عادة بالدال لارتباطها بالثقافة

الشعبية ، و « جزرية » فى مثل « مشكلة جزرية » فإنها لا تنطق بالدال أبداً لأنها من الكلمات الحضارية التى لا تزال تحتفظ بأصلها الثقافى المرتفع على الرغم من شيوعها فى الاستعمال. ومن الكلمات التى تنطق عادة بالدال للسبب المذكور كلمات « داه الأكل » ، « بيدن فى مالطة » و « دره » و « أدف » بخلاف كلمات مثل « لزيز » ، « عنده زوأ » و « الزل » فإنها لا تنطق بصوت الدال لارتفاع مستواها .

والنطق بما أصله الذال فى الفصحى « ذالا » أيضاً فى عامية المثقفين هو أقل طرائق النطق به شيوعاً . وأكثر ما يكون ذلك فى الكلمات ذات الأصل الثقافى المرتفع أو المتخصص وفى المقامات التى تجرى فيها المناقشات بين أصحاب التخصصات العلمية أو الأدبية فقد يرد فى المناقشات عبارات مثل « فى بعض المذاهب . . . » و « الإذعان لرغبات الطفل » . إلخ . والنطق « بالذال » يعطى الحديث طابعاً ثقافياً مرتفعاً قد يحاول المتكلم فى بعض الظروف أن يتفاداه رغبة منه فى إبقاء الحديث فى مستوى أقل منه. مثال ذلك ما حدث فى برنامج « الصحة للجميع » الذى تقدمه دكتورة « لفتية السيع » بالقناة (٥) . فقد كانت فى زيارة لأحد مراكز « رعاية الأم والطفل » وجرى حديث بينها وبين بعض المشرفين . وأثناء ذلك قالت هى : « ازن بياخدوا سقافة غذا . . . » « بالذال » ولكنها لم تكمل الكلمة بل استدركت على نفسها وأعادت الكلمة بالزاى « غزائية . . . » .

وقد جاءت كلمة واحدة على ما أعلم بالتاء فى العامية وكان أصلها الذال فى الفصحى وهى كلمة « النبيت » فى « النبيذ » وينبغى لهذا أن تعتبر استثناء على القاعدة .

ثالثاً — الكلمات التى بها صوت الظاء فى الفصحى : مثل « مظلوم » و « ظهر » و « ظن » . . . إلخ . وتوزيع طرائق النطق بهذا الصوت فى عامية المثقفين يشبه توزيع نظيراتها فى الصوتين السابقين .

فالقاعدة العامة هنا أن كل ما أصله « ظاء » فى الفصحى يمكن أن ينطق فى هذا المستوى ظاء (بنقطتين) أى بدون إخراج اللسان (أو بعبارة اصطلاحية زايا مفخمة) . وهذا هو أكثر طرق النطق به شيوعاً . فيقال « مظلوم » و « ظهر » و « ظن » . ويستثنى من هذا العموم الكلمات المرتبطة بالثقافة الشعبية مثل كلمة

« نضرى » فى عبارة « يا نضرى عليك يا خويا » فإنها من قاموس عامية الأميين ولذلك فصوت الضاد — الذى هو من خصائص ذلك المستوى — متعين فيها .

ويلى النطق بالظاء ظاء فى الشيوع النطق بها ضاداً فى كلمات مثل « نضارة » و « نضف » و « صلاة الضهر » . . إلخ . ويرتبط النطق بالضاد بالكلمات التى ارتبطت بالشعب وعايشته وأصبحت جزءاً من حياته . بخلاف النطق بالظاء فإنه يكون فى الكلمات التى لم تدخل فى الاستعمال الشعبى طويلا أو لم تتمكن من التغلغل فى حياته . مثال ذلك كلمة « شظية » التى تستخدم بمعنيين الأول معنى يتصل بحياة الشعب وهو قطعة من الخشب أو القش الدقيقة الرقيقة والتى تدخل فى أصبع اليد أو القدم ويطلق عليها فى تلك الحالة اسم « الشضية » بالضاد . (ولا يجوز استخدام الظاء فيها) . والثانى معنى لم يتغلغل فى حياة الشعب بعد وإن كان له به علم وهو الذى يستخدم فى مثل عبارة « شظية القنبلة » بالظاء (ولا يستخدم صوت الضاد فى مثل تلك الحالة) . ومن الكلمات التى تنطق عادة بالضاد للسبب المذكور « ضلة » و « ضافر » و « ضهر » بخلاف كلمات مثل « عظيم » و « مظهر » و « ظرف مناسب » فإنها لا تنطق بالضاد لبقائها فوق مستوى عامية الأميين .

والنطق بما أصله الظاء فى الفصحى ظاء أيضاً فى عامية المثقفين هو أقل طرائقه شيوعاً ولا توجد قاعدة تحكمه سوى مزاج المتكلم ومستوى الحوار أو المناقشة أو الحديث الذى يشترك فيه . ويظهر هذا النطق عادة فى الكلمات ذات المستوى الثقافى الخاص وفى حالات قليلة . وقد سمعت شخصياً فى برامج التليفزيون بعض الأمثلة على فترات متباعدة ومنها « رفع الحظر » و « منظمات الشباب » .

وهناك ملاحظة عامة تتعلق بالتغييرات الصوتية التى تلحق بأصوات الكلمة . فأصوات الكلمة دائماً تتبع مستوى لغوياً واحداً . فلا يمكن أن يتبع صوت مستوى ما وصوت آخر مستوى غيره. فكلمة مثل « ذقن » إذا نطق صوت الذال فيها دالا أى بما يتفق وقواعد عامة الأميين فلا بد وأن ينطق معه صوت القاف همزة « دأن » أى بما تقضى به قواعد المستوى ذاته فلا يجوز أن يقال « زأن » أو « دقن » . وكلمة مثل « أخذ » إذا نطقت ذالها دالا فلا بد من أن تتحول صيغتها إلى صيغة مقبولة فى العامية لتصبح « خد » اتباعاً للقواعد ذاتها . . . وهكذا .

(ب) صوت القاف : تنطق الكلمات التى يوجد فيها صوت القاف فى الفصحى بإحدى طريقتين فى عامية المثقفين على الترتيب التالى فى نسبة الشيوع :

(ا) قافاً كما فى فصحى العصر . وفى الواقع من الصفات التى تستلفت النظر فى هذا المستوى العامى كثرة ظهور صوت القاف فيه مما يساعد على تمييزه من غيره من العاميات . ولا يحتاج المرء إلى بحث كثير لجمع ما يشاء من الأمثلة . ومنها « اللى استوقف نظرى . . » ، « كل مظاهر الحضارة والتقدم . . » ، « مدير العلاقات العامة . . »[1]

(ب) همزة وهى أقل ظهوراً من صوت القاف ، وكثرة استعمالها فى بعض المواقف قد يقلل من جدية الحديث وقيمته العلمية . ومن أمثلتها « الأوراء اللازمة » ، « مؤسسة النأل » ، « وما نسيناش نزور اسم الوادى الجديد » ، « من فوأ سطح المحافظة . . إلخ . »[1]

على أن هناك كلمات معينة لا يمكن أن تنطق إلا بصورة واحدة إما بالهمزة أو بالقاف نظراً لارتباطها الخاص بمستوى ثقافى معين . فكلمة « القرآن » لارتباطها الدينى واللغوى الفصيح لا تنطق إلا بالقاف وكلمة « قرية » تنطق بالطريقة ذاتها لارتباطها الحضارى بالفصحى (قرية الخرطوم وقرية دمشق . . [2]إلخ) وكذلك كلمة « قذيفة » . . وغيرها . ومن ناحية أخرى فالنسبة من « فقر » إذا وصف بها شخص فلا بد وأن تكون بالهمزة لأنها ترتبط بالتعبيرات الشعبية . مثال ذلك « راجل فأرى » لا فقرى . بينما يجوز الوجهان إذا كانت النسبة لفقار الظهر مع ترجيح استخدام القاف لارتفاع الكلمة من الناحية الثقافية فيقال « العمود الفقرى » وقد يقال « العمود الفأرى » فى حالات قليلة . إذ يستعاض عن هذا التعبير فى مستوى عامية الأميين بتعبير « سلسلة الضهر » .

(١) كل هذه الأمثلة مأخوذة عفوياً من إحدى حلقات « السندباد الصغير » للأستاذ ماجد عبد الرازق فى زيارة لمحافظة الوادى الجديد .

(٢) البرنامج السابق .

(ح) صوت الهمزة :

يحل بصوت الهمزة فى المستويات العامية كلها تغييرات يكون من أثرها — وطبقاً لقواعد وقوانين محددة — أما حذف بعض أفراد هذا الصوت أو تغيير بعضها إلى أصوات أخرى أو الإبقاء على بعضها الآخر . وحدوث ذلك لصوت الهمزة فى العاميات مسألة « طبيعية » ناتجة أو مصاحبة للتغييرات التى حدثت أو تحدث لصوت القاف عند انتقاله للعامية . ذلك أنه لما كان صوت القاف الفصحى يتحول إلى همزة فى العامية ، فى الوقت الذى يوجد فيه صوت همزة أصيل ، كان من الطبيعى أن يجرى على ذلك الصوت الأخير بعض التغييرات حتى لا يحدث لبس أو خلط يوقع فى الإبهام ويهدم نظام اللغة من أساسه وخاصة فى الحالات المشتبهة صوتياً . ونضرب على ذلك المثال التالى :

كلمة « فقر » الفصيحة تحولت فى المستويات العامية إلى « فأر » ولكن لما كان فى اللغة فعلا كلمة أخرى تتفق فى أصواتها مع الصورة الجديدة لكلمة « فقر » وهى كلمة « فأر » الدالة على الحيوان القارض ، ولما كان من الممكن أن يحدث لبس بين الكلمتين أو مشتقاتهما فى العامية فقد صاحب التغيير الأول فى كلمة « فقر » تغيير آخر فى كلمة « فأر » . . الدالة على الحيوان تحولت بمقتضاه إلى صورة جديدة هى « فار » . . بتسهيل الهمزة ، كما يقول الاصطلاح النحوى القديم . وبذلك بقى التفريق بين الكلمتين وإن كانت علاماته قد تغيرت .

أما القواعد التى تسير عليها تغيير الهمزة من الفصحى إلى العامية فيمكن لنا من المقارنات التى قمنا بها — أن نلخصها فى الاتجاهات العامة الآتية :

١ — الهمزة الواقعة فى آخر الكلمة فى الفصحى : تحذف هذه الهمزة فى العامية . وإذا كان ما قبلها مداً تحول إلى حركة قصيرة ، وإذا كان ما قبلها حركة قصيرة حذفت . مثال ذلك : الكلمتان الفصيحتان « بناء » و « سماء » تصبحان فى العامية « بنا » و « سما » والكلمة الفصيحة « فىْ » — وهى تنتهى بياء مشددة يتلوها كسرة ثم همزة — ولذلك تحذف همزتها وتسقط الحركة القصيرة التى كانت قبلها أى الكسرة فتصبح فى العامية « فى » بالسكون أما مثل « ضوء » و « داء » مما لم تسقط فيه الهمزة فهو من قاموس

عامية المثقفين وحكمه لذلك يقوم على أسس أخرى سنذكرها فيما بعد . ويستثنى من القاعدة المذكورة كلمة « ماء » التى يقابلها فى العامية « ميه » .

٢ — **الهمزة الواقعة فى وسط الكلمة** : تتحول هذه الهمزة إلى شىء آخر تحدد طبيعته عوامل مختلفة تقوم على نوعية الأصوات المجاورة لها . وذلك على النحو التالى :

(ا) تتحول الهمزة إلى كسرة وتندمج فى الكسرة التى قبلها لتصبحا معاً « ياء مد » إذا وقعت ساكنة يتلوها صحيح ساكن . مثال ذلك « ذئب » و « بئر » اللتان يقابلهما فى العامية « ديب » و « بير » .

(ب) تتحول الهمزة إلى فتحة وتندمج فى الفتحة التى قبلها لتصبحا معاً « ألف مد » إذا وقعت ساكنة يتلوها صحيح ساكن مثال ذلك « فأر » و « فأس » اللتان يقابلهما فى العامية « فار » و « فاس » أما إذا كانت الهمزة أصلها القاف فتبقى فى العامية على حالها ، مثل « عأل » و « نأل » . . إلخ . . أما الفعل العامى المسند إلى ضمير المتكلم المفرد « أريت » الذى يقابله فى الفصحى « قرأت » فلم يصبح « أرات » على مقتضى القاعدة المذكورة لأن الهمزة سقطت من الفعل فى حالة عدم إسناده ليصبح « أرا الجرنال » . فلما أضيفت التاء صار « أريت الجرنال » . . إلخ وسنذكر فيما بعد سبب ورود « بأس على حالها » بدون تغيير فى العامية .

(ج) تتحول الهمزة إلى ضمة وتندمج فى الضمة التى قبلها لتصبحا معاً « واو مد » إذا وقعت ساكنة يتلوها ساكن صحيح مثل « شؤم » التى يقابلها فى العامية « شوم » . أما إذا كانت الهمزة فى العامية أصلها القاف فى الفصحى فتبقى على حالها همزة فى العامية مثل « عأب السجارة » وسيأتى فيما بعد سبب بقاء كلمة « لؤم » على حالها بدون تغيير فى العامية .

(د) تتحول الهمزة إلى « ياء شبيهة باللين » إذا سبقتها ألف المد وكان بعدها كسرة أو فتحة مثال ذلك « ضرائب » و « نائم » و « مائل » التى يقابلها فى العامية « ضرايب » و « نايم » و « مايل » . . إلخ . . وكذلك « ملاءة » و « عباءة » اللتان تقابلهما فى العامية « ملاية وعباية » .

(هـ) كان مقتضى القياس أن تتحول الهمزة إلى واو شبيهة بالصحيح إذا سبقتها

ألف المد وكان بعدها ضمة . غير أن الكلمات التى وقعت تحت يدى (وربما كانت هناك أخرى قد غابت عن ملاحظتى) هذه الكلمات — ومثالها كلمة « تشاؤم » — هى من مستوى ثقافى أعلى من المستوى الذى يكثر فيه تحول الهمزة إلى أصوات أخرى . ولذلك لا يمكننا الحكم على طبيعة هذا النوع .

(و) تبقى الهمزة على حالها إذا وقعت متوسطة بين حركتين من جنس واحد . مثل « سأل عليه » و « الواحد سئم منه » .

٣ — **الهمزة الواقعة فى أول الكلمة** : لا يلحقها تغيير من نوع منتظم . فهى مقبولة قاعدياً ، مثل أبيض وأحمر . . إلخ . ومع ذلك فى اللغة اتجاه إلى الإقلال من هذا النوع ولعل هذا هو السبب فى الاستعاضة مثلا عن الأفعال التى تتعدى بالهمزة بتلك التى تتعدى بالتضعيف . فبدلا من « أقعد » و « أخرج » و « أنزل » . . إلخ . نرى العامية تستخدم « أعّد » و « خرّج » و « نزّل » . . إلخ . أما « أخرج » المستخدمة فى العامية فى مثل « حسام مصطفى هو اللى أخرج الفيلم ده » فرجع وجودها إلى تبعية هذا الاستعمال لمستوى عامية المثقفين على ما سيأتى بيانه .

على أن نسبة تغير الهمزة إلى أصوات أخرى تختلف من مستوى إلى آخر . فأقل ما تكون فى عامية المثقفين ، وتزداد ظهوراً كلما تدرجنا فى الهبوط إلى مستوى عامية الأميين حيث تصل فيها نسبة التغير إلى أعلى ما تكون . وليس هذا من قبيل الصدفة . بل إنه يتسق مع الصفات الصوتية الأخرى المصاحبة له فى اللغة وهو تغير صوت القاف وتحوله إلى همزة . فلما كان تغير صوت القاف يزداد نسبياً كلما تدرجنا فى الهبوط إلى عامية الأميين وكان تغير صوت الهمزة إلى حركة مرتبطاً — فى رأينا — بتغير صوت القاف ، وتحوله إلى همزة ، كان من « المعقول » أن يتبع صوت الهمزة فى سيره خطاً مشابهاً للخط الذى يتبعه صوت القاف . ومن الممكن أن يقال بعبارة تصويرية (وإن كانت غير علمية) : إنه لما كانت أفراد من صوت الهمزة تخلى مواقعها ليحتلها أفراد من صوت القاف كانت نسبة الإخلاء تتفق طرداً وعكساً مع نسبة الملء .

وتنفرد عامية المثقفين عن مستوى العامية الذين يتلونها بظهور صيت الهمزة فيها بكثرة فى مواقع الوسط والنهاية التى سبق الحديث عنها مثل : « اللجوء السياسى »

و « سوء المعاملة » و « رداءة الصنف » . . . إلخ . كما تنفرد أيضاً عن مستوى الفصحى الذين سبقاها بتحول بعض أفراد صوت الهمزة فى المواقع المذكورة إلى أصوات أخرى .

فخبراء البترول المصريون يتحدثون فى التليفزيون مثلا عن « بير جديد » وعن « بئر جديد » كما يتحدث البعض عن « اراية الجرايد » أو عن « قراءة الجرائد » . . . إلخ .

على أن ظهور الهمزة فى الحديث العامى فى المواقع الوسطى والأخيرة من الكلمات — مثلها فى ذلك مثل ظهور القاف — هى من الأمور التى ترتفع بمستوى الحديث وتدخله فى نطاق عامية المثقفين . ولهذا نرى بعض الكلمات التى لم تدخل بعد فى نطاق الاستخدام الشعبى وكذلك الكلمات التى لا تزال تحتفظ بأصلها الثقافى على الرغم من استخدامها فى المستويات العامية الثلاثة — نرى كل هذه الكلمات لا تستعمل إلا بصوت الهمزة ولا يجوز تغييره فيها إلى شىء آخر على الرغم من خضوعه نظرياً للقواعد التى أشرنا إليها من قبل . مثال ذلك : كلمة « بأس » التى لا تختلف فى بنيتها عن كلمة « فأس » ، ومع ذلك فإنها تستخدم بالهمزة دائماً . وعبارة « لا بأس عليك » وجوابها « ما رأيت بأس » على الرغم من كثرة استعمالها فى كل المستويات إلا أنهما ذاتا طابع فصيح بدليل استخدام الفعل « رأيت » وبالهمزة أيضاً بدلا من الفعل العامى « شفت » فاللغة العامية تستخدم عادة « شفت » إلا فى بعض التعبيرات المتوارثة عن الفصحى والتى يمكن أن تعتبر تسرباً أو بقايا منها فى العامية ، ومثله أيضاً « رأيت على الله خير » . . .

الحركات :

١ — يتغير نظام الحركات ابتداء من هذا المستوى تغيراً جذرياً . ففى مستوى الفصحى السابقين يوجد ست حركات : ثلاث قصار هى الضمة والكسرة والفتحة ، ومثالها حركة السين فى العبارات الآتية : « سررت من عملك » ، « سر على بركة الله » و « سرنى عملك » وثلاث طوال هى واو المد وياء المد وألف المد ومثالها المد الذى يتلو السين فى الكلمات الآتية : سور وسيره وسار . أما فى مستوى عامية المثقفين فهناك نوعان من الحركة الطويلة أو المد إلى جانب ستة مماثلة للست السابقة . هاتان

الحركتان الإضافيتان هما :

(أ) حركة طويلة — أو مدة — متوسطة بين الفتحة الطويلة والكسرة الطويلة (أى مماثلة صوتياً — لا وظيفياً — لما جرى النحويون القدامى على تسميته بالألف الممالة) . ومثالها المدة الموجودة بين الحاء والنون فى مثنى كلمة فلاح فى مثل عبارة : « ماشفتش غير فلاحين اتنين » (وسنضع فوقها علامة المد لتمييزها عن ياء المد الخالصة وهذه العلامة موجودة بسهولة فى المطبعة) وهذه الياء مغايرة لياء الموجودة فى جمع نفس الكلمة فى عبارة « فيه تلات فلاحين بره » .

(ب) واو مد متوسطة . مثالها حركة الراء فى مثل التعبير « يارووح ما بعدك روح » (وسنضع فوقها علامة المد — لتمييزها عن واو المد الخالصة) وواو المد المتوسطة هذه تختلف عن واو المد السابقة والتى يمثلها المد فى فعل الأمر العامى « روح » فى التعبير « روح نادى له » .

وهاتان الحركتان الإضافيتان فى العامية هما نتيجة لتطور صوتى حدث فى صوتين من أصوات الفصحى عند انتقالهما للعامية : **الأول** الحركة المركبة من الفتحة والياء الشبيهة باللين فى مثل وَلَدَيْن وكلْبَيْنْ التى تطورت إلى حركة خالصة ولديّن وكلبيّن . **والثانى** الحركة المركبة من الفتحة والواو الشبيهة باللين فى مثل : صَوْم ، وخَوْف والتى تطورت وأصبحت واو مد متوسطة فى مثل صووم ، وخووف .

٢ — وعلى الرغم من جدوث التطور المذكور فى الحركتين المركبتين فإن عامية المثقفين لم تتخلص من هاتين الحركتين المركبتين نهائيا . فقد استبقتهما إلى جانب الصوتين الجديدين . ونحن نسمع فى حديث المثقفين من يقول « الخُوْف من الظلام » ومن يقول « الخوْف من الظلام » .

٣ — تطور آخر لا فى أصوات اللين نفسها هذه المرة بل فى طريقة توزيعها داخل الكلمة . فنظام الكلمة العامية يقضى بأن ينحصر ظهور الحركة الطويلة إما فى المقطع الأخير أو فى المقطع قبل الأخير من الكلمة . وكنتيجة لهذا التحديد على حرية الحركة الطويلة يجرى تغيير على الكلمات الفصحى عند انتقالها إلى العامية . فإذا كان فى الكلمة حركة طويلة فى غير هذين الموقعين قصرت أو أعيد تنظيم مقاطعها بطريقة تدخلها فى

القوالب المسموح بها . مثال ذلك « فاطمة تناقشت فى المسألة » . ففى نطقها الفصيح توجد ألف المد فى المقطع الثالث قبل الأخير فى كلمة « فاطمة » (فا) وفى الثانى قبل الأخير فى كلمة « تناقشت » (نا) . ولما كانت هذه المواضع مما لا يسمح فيه بمد فى العامية فلذلك تنطق فى العامية « فطنه اتناأشت فى المسألة » بدون أى من الحركات الطويلة . وحتى إذا نودى بكلمة « فطنه » من بعيد فإنها تصبح « فاطنه » (بتسكين الطاء) بألف مد فى المقطع قبل الأخير حسب القواعد المذكورة . وإن أضيفت لها : « يا » النداء مع بقاء ألف المد بعد الفاء — كما يحدث فى النطق النسائى فإن المد فى « يا » النداء يختفى لتصبح « يفاطنه » حسب القواعد العامة .

وعلى الرغم من حدوث هذا التطور فإن عامية المثقفين — هنا أيضاً — قد احتفظت لنفسها بالنظامين معاً . فتستخدم نظام الفصحى فى الأنماط العليا بينما تستخدم نظام العامية فى سواها . وقد تجمع بين النظامين فى نفس الوقت دون حرج أو تنافر . فكثيراً ما نسمع عبارة مثل : « المناقشة فى الأمور دى .. مفيهاش فايدة » .

(ب) بنية الكلمات :

نظراً إلى أن هذا المستوى هو باب العامية وأول مستوى فيها يتصل بالفصحى فإن تغييرات كثيرة فى صفات الفصحى تحدث عند انتقالها إليه ، ومنها بنية الكلمات . وليس غرضنا هنا أن نحيط بهذه التغييرات إحاطة استقصاء ؛ فإن ذلك يخرجنا عن غرضنا الأساسى من بحثنا هذا وهو بيان الخطوط العريضة التى تعين حدود الموضوع وتفصل بين كل مستوى وآخر . ولكننا سنأخذ عينات من التغييرات التى تلحق بنية الكلمات هنا والتى توضح صفاتها وتفرق بينها وبين مقابلاتها فى مستوى الفصحى السابقين . كما سنشير إشارة سريعة إلى بعض الصفات التى سنتخذها أساساً لبيان بعض الفروق بين عامية المثقفين وغيرها من العاميات .

١ — الإشارة : يتقلص نظام الإشارة فى هذا المستوى إلى ما يتكون من خمسة أفراد فقط **دا** للمفرد **ودى** للمفردة **ودول** لما فوق ذلك من المؤنث والمذكر ، **وهنا** للمكان القريب ، **وهناك** للمكان البعيد . وذلك فى مقابل نظام فصيح يتكون من حوالى ١٣ فرداً .

٢ — الموصول : كذلك يتقلص نظام الموصول من عشرة أفراد فى الفصحى إلى فرد واحد فقط فى مستويات العامية كلها هو « اللى » .

٣ — نظام التثنية : يتأثر نظام التثنية هنا أيضاً بنفس الطريقة التى يتأثر بها النظامان السابقان . فبعد أن كانت التثنية تدخل فى الفصحى على **الضمائر** « هما » وعلى **الإشارة** مذكرها ومؤنثها « هذان » و « هاتان » وعلى **الموصول** مؤنثه ومذكره « اللذان » و « اللتان » وعلى **الأسماء** مذكرها ومؤنثها « طفلان » و « طفلتان » وعلى **الصفات** مذكرها ومؤنثها « طويلان » و « طويلتان » وفى **الأفعال** « يضربان » — نراها تقتصر فى العامية على المدخول فى الأسماء فقط . « كليين » و « قطتين » .. إلخ .

٤ — نظام الجمع : يتسع معنى صيغة الجمع فى مستويات العامية الثلاثة . فنظراً إلى أن صيغة المثنى تقتصر على الاسم فقط دون الضمائر والصفات .... إلخ — على ما سبق بيانه — فإن صيغة الجمع تحل محلها فمعنى صيغة الجمع فى الفصحى « ما فوق الإثنين » بينما معناها فى العامية (فيما عدا حالة جمع الاسم) ما فوق الواحد . فكلمة « دول » أو « طوال » يمكن أن تكون دالة على اثنين أو أكثر من اثنين . مثال ذلك : « الراجلين الطوال دوّل » حيث تدلان على اثنين و « الرجالة الطوال دوّل » حيث تدلان على أكثر من اثنين .

تغير آخر يحل بنظام الجمع فى مستويات العامية هو اختفاء صيغة جمع المؤنث فى كثير من الحالات . فبينما توجد فى الفصحى صيغ خاصة بجمع المذكر وأخرى بجمع المؤنث فى الضمائر والإشارة والموصول والاسم والصفة ... إلخ . لا يوجد فى العامية صيغة خاصة بجمع المؤنث إلا فى حالة الاسم فقط مثل « مدرسات » و « ممرضات » . أما فى بقية الحالات فإن صيغة جمع المذكر تحل محل صيغة جمع المؤنث إلى جانب دلالتها الأصلية على جمع المذكر . مثال ذلك :

« الأولاد دوّل شطار » و « البنات دوّل شطار » ... إلخ .

ومع ذلك فتمتاز عامية المثقفين بظهور بعض الحالات التى تتفق مع الفصحى فى حالة الجمع . مثال ذلك ما جاء فى حديث للسيدة صفية المهندس (سنعطى بعض التفصيلات عنه بعد قليل) . فقد جرى الحديث بنمط مرتفع من أنماط عامية المثقفين

وجاء فيه مثالان للفعل المضارع المتصل بنون النسوة : « ينتظرن » . « يتمكن » وذلك فى السياق التالى :

« ... صحيح الدولة / مهتمه اهتمام كبير / فى خفض مستوى الأسعار فى بلدنا / لكن ربة البيت / لازم تشارك / وتساعد اهتمام الدولة / على تحقيق هذا الهدف / بعدم الانسياق الفردى وراء الحصول على أى سلعة / بغير سعرها الرسمى / . بينما هناك عدد كبير من زميلاتها ربات البيوت / **ينتظرن** تخفيض السعر / **ليتمكن** من الشراء » .

الصيغ الفعلية :

يحل بالصيغ الفعلية فى مستويات العامية الثلاث تغييرات أكثر من أن نحيط بها فيما نحن بصدده هنا . ولذلك فسنكتفى منها ببعض الخطوط العريضة التى تبين الصفات العامة للمستويات :

١ – صيغة المبنى للمجهول : تحل صيغة المطاوعة المعروفة فى الفصحى بعد تعرضها لبعض التغيرات الصوتية التى تتفق مع نظم العامية محل صيغة المبنى للمجهول فتدل دلالتها فى العاميات . فبدلا من « كُسِر الزجاج » فى الفصحى يقال فى العاميات « الازاز اتكسر » و « الباب اتفتح » ... إلخ . ومع ذلك فإن عامية المثقفين تمتاز عن بقية المستويات الأربع الأخرى لأنها تجمع بين النوعين من الصيغ : فقد نسمع المتحدثين فى التليفزيون يقولون مثلا : « فقرة من اليوجا بيتُقَدَّم لأول مرة فى التليفزيون » و « بتُدَرَّس فى الجامعات » و« بيِيُولَدْ طفل كل ثانية فى الجمهورية » و« بيِيُؤْخَذْ قضية مسلم بها ...» و«بيِيُعْطى قدر من الأهمية » و « بيُقَال انا ...» باستعمال صيغة المبنى للمجهول كما وردت فى الفصحى بعدتعديلها بإدخال «اللاصقة ب» الدالة فى المضارع على العادة أو الاستمرار . وقد تستخدم بدون تعديل مثل : « فيه أمل إن المرضى دول يشفوا ... » . كما قد نسمع من يقول : « أتوجد فى السوق بكسرة » باستعمال صيغة المطاوعة .

٢ – المضارع الدال على العادة أو الطبع : تستخدم الفصحى صيغة الفعل المضارع بدون أية زوائد للدلالة على العادات الشخصية مثل « على يحب البرتقال » « أنا أعرف السباحة » . . . إلخ . ولكن المستويات العامية كلها بما فى ذلك عامية المثقفين طورت هذه الصيغة باضافة اللاصقة « ب » فى مقدمتها

مثال ذلك : «على بيحب البرتقان»، « أنا باعرف أعوم » إلخ. وكما هو الحال بالنسبة لكثير من الصفات اللغوية التى تفرق المستويات العامية الثلاث عن مستوى الفصحى – نرى عامية المثقفين بما لها من وضع متوسط بين هذين الجانبين تستخدم البناءين معاً فى التعبير . أى المضارع المبدوء باللاصقة « بـ » و المضارع المجرد للدلالة على نفس المعنى .

٣ – صيغة الفعل الماضى الثلاثى : تتعرض صيغة الفعل الماضى الثلاثى عند انتقالها من الفصحى إلى العامية لتغيرات صوتية تهدف إلى إحلال التناسق الحركى داخلها : فصيغة هذا الفعل فى الفصحى قد تكون مفتوحة الأول والثانى مثل « فَتَحَ »، وقد تكون مفتوحة الأول مكسورة الثانى مثل « شَرِب » ، وقد تكون مفتوحة الأول مرفوعة الثانى مثل « نظف » . فإذا ما انتقلت هذه الصيغ إلى العامية بقيت صيغة « فتح » على حالها لوجود التناسق فيها من الأصل . أما (شرب » فتتبع حركة أولها حركة ثانيها لتصبح « شِرِبْ » فى العامية ، بينما يوجد خيار فى اللهجة فى « نظف » فالبعض يتبعون أولها ثانيها فيقولون : « نُضُف » وغيرهم يكسر الأول والثانى فيقولون « نِضِف » .

٤ – صيغة الفعل الدال على الاستقبال : تحل اللاصقة « ها » أو « حا » محل « السين » و « سوف » .

العدد : يتم فى هذا المستوى والمستويات التالية له الانتقال النهائى من صيغ العدد الفصحى إلى صيغ العدد فى العامية . ولن نطيل هنا بذكر صيغ الفصحى وما يقابلها من صيغ العامية .

(ح) بنية الجمل :

١ – على الرغم من بقاء بعض آثار الفصحى فى هذا المستوى وعلى الرغم من ظهور بعض صفات العامية فى مستوى فصحى العصر – على ما سبق بيانه – فإن مستوى عامية المثقفين يشهد التخلص الواعى من النظام النحوى للفصحى . فقد ذكرنا سابقاً أن فصحى العصر لا تجرى فى الواقع على السنن التقليدى لنحو العربية على الرغم من اعتقاد الكثيرين غير ذلك . فعدم التزامها بعلامات الإعراب فى بعض المواقف وتحقيقها الإفادة بالرغم من ذلك دليل على أن الإفادة فيها قد انفكت عن هذه العلامات وأصبحت متوقفة على شىء آخر هو ترتيب الجملة . والعلامات التى ترد فى بعض الأحيان

أصبحت فى الواقع غير ذات موضوع بعد أن تجردت من الوظيفة التى كانت لها أصلا .

وبنية عامية المثقفين من الناحية التركيبية لا تختلف أساساً عن بنية فصحى العصر للسبب السابق ، وإن كان المتكلمون يعتقدون أن الثانية فقط هى التى لا تستخدم علامات الاعراب .

وعلى الرغم من تخلى عامية المثقفين « رسمياً » عن استخدام علامات الإعراب إلا أنه يحدث فى بعض الأحيان أن يزين بعض المتحدثين فى الإذاعة والتليفزيون أو فى بعض المواقف الجادة جملة أو أكثر أثناء الحديث بعلامة أو علامتين من علامات الإعراب . وفى الغالب تكون هذه من العلامات « المضمونة » الواضحة كالفاعل أو المجرور وغيره من المواقع التى قد تأتى بسهولة إلى المتحدث دون تفكير أو عناء . وقد اخترت المثال الآتى من حديث للسيدة « صفية المهندس » وجهته إلى ربات البيوت فى برنامجها الشهير « ركن المرأة » . كانت السيدة صفية تتحدث إليهن عن الطريقة التى اتبعتها النساء فى إنجلترا لكسر حالة الإضراب التى فرضها عمال الكهرباء على المجتمع الإنجليزى مما تسبب عنه أضرار بالغة للمواطنين هناك . وقد استخدمت المتحدثة المستوى الذى نسميه هنا عامية المثقفين وصفاته الصوتية والبنائية والتركيبية التى شرحنا بعضها . ولم تكن بالطبع تستخدم علامات الإعراب ، ولكنها مع ذلك طعمت حديثها — بغير قصد على ما أعتقد — بجملة أو اثنين ظهرت فيهما هذه العلامات . قالت : « . . . ربات البيوت ما اكتفوش بكده . / بل أسمّوا نفسهم فى كل منطقة من مناطق الخدمات / زى محطات البنزين / محلات البآلة والجزارة / وطلبوا من أصحاب هزه المحلات / التعاون معهم / « برفض التعامل مع عُمّال الكهرُباء / ومع زوجاتهم » / والامتناع عن بيع أى مواد غزائية ... / إلخ » . فهى قد أعربت كلمات « برفض » و« عمال » و« زوجاتهم » (وكلها مجرورة بعوامل جر واضحة) كما أنها نطقت كلمة « الكهرباء » بصورة « النطق الفصيحة » ولم تقل مثلا « اكّهربا » .

٢ — ونظراً إلى قيام النحو فى فصحى العصر أساساً على ترتيب الجملة من ناحية ونظراً إلى ارتفاع مستوى عامية المثقفين وتداخله فى مستوى فصحى العصر من ناحية أخرى فإن تركيب الجملة فى عامية المثقفين قد لا يختلف عن تركيبها فى فصحى العصر . أى من

الممكن أن ترد صور من التعبير فى عامية المثقفين تجرى قوالبها التركيبية على سنن مشابهة لما تجرى عليه القوالب التركيبية لفصحى العصر .

فالجملة فى عامية المثقفين لها الغنى والتنوع والتعقيد وتتابع المكونات وتداخلها بالطريقة التى لفصحى العصر — كما سيأتى التمثيل له . ويمكننا — مع التجاوز عن بعض الرخص القليلة والاختصارات النطقية — أن نعتبر عامية المثقفين الجانب التلقائى المنطوق ونعتبر فصحى العصر الجانب المصنوع المكتوب لشىء واحد : **هو لغة العصر**

وليست هذه النظرة إلا اعترافاً بالواقع الذى نعيشه وأملا فى مستقبل أنضر للعربية :

أما كونها اعترافاً بالواقع الذى نعيشه فهذا واضح من كون هذين المستويين قادرين — دون سواهما من المستويات الأخرى — على التعبير عن ثقافة العصر وحضارته . فثقافة العصر لا تجد منفذاً مكتوباً إلا فيما أسميناه « فصحى العصر » كما أنها لا تجد منفذاً منطوقاً وتلقائياً إلا فيما أسميناه « عامية المثقفين » . فنحن جميعاً نتفق على أن « العامية » (والمقصود بها دائماً العامية الهابطة أو ما أسميناه عامية المتنورين وعامية الأميين) — نحن نتفق على أنها غير قادرة على التعبير عن الحضارة المعاصرة .

أما ما أسميناه « فصحى التراث » فقد كفانا الأستاذ الزيات(١) مؤونة الاستدلال على عجزها فى ذلك الميدان . وليس معنى عجز هذه المستويات أنها بذاتها وبطبيعة فيها غير قادرة على الدخول فى ذلك الميدان ، بل معنى ذلك أن أهلها لم يفكروا فى هذه الميادين ولم تشغلهم مسائلها ، ولم يقتحموا بها ما نسميه بالمستويات الثقافية العليا . ولذلك لم تحتج إلى خلق وسائل التعبير المناسبة لها . فاللغة — كما يقولون — تعكس طريقة أهلها فى التفكير وفى التصرف فى حياتهم وألوان معايشهم . وعلى العكس من ذلك فلم نعرف أحداً عجز عن التعبير كتابة أو نطقاً بحضارة العصر وثقافته . كل ما نعرفه هو أن أى إنتاج فى هذا الباب يدخل دائماً تحت ما أسميناه الآن « لغة العصر » : الشق المكتوب يندرج تحت فصحى العصر ، والشق المنطوق يندرج تحت عامية المثقفين .

أما كون النظرة السابقة تعكس أملا فى مستقبل أنضر للغة العربية فليس ذلك من

(١) الزيات — المرجع السابق .

قبيل التمنى ، ولكنه يتفق والاتجاه الذى تسير عليه الأمور فى الوقت الحاضر . فرؤية عامية المثقفين وفصحى العصر على أنهما وجهان لعملة واحدة — هى لغة العصر — هو تسجيل للتقارب الشديد الذى تم بين العامية والفصحى ، وهو تقارب تم بصورة تلقائية ومن زاوية لم يفكر فيها من يسمون بالمصلحين أو الغيورين على اللغة العربية : التقارب أو التلاقى على جسر الحضارة الحديثة ، هذا الجسر الذى رأى فيه « الغيورون » على اللغة العربية خطراً كبيراً عليها ومصدر دمار وفناء لها . ومعنى ذلك أن الحضارة الحديثة هى فى الواقع عون للغة العربية ، أى أن التقدم فى ميادين العلم والفن والأخذ بأسباب الرقى والتقدم وبلوغ أقصى ما بلغته وتبلغه حضارة الإنسان هو فى الواقع تقوية للغة العربية وتمكين لها . فالحضارة المتقدمة تحتاج فى التعبير عنها إلى لغة متقدمة ، واللغة المتقدمة لا تكون إلا إذا واكبتها حضارة متقدمة . هكذا يقول علم اللغة وهكذا يشهد تاريخ اللغات .

لا يمكن أن يتم تقدم اللغة العربية برجوعها إلى الوراء . إذ لو تم ذلك — كما يرغب « المصلحون » — فسيعنى ذلك انفصامها عن تفكير أبناء هذا العصر ، أى أن تصبح قوالب فارغة لا تعبر عن شىء ذى بال . وكيف يكون هاماً وحيوياً ، ما لا حياة فيه ولا وغناء معه . وليس هذا دفاعاً عن اللغة العربية أو تمجيداً لها — فليست هذه مهمتنا — ولكنه تسجيل وبيان لخط التطور الذى سارت عليه اللغة العربية ونعتقد أنها ستسير عليه فى المستقبل . وهل كان من قبيل الصدفة أن فترات الازدهار فى تاريخ اللغة العربية وحياتها كانت دائماً موازية لفترات الازدهار فى تاريخ ثقافة العرب وحياتهم ؟

ولا يحتاج المرء إلى بحث طويل لاكتشاف التوازى الواضح بين التركيب النحوى فى عامية المثقفين وفى فصحى العصر . وهذا نموذج مأخوذ من حديث السيدة صفية المهندس المشار إليه من قبل . وباستثناء بعض الصفات الصوتية مثل حلول الهمزة محل القاف فى بعض المواضع ، وحلول ياء المد محل الحركة المركبة من الفتحة والياء الساكنة ، واستخدام « اللى » فى مقام « الذى » — وغير ذلك من الصفات الجزئية التى لا تؤثر على التركيب — باستثناء هذه الأمور فإننا نلاحظ فى هذا النموذج تعقد عبارته وتنوعها وتداخل أجزائها على نسق الصورة التى تتخذها عبارة فصحى العصر :

« من بين الأخبار اللى أريتها / فى الصحف الإنجليزية / خبر إضراب عمال الكهرباء / وبغض النظر عن أسباب الإضراب / وبصرف النظر عن الإضراب نفسه / كوسيلة من وسائل الضغط / فى المجتمعات الرأسمالية / إلا أن اللى لفت نظرى / هو موقف ربات البيوت هناك / من هزا الإضراب . / اللى حصل أن ربات البيوت فى إنجلترا / مشدروش يفسروا إضراب عمال الكهربا / إلا أنه هيسبب لهم أضرار كبيرة جداً . / فكانت النتيجة انهم تجمعوا / وراحوا على المكان / اللى متجمعين فيه العمال المضربين / وهاجموهم / واعتدوا عليهم بالضرب / كنُوع من الاحتجاج / على هزا السلوك / غير الإنسانى / فى تصرف عمال الكهربا / واللى سبب لربات البيوت / عدد كبير من الأضرار . / .. .. »

فمن الواضح فى عبارة هذا النموذج أنها تكاد تكون عبارة فصحى وخاصة الجملة المعقدة التى تبدأ بـ « وبغض النظر ... » .

٣ — على أننا عندما نقول بوجود التوازى بين جملة فصحى العصر وجملة عامية المثقفين من الناحية التركيبية وفى أنهما سواء فى إهمالهما الإعراب — لا ينبغى أن نغفل وجود فارق بين الاثنين — وأن يكن فارقاً شكلياً إلا أنه يعطى مظهراً مختلفاً للصورة الخارجية لكل منهما . هذا الفارق هو الخلاف الشكلى فى النقاط التى يجرى عليها الإعراب بالحروف . فهى فى عامية المثقفين تأخذ شكلا ثابتاً لا يتغير فى العادة مثل : « وراحوا على المكان اللى متجمعين فيه العمال المضربين » فى العبارة السابقة . أما فى فصحى العصر فإن هناك محاولة قد تنجح وقد تفشل فى استخدام علامات أو حروف الإعراب الصحيحة طبقاً لمقتضيات الجملة .

٤ — وليس الفارق السابق هو الأخير بين بنية الجملة فى كل من المستويين فهناك الفارق الواضح بينهما فى نظام النفى . فبينما يتم النفى فى الفصحى بالطرق التى جاءت كتب النحو على ذكرها نرى النفى فى العامية يتبع طرقاً مختلفة عن طرق الفصحى اختلافاً واضحاً . ويكفى أن نشير هنا إلى بعض هذه الطرق دون محاولة لاستقصائها حرصاً على عدم الإطالة وعلى عدم الخروج عن المنهج المرسوم لهذا البحث :

فنفى الفعل الذى لم يسبق بقسم يكون بأن تسبقه « ما » وتلحقه « ش » من آخره . مثل : « ماجاش عندى » و « ماتكلمش حد غريب » . ونفى الفعل المسبوق بالقسم

يكون بأن تتوسط بينه وبين أداة القسم « ما » ولا تتصل به « ش » . مثاله : « والله العظيم ماشفته » . ونفى غير الفعل يكون بأن تسبقه الأداة « مش » . مثل « دامش كتابى » و « على مش جوا » ونفى شبه الجملة المقدمة على المبدأ النكرة ، وكذلك كلمة « حد » فى أول الجملة يتبع طريقة نفى الفعل أيضاً . مثل : « مالكش عزر » و « ماعندكش حاجه » و « مامعكش جنيه سلف ؟ » و « ماحدش أحسن من حد » ... إلخ .

وهذا الاختلاف فى طرق النفى يعطى كلا من المستويين مظهراً مختلفاً عن مظهر الآخر . ومع ذلك فإن عامية المثقفين تستخدم نظام الفصحى أيضاً فى النفى إلى جانب النظام العامى . مثال ذلك : « لم يستفد إنسان من الخطة دى » .

٥ — ومن الفروق التى تستحق الإشارة اليها هنا قلة ظهور الجملة الفعلية فى عامية المثقفين بالمقارنة مع فصحى العصر . فكما أشرنا فى غير هذا المكان تمثل الجملة الفعلية صفة من صفات فصحى التراث تختفى كلما هبطنا تدريجياً فى أنماط المستويات الخمس إلى أن تختفى تماماً أو تكاد فى عامية الأميين . على أن نصيب عامية المثقفين من هذا النوع من البنية يختلف باختلاف الموضوعات وباختلاف المتكلمين بالطبع . ومن الأمثلة التى تستخدم فيها الجملة الفعلية وفى صورة تجريدية وإن كانت منتظمة . التركيب الآتى ، وهو شائع ومشهور :

« يحصل أننا نكون مجهزين عينة فى المعمل ، ومتخزين جميع الاحتياطات اللازمه . ولكن نكتشف ... إلخ » .

ومع ذلك فظهور هذا النوع من البنية لا تحكمه قواعد سوى الاختيار . ومن الأمثلة أيضاً : (الجملة التالية مأخوذة من مسرحية تليفزيونية) :

« أهملت نفسك وأهملت دروسك . أصبحت حياتك هاش معنى ... » .

٦ — ومن الصفات الواضحة جداً فى عامية المثقفين والتى تميزها — لا عن فصحى العصر هذه المرة — بل عن عامية المتنورين وعامية الأميين على ما سيأتى بيانه — هذه الصفة هى استخدام صيغة المصدر بكثرة جدا إما بمفردها وإما بعد حروف الجر وإما بالإضافة ... إلخ . مثل : « اليوجا بتساعد على إيجاد الانسجام بين الصحة الجسدية

والصحة النفسية ... » وسيأتى بعض التفصيل لهذه الخصيصة عند الحديث عن مستوى العامية الآخرين .

٤ — الصفات اللغوية التى تميز عامية المتنورين :

عامية المتنورين هى المستوى المقصود عند إطلاق كلمة العامية فى كتابات الكتاب العرب وغير العرب على السواء . وهى تختلف عن لغة « أولاد البلد » التى يتحدث عنها بعض الكتاب . والتى سيأتى الحديث عنها عند الحديث عن المستوى الخامس .

وتمتاز عامية المتنورين بأنها لغة عملية ، متباعدة عن المجردات . لغة البيع والشراء والمعاملات والسؤال عن الصحة والأحوال والأهل والأصدقاء ... إلخ . ولذلك فمحصولها اللغوى قليل نسبيا وغير متنوع . ولا يقدح ذلك فى قيمتها ولا يقلل من شأنها ، فهذا هو الدور الذى وكل بها وهى تؤديه بنجاح . والإتهامات التى تكال « للغة العامية » على الإطلاق وترميها بالعجز والقصور إنما ترجع فى الحقيقة إلى التسوية بينها وبين عامية المتنورين بينما هى فى الواقع (أى عامية المتنورين) ليست إلا جانباً من « العامية » . ومن الأمثلة على هذه الاتهامات التى لم تصادف موضعاً مقال للدكتور وافى جاء فيه : « فاللهجة العامية التى يرى أصحاب هذا الاتجاه استخدامها فى الشئون التى تستخدم فيها العربية الفصحى لهجة فقيرة كل الفقر فى مفرداتها . فلا يشتمل متنها على أكثر من المفردات الضرورية للحديث العادى . وهى إلى كل ذلك مضطربة كل الاضطراب فى قواعدها (كذا !) وأساليبها ومعانى ألفاظها وتحديد وظائف الكلمات فى جملتها وربط الألفاظ والجمل بعضها ببعض . وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقاً على التعبير عن المعانى الدقيقة ، ولا عن حقائق الآداب والعلوم والإنتاج الفكرى المنظم . ولا أدل على ذلك من أننا فى حديثنا العادى نفسه كثيراً ما نضطر إلى استخدام العربية الفصحى حينما نكون بصدد التعبير عن حقائق منظمة وأفكار متسلسلة . لا تفعل ذلك للمباهاة أو إظهار القدرة على التعبير الفصيح ، وإنما نفعله مضطرين اضطراراً لأننا نرى أن العامية لا تسعفنا فى مفرداتها ولا فى قواعدها بما يضبط تفكيرنا وينقله نقلا صحيحاً إلى الأذهان »[1] .

(١) دكتور على عبد الواحد وافى « حول استخدام العامية فى الكتابة » جريدة الأخبار ٥ — ٧ — ١٩٧٠ الملحق الأدبى .

فواضح أن الكاتب لا يشير فى حديثه إلى المستوى الذى أطلقنا عليه اسم « عامية المثقفين » وإلا لما قال : « إن العامية لا تسعفنا فى مفرداتها ولا فى قواعدها بما يضبط تفكيرنا وينقله نقلا صحيحاً إلى الأذهان » . فمستوى عامية المثقفين ليس من مستويات الفصحى على الإطلاق . وهو فى الوقت ذاته قادر على نقل أدق الأفكار وأكثرها تجريداً . بل لا أحسبنى مغالياً إذا قلت هنا أن ما أسميناه « فصحى العصر » هو محاولة — قد تنجح وقد تفشل — فى التعبير بصعوبة تقل أو تكثر عما تعبر عنه عامية المثقفين بتلقائية وبإحساس صادقين . أما ما يقصده حقاً فى مقاله فهو هذا المستوى الذى نحن بصدد الحديث عنه وهو مستوى عامية المتنورين وهو ليس مساوياً « للعامية » على إطلاقها بحال من الأحوال . هذا إلى أنه لا يمكن لنا أن نتفق مع الكاتب فى وصفه للعامية (حتى لو كان يقصد بذلك عامية المتنورين) بأنها « مضطربة كل الاضطراب فى قواعدها ، وأساليبها ومعانى ألفاظها وتحديد وظائف الكلمات فى جملها وربط الألفاظ والجمل بعضها ببعض » . ولن ندخل فى كثير من المجادلات للاحتجاج لصحة الرأى الذى نعضده . بل يكفى إن نقول أن نجاح العامية فى تحقيق التفاهم بين مستخدميها دليل على اضطراد قواعدها ودليل على دقة أساليبها وتحديد معانى ألفاظها ووظائف كلماتها ... إلخ . فلو لم تكن لها قواعد مضبوطة لما أمكن استخدامها فى التفاهم بين أى عدد من الناس حتى ولو كان هذا العدد شخصين فقط .

أما الأشخاص الذين يستخدمون عامية المتنورين فهم — على العكس من مستخدمى عامية المثقفين — خليط من أشخاص ذوى خلفيات متعددة : فإلى جانب ذوى الثقافات المحدودة الذين يستخدمونها كلغة أساسية لهم نرى المثقفين يستخدمونها فى المواقف العملية والأمـــور السطحية ، كما يستخدمونها فى الأحاديث الخفيفة والقفشات والنكت والمفاكهات وما أشبه ...

كذلك تختلف هذه العامية عن عامية المثقفين فى قلة تأثرها نسبياً بصفات الفصحى وقواعدها . فهى فى الواقع ذات شخصية مستقلة مثلها فى ذلك مثل أية لغة قائمة بذاتها . ومع ذلك فالروافد بينها وبين الفصحى جارية غير مقطوعة . بل لا يمكن أن تقطع مادامت الظروف القائمة موجودة . ويرجع السبب فى ذلك إلى وجود الصلة التاريخية بينهما من جهة وإلى وجودهما فى مجتمع واحد من جهة أخرى .

على أن وجود هذه الصلة التاريخية بين الفصحى وعامية المتنورين لا يعنى مطلقاً أن الخلاف بينهما شكلى أو أن البحث عن الكلمات العامية ذات الأصول الفصحى وسيلة لإزالة الخلاف بينهما ، كما يحلو للبعض أن يظنوا . ويزداد الأمر سوءاً عندما يتخذ هذا البعض من عقيدتهم تلك أساساً لما يسمونه إصلاح العامية أو إحياء الفصحى . وترجع خطورة هذه المحاولات لا لأنها مقضى عليها بالفشل فحسب ، بل لأنها تتخذ من بعض الحقائق الجزئية قشرة تغطى بها صرحاً من الوهم يحسبه الناس حلا أو طريقاً إلى الحل فيقعدون عن البحث عن طريق للتخلص من مشكلة ازدواجية اللغة التى يعانى منها المجتمع المصرى والمجتمع العربى على حد سواء .

ويرجع تأصل عامية المتنورين وتعمق جذورها فى المجتمع إلى أنها « لغة الأم » بالنسبة لمن هم فوق الطبقات الأمية فى مصر . فهى اللغة التى تكتسب فى المهد وفى مدارج الطفولة ، وتتغلغل فى النفس مع تجارب الحياة الأولى . وتنمو مع نمو الخبرة ، ويتعرف الفرد من خلالها على المجتمع من حوله ، أو يتعرف عليها من خلال المجتمع من حوله على حد سواء . وما إن يبلغ الطفل العادى السادسة من عمره إلا ويكون قد تملك ناصيتها وسيطر على نظامها وأصبح استعمالها لديه سليقة تكاد تفصل مرتبة العمل الغريزى دون أن يذكر كيف تم له تحصيلها ، بل ودون أن يدرى ، ودون أن يرغب فى أن يدرى كيف تم له اكتسابها .

ودخول عامية المتنورين حياة الطفل فى تلك الفترة المبكرة يطبعه بطابعها ويشكل تفكيره تبعاً لتشكل قوالب البنية فيها ، بل ويشكل نظرته إلى الكون ومظاهر الحياة من حوله (كفكرة الزمن والوقت والعدد والجنس وغيرها من الأفكار الكبرى) تبعاً للطريقة التى تتصورها بها تلك اللغة : فمثلا الرأس كبيرة — بالتأنيث — والسَّدْر واسع — بالتذكير — والرَّجل مجروحه — بالتأنيث — ومشط الرجل مفروش — بالتذكير — . وهذا التفريق بين تلك الأعضاء لا يقوم على أى سبب واقعى أو « منطقى » . كما لا يتفق مع نظرة الفصحى إليها . فإذا انتقل الطفل بعد ذلك ليتعلم لغة أخرى — سواء أكانت تلك اللغة هى العربية الفصحى أو الإنجليزية مثلا — فإنه ينظر إليها من خلال العامية ، لغة الأم .

فالطفل المصرى بل والمصرى فى جميع مراحل عمره نتاج العامية . وكل ما يحصله

من لغات إنما هو تطوير للفكرة الأولى التى نبتت فى نفسه الغضة . تلك حقيقة لا أحسب أن هناك خلافاً كبيراً على مدى صحتها . ولا يجوز لذلك أن يكون هناك خلاف على حتمية أخذها فى الاعتبار عند أى تخطيط لإعادة تشكيل الصورة اللغوية للمجتمع المصرى فى المستقبل . إن بلوغ ما ينبغى أن يكون لابد وأن يبدأ من الاعتراف بما هو كائن فعلا بل ورؤيته كما هو كائن فعلا .

أما الصفات اللغوية التى تميز عامية المتنورين وتفرق بينها وبين مستويات الفصحى على الأخص وبين عامية المثقفين أيضاً فهى من الجذرية والكثرة بحيث تستعصى على الحصر فى التخطيط السريع الذى رسمناه لأنفسنا هنا . ولذلك فسنعدد منها ما يحقق لنا الهدف من هذه الدراسة .

(١) الأصوات :

يختفى فى هذا المستوى الخيار الذى كان قائماً فى عامية المثقفين بين أصوات الفصحى وأصوات العامية . فالمتكلم هنا لا يستطيع مثلا أن « يخرج لسانه » فى كلمة « أسَّر » فى عبارة مثل : « والله موت الراجل ده أسَّر فىَّ خالص » إذ يتعين فى عامية المتنورين أصوات العامية إلا فى حالات خاصة سيأتى الإشارة إليها . أما الأصوات التى تميز بصفاتها هذا المستوى فبيانها كالآتى :

(ا) السواكن .

١ – الأصوات الأسنانية :

أولا : الكلمات التى بها صوت الثاء فى الفصحى .

مثل « ثقل » ، « عثر » ، « برغوث » ... إلخ . ينطق صوت الثاء فى هذا المستوى بإحدى طريقتين (لا ثلاثة كما كان الحال فى عامية المثقفين) : الطريقة الأولى – وهى الأكثر شيوعاً – **بالتاء** ، والطريقة الثانية **بالسين** . وليس معنى ذلك أن للمتكلم الخيار فى استخدام الواحدة أو الأخرى فى الكلمة الواحدة من كلمات اللغة وأنه يستطيع أن يقول : « تلت ساعة » أو « سلس ساعة » فليس ذلك صحيحاً . بل بمعنى ذلك أن الكلمات التى كانت تحتوى على صوت الثاء فى الفصحى عندما انتقلت إلى

هذا المستوى أصابها تغير صوتى حول صوت الثاء فى معظمها إلى تاء بينما حول الباقى إلى سين .

ونحن فى الواقع نتصور أن أصوات **الثاء** قد مرت فى تطورها فى العامية بمرحلتين متتاليتين : المرحلة الأولى تحولت فيها **الثاء** إلى **سين** . المرحلة الثانية : تحولت فيها **السين** إلى **تاء** . وهذا التصور يتفق فى الواقع مع التدرج الصوتى فى التطور فصوت الثاء رخو أسنانى مهموس . وصوت التاء شديد أسنانى لثوى مهموس .فى المرحلة الأولى يتحول الأسنانى إلى أسنانى لثوى مع الاحتفاظ بكافة الصفات الأخرى . وفى المرحلة الثانية تتحول الرخاوة إلى شدة مع الاحتفاظ ببقية الصفات على حالها . أى أن التطور يصيب صفة واحدة فقط فى كل مرحلة . دليلنا على ذلك نستخلصه من فحص الطبيعة الدلالية للكلمات التى تنطق بالسين وتلك التى تنطق بالتاء ومقارنتهما معاً : فنرى الكلمات التى تنطق بالتاء كلمات أساسية تتصل بحياة المجتمع الأصلية وبطرق معيشته القديمة مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت من أوائل الكلمات التى انتقلت إلى المجتمع المصرى وقت الفتح . ومثالها : تار ، تعبان ، طور ، تعلب ، برغوت ، تأل ، تأب ، بعت ، عتر ، حرت ، تتى ، توم ، إتنين ، تلج ، تمنيه ، تلاته ، كتير ... إلخ . أما الكلمات التى لا زالت تنطق بالسين فهى إما كلمات تتصل بالحضارة الحديثة نسبياً مما يقوى فكرة أنها لم تجد الوقت الكافى للسير فى شوط التطور إلى نهايته ، ومثالها : « حديس فى التليفزيون » و « التهمة سابته عليه » و « السّوْرة » ... إلخ . وأما كلمات تتصل بأمور الدين مما يرجح أن صلتها غير المباشرة بالفصحى وبالوعظ بها ظلت حائلا بينها وبين التطور الكامل مثل : « ينوبك سواب » و « نصيبه فى المراس من جده » ... إلخ . وإما أعلام وهى أقل الكلمات تطوراً نظراً لتوارثها كما هى ومثالها : « بسينة » « الأستاذ سابت » ... إلخ . (بخلاف التالتة تابته مثلا) .

ثانياً : الكلمات التى بها صوت الذال فى الفصحى :

مثل « ذيل » ، « جذر » ، « ذرة » يسلك هذا الصوت فى عامية المتنورين سلوكاً موازياً تماماً لسلوك صوت الثاء والذى شرحناه فوق هذا الكلام . فهو أيضاً ينطق بإحدى

طريقتين (لا ثلاثة كما هو الحال فى عامية المثقفين) : الطريقة الأولى — وهى الأكثر شيوعاً — **بالدال** والطريقة الثانية **بالزاى** . ولا يوجد خيار أمام المتكلم فى نطق الكلمة الواحدة بإحدى الطريقتين مرة ونطقها بالطريقة الثانية مرة أخرى ، بل إن الغالبية العظمى من الكلمات التى كانت تشتمل على صوت الذال فى الفصحى قد انتقلت إلى عامية المتنورين وأصبحت بصوت الدال بينما تحولت القلة فيها إلى صوت الزاى . وتصورنا لعملية التطور هذه هى مشابهة لتصورنا لعملية التطور التى أصابت الثاء والتى شرحناها فيما سبق . ولذلك نرى كثيراً من الكلمات الأساسية فى المجتمع تنطق بصوت الدال . ومثالها : ديب ، دأن ، مديح ، دكر ، داب ، خد ، بَدَر ، بدله ، دراع ، دِيل ، ودن ، ديل ، كده ، نقد ، كدب ... إلخ . أما الكلمات التى لا تزال تنطق بالزاى فهى إما كلمات تتصل بالتعبيرات المكتوبة أو المرتفعة ثقافياً مثل : « أما لزيز بشكل » ، « إيه الزل ده ؟ » « والا الزخيره خلصت منى ... » ، « القنبله الزريه » ... إلخ . وإما كلمات دينية متأثرة بمنبعها الأصلى وهو الفصحى مثل : « المزهب الشافعى » ، « راجل مجزوب من مجزيب الحسين » ... إلخ .

ثالثاً . الكلمات التى بها صوت الظاء فى الفصحى :

مثل : «ظلم» ، « نظر » ، « ظهر » وينطبق على هذا الصوت من القوانين الصوتية ما ينطبق على صوتى الثاء والذال ولأفراده نظام مواز للنظام الذى يتبعه أفرادهما . أما أفراد صوت الظاء فهما على الترتيب فى نسبة الشيوع : الضاد والظاء (بدون إخراج اللسان) . ومثال الضاد : ضفر ، ضل ، ضهر ، نضيف ، عضم ، ضلمه ، حفض ، ماعندوش اللضى ، يتلامض ، نضاره ، يانضرى . أما الكلمات التى لا زالت تنطق بصوت الظاء الرخو فهى إما كلمات تتصل بألفاظ الحضارة ومعين الثقافة مثل : « بيشتغل فى المحافظه » ، « خلى عندك نظام » وأما كلمات دينية مثل : « نظره يا حسين » ، « ربنا ما بيظلمش حد » ، « جمعية المحافظة على القرآن الكريم » ... إلخ . وإما أعلام مثل : « نظمى » ، « عبد الحافظ » .

٢ — صوت القاف .

لصوت القاف — فى الكلمات التى تشتمل عليه فى الفصحى — نطق واحد فى

هذا المستوى : هو نطقها بالهمزة (خلافاً لوضعها فى عامية المثقفين حيث كان لها بصفة أساسية نطقان : (بالهمزة والقاف) . وصوت القاف فى المستويات العامية يثير حساسيات خاصة تجاه مستعمليه ، ويعزلهم فى الحال عن طبقة العامة ويضعهم بين المثقفين ، بل قد يضعهم فى طبقة « المتحذلقين » فى رأى بعض الناس . ولذلك فليس عجيباً أن يوصف المتحذلق فى التعبيرات الشعبية — فى بعض ما يوصف به — بأنه « يتكلم بالآف » . بل تبلغ الحساسية تجاه هذا الصوت إلى درجة أن المتكلم بالتعبير السابق « ينزه » نفسه عن أن يشتبه بمن يتكملون « بالقاف » — ولو هذه المرة فقط — فينطق باسم حرف القاف (آفْ) بهمزة صارخة تنبو فى موضعها وتصك أذن المثقف صكا .

وأمثلة النطق بالقاف همزة لا تحصى . ومنها : « دأ » ، « شأ » ، « دئيقة » ، « أخّ شيء » ... إلخ . أما ظهور صوت القاف قافاً فهو قليل فى هذا المستوى ويرتبط ذلك إما بألفاظ الحضارة الحديثة مثل : « قنبلة » (ويوجد كثيرون — وخاصة من النساء — من يقولون « أنبله ») « قصة حب » ، « قاعة الشعب فى الاتحاد الاشتراكى » وإما بألفاظ الدين مثل : « سورة البقرة » ، و « القرآن » .

٣ — صوت الهمزة :

يتحول صوت الهمزة فى وسط الكلمة وفى آخرها إلى أصوات أخرى حسب القواعد التى ذكرناها فى غير هذا الموضع [١] ، حيث قررنا أنها تنطبق على المستويات العامية الثلاث بصورة عامة . وتختلف المستويات العامية فى نسبة ظهور صوت الهمزة فيها . ويقتصر ذلك فى عامية المتنورين على حالات قليلة تكاد تنحصر فى التعبيرات المحفوظة مثل : « لا بأس عليك » وبعض ألفاظ الحضارة مثل « الرئيس » (وإن كان هناك نطق أكثر شيوعاً منه هو « الريس ») وقليل من الألفاظ المتصلة بالتراث مثل : « المتفائل » و « المتشائم » . ولعل ندرة ظهور صوت القاف فى هذا المستوى وتحوله إلى همزة فيه له أثر فى ندرة بقاء صوت الهمزة الأصلية فيه على حالها بدون تغيير كما أشرنا إلى شىء من ذلك من قبل [٢] .

---

(١) انظر ص ١٦١ — ١٦٤ من هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ١٦١ من هذا الكتاب .

٤ – الأصوات المفخمة : ص / ض / ط / ظ

يصيب هذه الأصوات فى مستوى عامية المتنورين قدر كبير من التغيير يتمثل فى ناحيتين . الأولى : درجة التفخيم التى تنطق بها .

والثانية : عدد هذه الأصوات ذاتها .

أما من ناحية درجة التفخيم : فيبدو أن المجتمع المصرى يربط لغويًا – وبطريقة عكسية – بين درجة التفخيم وبين درجة الرقى الحضارى واتباع قوالب العصر الحديث. فهذه الأصوات تبدأ فى فصحى التراث شديدة التفخيم ثم يقل تفخيمها تدريجيًا إلى أن تصل إلى عامية المتنورين فنسمع سيدات المجتمع وراثدات « الموضة » فيه يتحدثن عن « الراجل التَّيِّب اللى دحكّنى خالس » . . . ويبلغ ترقيق هذه الأصوات أقصى درجاته لدى النساء . وبين الرجال فى بعض المناطق . (وهذه الصفة هى من الظواهر التى يلحظها المرء لأول وهلة فى نطق الرجال فى الإسكندرية مثلا . وإن كان الأمر هنا يرجع إلى الخلاف الإقليمى بالطبع) .

وكما ذكرنا سابقاً يبقى فى الكلمة من الدلالات الصوتية ما يكفى لأخبار السامع بأن هذا هو الصوت الذى ينطقه الآخرون أو فى مستويات أخرى بالتفخيم . فحركة الفتحة بعد الطاء المرققة فى كلمة « تيب » لا تتحول من « خلفية » فى كلمة «طيب» إلى « أمامية » تماماً ، بل تأخذ لنفسها مركزاً لا يتجاوز منطقة الوسط وقد يميل إلى الخلفية قليلا ، وإن كان تعيين المكان بالضبط يختلف من شخص إلى آخر .

ولما كان من العسير بيان هذه الفروق الدقيقة فى نظام الكتابة الحالى فسنكتفى بإحالة القارئ العربى على خبرته الشخصية بمثل هذه الحالات فى المجتمع . وقد سجلت لإحدى مقدمات البرنامج التليفزيونى [1] « النادى الدولى » أكثر من ثمانى أمثلة لهذه الظاهرة فى أقل من دقيقة من حديثها . ومنها : أيْدًا (أيضاً) ، فدّلوه (فضّلوه) ، تبعا (طبعاً) ، أدِيَّة (قضية) ، حسل فى فرنسا (حصل) .

ومع ذلك فهناك صوت يتصرف فى تفخيمه وترقيقه بطريقة عكسية للطريقة التى

(١) تقع لهجة هذه المذيعة فى قمة السلم الحضارى بمفهومه القائم على التأثر بمنابع الثقافة الغربية من ناحية وعلى صفات لغة المرأة داخل هذا الإطار من ناحية أخرى .

تتصرف بها بقية الأصوات التى ذكرناها . ذلك هو صوت اللام . فتفخيمه علامة « الموضة » والحضارة ، وخاصة من خواص النساء . وكلما زادت درجة تفخيمه كلما زادت هذه العلاقة وضوحاً . وفى المحادثة التى سجلناها للأستاذ الملاخ والممثلة سميرة أحمد والتى سنذكر نموذجاً منها فى آخر هذا الموضوع تبدو هذه الظاهرة واضحة وخاصة فى كلمة « بطلة » التى رددها الاثنان بالتبادل مرتين لكل منهما : بلام شديدة التفخيم فى نطق السيدة سميرة وبتفخيم وسط فى نطق الأستاذ الملاخ .

وأما من ناحية **عدد أصوات التفخيم** فى عامية المتنورين بالمقارنة مع المستويات السابقة فإننا نلاحظ أن عامية المتنورين تستخدم من المقابلات التى تعتمد على ظاهرة التفخيم والترقيق من الناحية السمعية ما يجعل من اللازم منهجياً أن نعترف فيها بوجود عدد أكثر من الأربعة التقليدية المذكورة (الطاء والظاء والصاد والضاد). فالمقابلة بين (راسى) بالتفخيم فى عبارة مثل : « راسى بتوجعنى » وبالترقيق فى عبارة مثل : « زى ما أنت راسى » تقوم على وجود التقابل بين « راء » و « ألف مد » مفخمين فى الأولى و « راء » و « ألف مد » مرققين فى الثانية . ومثل هذا التقابل لا وجود له فى الفصحى . وكذلك يعتمد التفريق بين « ميه » اسم بنت و« مِيه » فى عبارة « عايز أشرب ميه » على مثل ذلك التقابل بين « ميم » و « فتحة » مفخمين و « ميم » و « فتحة » مرققين . وسواء أقلنا بأن التفخيم فى الحركة وحدها أو فى الراء والميم وحدهما أو فى الصوت الصحيح والحركة معاً – فإن النتيجة الحتمية لأى من هذه الاحتمالات هى وجود نوع من التفخيم يرتبط بأصوات أخرى سوى تلك الأربعة ولما لم نكن بصدد بحث هذه المشكلة بالذات فسنكتفى منها بهذا القدر الذى يخدم غرضنا هنا .

٥ – صوتا التاء والدال يتحولان إلى صوتين مركبين : (ت ← تْش)، (د ← دْج)

تحصل هذه الظاهرة إذا وليتهما الكسرة أو ياء المد . مثل : « انيتشى فين؟ » ، « دجى إيه ؟ » وخاصة فى نطق السيدات .

(ب) الحركات :

يختلف هذا المستوى عن المستوى السابق فى ناحية أساسية هى اقتصار عامية

المتنورين على أصوات اللين العامية ونظام توزيعها فيزا على النحو الذى شرحناه سابقاً [١] . أما الخيار الذى كان قائماً فى مستوى عامية المثقفين بين استخدام أصوات اللين العامية وأصوات اللين الفصحى فلا محل له هنا . ولما كان ما ذكرناه هناك عن حركات العامية يصدق على هذا المستوى فسنكتفى به .

(٢) بنية الكلمات :

ينطبق على هذا المستوى من صفات بنية الكلمات ما ذكرناه من صفات العامية عند الحديث عن بنية الكلمات فى المستوى السابق ، ولذلك فلا حاجة بنا إلى إعادة شىء منه هنا . وليس معنى ذلك أنه لا يوجد فرق فى هذا الجانب بين عامية المثقفين وعامية المتنورين . فهناك فى الواقع فارق أساسى بينهما يتصل بما ذكرناه عند الحديث عن نظام الحركات : فعامية المتنورين لا يوجد فيها — ما كان فى عامية المثقفين — من خيار للتكلمين فى استخدام بنية كلمات الفصحى أو بنية كلمات العامية . فالأخيرة متعينة هنا .

(٣) بنية الجمل :

نختار من الصفات التى تميز بنية الجملة فى هذا المستوى بعض نماذج نبرهن بها على اختصاصه بصفات تركيبية تحدد شخصيته ، وهى كالآتى :

أ — تتميز عامية المتنورين عن عامية المثقفين بقلة تأثرها بقوالب الفصحى فى بناء الجملة وتركيبها . ولا نعنى بقوالب بنية الجملة فى الفصحى الأبواب التى عنى النحاة بذكرها من فاعل ومفعول ومبتدأ وخبر فحسب بل نعنى ذلك وشيئاً أبعد منه أيضاً هو تعقد طرق الجملة وغناها التركيبى . فطرفا الجملة فى عامية المثقفين غالباً ما يكونان غنيين يتألفان من كلمات عدة بينها علاقات تركيبية مختلفة ، كما يوجد معها فى الوقت نفسه لواحق وزوائد ترتبط فيما بينها ومع الطرفين بروابط ذات دلالات متعددة . وهذا التعقد والغنى التركيبى هو انعكاس لتعقد الفكرة التى تعبر عنها وموافقة لغناها . ويكفى أن ننصت لأحاديث هذا المستوى ومحاوراته فى التليفزيون وفى الإذاعة وفى مدرجات الجامعة ونقارن بينها وبين غيرها من المستويات لنرى

(١) انظر ص ١٦٤ — ١٦٦ من هذا الكتاب .

الفرق الواضح بينها فى هذه الناحية . وهذه جملة من مستوى عامية المثقفين مأخوذة من حديث السيدة صفية المهندس المشار إليه سابقاً وهى توضح بعض ما قصدناه هنا : ربات البيوت ما اكتفوش بكده / بل نظموا من بينهم مجموعات / للطواف على كل المستشفيات الريفية / والصغيرة / اللى ما فيهاش مولد للكهربا / والمعاونة بأى سبيل / لإنارة غرفة العمليات / حتى لا تتعرض حياة المرضى للخطر / .

أما فى عامية المتنورين فليست الجملة متأثرة بقوالب الفصحى بنفس الدرجة ، وليس لها هذا التشعب والتعقد الذى للجملة فى العامية السابقة . وهذا بدوره راجع إلى عدم تعقد الفكرة وإلى بساطة مضمون الجملة فيها . ومثال ذلك جملة طويلة من محادثة فى برنامج « سينمائيات » تقديم الأستاذ كمال الملاخ ، كان ضيف الحلقة فيه الممثلة سميرة أحمد . وقد أجابت عن أحد الأسئلة بقولها : « أنا الحقيقة اتعرض علىّ فلم كان مشترك الأول بين لبنان واسطنبول . . وتركيا / وعجبنى الدور وكان معايا ممثلين مصريين كلهم / ونفزته / بس / لكن دا . . . / مش شغلى أنا / . . . أنا يتعرض علىّ سيناريو يعجبنى أوافق عليه ... / » ، فهذه الجملة — على طولها — بسيطة التركيب ، وهى فى الوقت نفسه مثال طبق الأصل للنوع الراقى من المحادثات فى مستوى عامية المتنورين .

ب — ذكرنا سابقاً أن فصحى التراث تستخدم نظام العدد الفصيح وحده ، وأن فصحى العصر تستخدم هذا النظام ونظام العدد العامى معاً بينما تستخدم عامية المثقفين نظام العدد العامى فقط .

أما عامية المتنورين فهى لا تستخدم نظام العدد العامى فحسب بل تستخدم إلى جانبه نظاماً إضافياً للعدد يختص بلغة المطاعم والمقاهى :

فى نظام العدد العامى العادى يكون بناء الجملة على النحو التالى :

إذا كان المعدود واحداً : يذكر فى صيغة المفرد دون ذكر للعدد : ادينى كتاب

وإذا كان المعدود اثنين : يذكر فى صيغة المثنى دون ذكر للعدد : ادينى كتابين

وإذا كان المعدود ثلاثة إلى عشرة : يذكر فى صيغة الجمع ويذكر العدد قبله : ادينى أربع كتب

وإذا كان المعدود أكثر : يذكر فى صيغة المفرد ويذكر العدد قبله

: ادينى حداشر كتاب

أما نظام العدد الإضافى فإنه شديد التبسيط ويحتوى على قاعدة واحدة هى :

يذكر العدد أولا متبوعاً بالمعدود فى صيغة المفرد فى جميع الأحوال :

ادينى واحد كباب

ادينى اتنين كباب

ادنى تلاتة كباب

ادينى أربعة كباب . . . إلخ

ح — يكثر فى هذا المستوى نوع من الجمل يقابل الجمل الاسمية الفصحى ذات المبتدأ النكرة . هذا النوع فى الفصحى يحتاج إلى مسوغات خاصة لا حاجة لذكرها هنا بعد أن وفاها النحاة حقها وزيادة . أما فى عامية المتنورين فإن المسوغ — إذا جاز لنا استعارة هذا المصطلح غير الموفق — هو ابتداء الجملة بالجار والمجرور « فيه ». مثال ذلك : فيه راجل فى البيت . فيه حد جوه ؟ . . . إلخ .

د — لأداة الاستفهام فى الفصحى الصدارة . فيقال كيف جئت ؟ وما معك؟ وأين كنت ؟ ... إلخ . أما فى عامية المتنورين فليس لأداة الاستفهام هذه الصدارة . فهى إما أن تتقدم أو تتأخر مثال ذلك : ازاى جيت ؟ وايه معاك ؟ معاك ايه ؟ وفين كنت؟ كنت فين ؟ الحساب كام ؟ كام الحساب؟

ه — يتبع المضاف والمضاف إليه نظاماً خاصاً فى المستويات العامية بما فى ذلك مستوى عامية المثقفين وإن كان ذلك على قلة فيها لتأثرها الشديد بنظام الفصحى على ما سبق بيانه . هذا النظام العامى يقوم على ظهور الأداة « بتاع » ومشتقاتها فى بعض التراكيب . ويمكن تلخيص القاعدة التى تسير عليها الإضافة فى نحو العامية كالآتى :

إذا كانت الإضافة بمعنى « من » أى إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه لم يجز استخدام « بتاع » . مثال ذلك : كيلولحمه، « أول النهار » وش الصبح »... إلخ. وإذا كانت الإضافة بمعنى « اللام » فإن « بتاع » لا تستخدم فى حالة وجود صلة

دائمة أو قريبة جداً أو صلة تملك أو سيطرة بين طرفى الإضافة. مثال ذلك : «أخت على» « راس محمد » « ستك يا عبده سألت عليك » . أما فى الحالات التى لا يوجد فيها مثل هذا القرب فإن الطرفين يفرقان بذكر « بتاع » أو واحد من مشتقاتها بينهما . مثال ذلك : « دى الراس بتاعة محمد » (إذا كان قد اشترى رأس خروف مثلا خلافاً لـ « دى راس محمد » إشارة لرأسه هو) « الست بتاعتى » أو « الست بتاعة محمد » للزوجة . فالخادم يقول « ستى » والزوج يقول « الست بتاعتى » . و « فنجان بتاع شاى » فى مقابل « فنجان شاى ». الأول معناه أنه للشاى وليس للقهوة مثلا . أما الثانى فإن معناه يحتمل أمرين : « فنجان من الشاى » أو « فنجان لشرب الشاى» . . وهكذا.

و — كذلك تمتاز بنية الجملة فى عامية المتنورين بمحدودية ظهور التركيب الفعلى فيها أى تركيب : الفعل ثم الاسم . ويقع ذلك فى حالات خاصة يقصد فيها التنبيه على أهمية الفعل على ما يبدو . مثال ذلك: « حصلت حدسة » ، « اتفتحت البوابة»، « جانى جواب » . . . إلخ .

هذا وقد اخترنا مما سجلناه لهذا المستوى النموذج التالى لتقديمه هنا : وهو عبارة عن جزء من برنامج « سينمائيات » للأستاذ كمال الملاخ . وقد دار الحديث فيه بينه وبين الممثلة سميرة أحمد على النحو التالى :

الملاخ : مساء الخير / ضيفتنا الليلة حتتكلم . /

غريبة ! / مع إنها كنت خرصه / أو / الاسم اللى اشتهرت بيه / كانت بطلة فيلم الخرصة / ولو شفوها / الناس فى الشارع / يقولوا الخرصه اهه / طبقا . . . /

سميرة : سميرة أحمد . /

الملاخ : سميرة / انتى . . / بتحبى خرصه فى البيت ؟ /

سميرة : مأدرش /

الملاخ : أو حتحبى هديه دلوقتى؟ /

سميرة : لأه / يعنى زى ما انت عايز . . . / أكون حكون / يعنى خرصه أو أكلم / اللى انت عيزو / ويمكن أكون عميه كمان . /

الملاخ : مسلّى الدور العميه ؟ /

سميرة : مسلّت عميه خمس . . / خمس أفلام . /

الملاخ : يووه / دا لازم بأه « الأسرّة البيضاء » الأفلام بتعتك ! /

سميرة : مش عرفه والله . . .

الملاخ : « على كل حال هيّ قدره / من الفنان / انّو يمسّل / أى شخصية / يعجز / الإنسان العادى / انه يقوم بيها . / »[1]

كام فلم انتى عملتيه فى حياتك ؟/

سميرة : والله عملت اكتير / يعنى . . . تقريباً / أربعين فلم / تأريباً كده . /

الملاخ : بطلة .

سميرة : بطلة (اللام مفخمة جداً) .

الملاخ : اما اللى مكنتيش فيه بطلة . /

سميرة : لا اللى مكنتش فيه بطلة يمكن عشرة .

الملاخ : خمسين .

سميرة : آه ..

الملاخ : عملتيهم فى كام سنه ؟

سميرة : ف اربعتاشر سنه

الملاخ : دا ولا بنت اربعتاشر . /

لكن بمنسبة / الكلام / والسّمع . . . / يا ترى / وانتى مسكه / السنريو بتاع الفلم أبل متمسّليه / وشفتى جمله ما عجبتكيش / فى الحوار ، ياترى / بتطلبى من المخرج / انه يعدلها ؟ /

سميرة : أيوه بطلب / يعنى . . . أى . . . / بنائش المخرج / وبنّلاقى نفس المعنى /

(١) هذه الجملة تعتبر فى التصنيف الذى جرينا عليه فى هذا البحث من مستوى «عامية المثقفين». وظهورها فى هذا المستوى ذو مغزى وسنشرحه فى غير هذا الموضع . انظر ص : ٢٠٩ .

لأن فيه أوآت كلام الواحد مايرتحش وهو بيتوله . /

الملاخ : وأدام الكمره / سعات زاكرتك بتخونك ؟ / واللا . . . /

سميرة : مش كتير / خصوصاً انى متعوده / يعنى عن انى أكون خرصه / فبحاول .. أخرص شويه وبعدين أكلّم . . . / ازا كنت حنسى الدّيلوج يعنى . /

٥ — الصفات اللغوية التى تميز عامية الأميين :

عامية الأميين هى المستوى الذى يقوم على أمية أصحابه بكل ما يتصل بها من مستوى معيشى ونظرة خاصة للحياة . وهى — على العكس من عامية المثقفين بل وعامية المتنورين أيضاً — لغة بلا مستقبل ، فالزمن ليس فى صالحها . فكل مدرسة تفتح ، وكل مصنع ينشأ ، وكل مزرعة تتحول إلى وسائل الفلاحة الحديثة تسرع بعاميتى المثقفين والمتنورين إلى الازدهار والغنى ، ولكنها فى الوقت نفسه تهدد عامية الأميين وتحاول أن تزعزع كيانها الذى طال به الاستقرار .

وأمية أصحاب هذا المستوى اللغوى — حتى ولو كانوا من الوجهة العملية قادرين على « فك الخط » — تقف حائلا بينهم وبين التأثر اللغوى المباشر من مستويات الفصحى ، كما أن انخفاض مستوى معيشتهم لا يسمح لهم بالاتصال الكافى بمعالم الحضارة الحديثة وقوالبها وبالتالى لا يتأثرون بها بدرجة تستحق الذكر .

على أن هذا السياج القائم حولهم لم يكن تام الإحكام . فقد بقيت فيه ثغرة لم تتوقف المؤثرات اللغوية من مصدر الفصحى عن النفاذ منها وإبقاء لغتهم متصلة بها بسبب وإن يكن واهياً إلا أنه كان صلة على كل حال . كانت تلك الصلة هى الدين الإسلامى الذى يقوم على الفصحى فى جميع أشكاله وصوره ، وإن كنا لا ينبغى أن نبالغ فى تأثيره اللغوى على عامية الأميين .

وقد انعكست هذه الأوضاع على لغتهم وطبعتها بطابعها : فأول ما يسترعى الانتباه فى هذا المستوى أنه لغة التعبيرات الجاهزة أو (الكليشيهات) . فالابتكار اللغوى فى صياغة تركيبات جديدة للكلمات ، وخلق عبارات جديدة لا تختلف فى بنيتها عن المألوف بقدر ما تختلف عنها فى ضم كلمات إلى كلمات لم يجر العرف على ضمها إليها

كثيراً — هذه المغامرات أو التصرف الشخصي في العبارة قليل جداً في هذا المستوى . ويبدو — وإن كان هذا مجرد استنباط — أن أمية المتكلمين بهذا المستوى وقلة حظهم من الثقافة كان سبباً في الحد من إمكانياتهم في التصرف في العبارة والتجديد فيها . فالشخص يتسلم التعبير جاهز التركيب — من كلمتين أو أكثر — ويبقى لديه كذلك دون محاولة منه للتصرف فيه بالفك أو بالتغيير أو باستبدال بعض أجزائه بأجزاء أخرى . تماماً كما يفعل بجهاز الراديو أو الساعة أو مفتاح الكهرباء إن كان لديه منها شيء. ولعل بهذه الخاصية المذكورة — وهذا استنباط آخر مبني على الاستنباط السابق — هي السبب في أن هذا المستوى حافل بالأمثال والحكم والأقوال الشائعة . ولو استمعنا إلى حديث بين اثنين في هذا المستوى — وخاصة بين النساء منهم — فسنلاحظ على الفور أنه يكاد يكون سلسلة من الحكم والأمثال والتعبيرات الجاهزة تتخللها الجمل الاعتراضية من دعائية وغيرها ، وتوصل بينها كلمات قليلة مفردة . فتمسكهم بالتعبيرات الجاهزة وكثرة استخدامهم لها جعل من لغتهم مخزناً لهذا النوع من العبارات . وهذا الاستنباط يجد له تأييداً — وإن كان بطريق غير مباشر — من طبيعة المستويات العامية الأخرى . فالملاحظ أنه كلما زادت ثقافة المرء كلما زاد محصوله اللغوي من ناحية وكلما قل استعماله للأمثال والحكم والعبارات الجاهزة من ناحية أخرى . وعامية المثقفين تكاد تخلو من هذا النوع من المحصول اللغوي . ولعل هذا السبب في إطلاق وصف « الشعبية » على الحكم والأمثال .

وهذا نموذج مسجل من برنامج فكاهي اجتماعي بعنوان : « نوادر خالتي بنبه » وسيأتي الحديث عنه بشيء من التفصيل :

أبوسيد : « أعمل ايه ياناس في الست بنبه مراتي! / احترت معاها واحتار دليلي . / أي والله ! / انتو عارفين إن الأرض لبيض / ينفع في اليوم ليسْوَد / والواحد لازم يشيل من اراده لوأت عوزه ينفعه لاقدر الله في مرض والّلا في ظرف شديد واللا حاجة من كده / والعائل/هو اللي يعمل حساب بكره /. لكن بأه الست مراتي بنبه الله يسامحها ويغفر لها / مش عايزه كده . »

فالحديث يكاد يكون كله كليشيهات مرصوصة واحداً بعد الآخر على الرغم من أن المتكلم رجل وأن السيدات أكثر استخداماً لهذا النوع من التعبيرات من الرجال ،

وخاصة نوع الجملة الاعتراضية الدعائية ، مثل : « وجه محمد ابني — اسم النبي حرصه وضمنه — وآل . . . »

على أن السياج القائم حول هذا المستوى اللغوي وأصحابه والذي وصفناه فوق هذا الكلام قد فتح فيه في الوقت الحاضر — إلى جانب ثغرة الدين التي كانت موجودة من قبل — قد فتحت فيه الآن ثغرة جديدة هي ثغرة التغيير الاجتماعي ، وما صحبها من حملة إعلامية لم يشهد لها أحد مثيلا في التاريخ . فقد أدرك القائمون على الثورة منذ البداية أنه ما لم يخلقوا بينهم وبين هؤلاء الأميين — وهم الغالبية الكبرى من الشعب — صلة مباشرة يتمكنون بها من تبادل الرأي معهم ،أو على الأقل يتمكنون بها من إسماعهم ما يريدون أن يقولوه لهم — ما لم يفعلوا ذلك فلن يكون هناك مجال لإحداث التغيير بالصورة التي يريدون . فأنشئت أجهزة حديثة للإعلام راحت تعمل ليل نهار لربط البلاد معاً من أولها إلى آخرها عن طريق الكلمة . وفي سبيل ذلك وزعت أجهزة الراديو والتليفزيون على نوادي القرى ، وشجع الفلاحون والعمال على الاستماع إلى الأخبار عن طريق الجرائد والإذاعة . وتمثل أغنية « ع الدوار » لمحمد قنديل — وهي شبه رسمية ، وكتبت في أوائل العهد بالثورة — تمثل هذا الاتجاه . ومن كلماتها : « ع » الدوار ، راديو بلدنا يجيب أخبار » و « الجرانين بترد الروح » . . . إلخ . وقد ساعد لحن الأغنية الجذاب ، وصوت المطرب القريب من النفس ، وكلماتها السهلة — ساعد كل ذلك على انتشارها بين الناس . وقد خدمت الصدف هذه الحملة الإعلانية ، إذ ظهرت إلى الوجود مع ظهور راديو « الترانزستور » بأحجامه وأثمانه ومصاريفه القليلة . ولقد أتت فترة كان الفلاحون فيها يعلقون أجهزة « الترانزستور » في الحاريث وفي السواقي حتى لا يفوتهم شيء مما تردده الإذاعة من أخبار وأحاديث .

ولا شك أن هذه الحملة قد آتت كثيراً من الثمار من الناحية الاجتماعية والثقافية . وعجب ذلك ، وبطريقة تلقائية، ظهور آثار لغوية تستحق اهتمام الباحث اللغوي . وفي زيارة قمت بها لقريتي بالشرقية صبيحة خطاب رئيس الجمهورية إلى الأمة يوم الخميس ١٣ يناير عام ١٩٧٢ راعني حقًّا مقدار الآثار التي أحدثها الإعلام وأجهزته في لغة العوام . ففي تعليق لواحد من الفلاحين أعرف شخصياً مقدار حظه الضئيل من التعليم— في تعليق له على الخطاب المذكور سجلت له في أقل من دقيقتين العبارات الثلاث

التالية : « . . . عنده دقه فى التنظيم » (وقد نطق « دقة » بالقاف الفصيحة المعاصرة لا بالجاف كما ينطقها أهل القرية) و « بيتلاشى الضرر » (بفتح ياء المضارع ويتلاشى غير مستخدمة بالمرة فى عامية القرية) و « . . لازم يكون سريع فى الحركة » (وهذا التركيب « سريع فى الحركة » غريب جداً من الناحية البنائية على المستوى الأمى كما سيأتى بيانه) .

على أن هذا التأثير الخارجى على لغة هذا المستوى لم ينجح فى فك أغلاله ، ولم يعطه حرية التصرف فى التعبيرات الوافدة عليه . فتعبيرات مثل « دقة فى التنظيم » ، و « سريع فى الحركة » و « يتلاشى الضرر » وغيرها من التعبيرات الجديدة قد عوملت أيضاً بنفس الطريقة التى عوملت بها من قبل تعبيرات مثل « هى عادة والاحتشريها! »، « اسم الله على إيمتك » ، « فى وش العدوين أد كده » ... إلخ . ذلك أن « احترام » الكليشيه من الصفات المرتبطة بدرجة التعليم لا باللغة فى حد ذاتها .

وعامية الأميين لغة ميلاد . أى أن الطفل يولد فى أسرة تتكلمها فيأخذها عنهم . وليس هناك وسيلة أخرى لاكتسابها ، كما أن أحداً من المتكلمين بغيرها من المستويات لا يرغب فى اكتسابها إلا لأغراض المسرح والسينما . وعندما يبلغ الطفل فى هذه البيئة سن السادسة يكون قد أحكم تعلمها . ومن هذه النقطة يتقرر مستقبله اللغوى : فقد يبقى حيث هو يتكلم هذا النوع من المستويات طيلة حياته ، وذلك إذا لم يدخل مدرسة أو يتعلم حرفة تحتاج إلى مهارة خاصة . وهذا النوع يتناقص جيلا بعد جيل وقد أخذ يتلاشى بسرعة نسبية فى السنوات الأخيرة . وقد ينتقل ابن عامية الأميين إلى طبقة المتكلمين بعامية المتنورين إذا تلقى قدراً من التعليم الابتدائى وتعلم حرفة واختلط بالمجتمع واهتم بما حوله . ولكن انتقاله إلى مستوى عامية المثقفين يحتاج مجهوداً أطول ومعاناة للثقافة والتعليم حتى المستوى الجامعى فى العادة .

أما الصفات اللغوية التى تميز عامية الأميين وتفرق بينها وبين غيرها من العاميات فتكاد ترجع كلها إلى عامل الأمية الذى يطبعها بطابعه ويعزلها عن مصادر التأثير الخارجى . وسنكتفى من هذه الصفات بالقدر الذى يعطى الملامح العريضة ويعين الحدود بينها وبين ما فوقها من مستويات .

(ا) الأصوات :

كما ذكرنا سابقاً تربط اللغة العامية بين التأثير بالحضارة وبين درجة ترقيق الأصوات التى من حقها التفخيم فى الفصحى . كما تربط أيضاً بين هذا التأثير وبين نطق الأصوات الحلقية — كالقاف والخاء والغين — من أقصى نقطة أمامية فى منطقتها بالحنك . ولما كانت عامية الأميين محرومة من التأثير الحضارى ومن تأثير الفصحى فإن آثار هذا الحرمان تظهر على أصواتها بالطريقة التالية :

السواكن :

١ — الأصوات الأسنانية التى يرمز إليها بالثاء والذال والظاء فى الفصحى

تنطق هذه الأصوات الرخوة أصواتاً شديدة فى هذا المستوى : أى أن الثاء تنطق تاء والذال دالا والظاء ضاداً . هذا هو الأصل هنا . ومع ذلك ونظراً إلى أن اللغة لا تعيش داخل ستار حديدى يعزلها عما حولها ، ونظراً إلى تأثير القرآن والمواعظ الدينية التى تلقى بالفصحى ، ونظراً إلى التأثير الإعلامى الذى حملته معها ثورة ١٩٥٢ على النحو الذى أشرنا إليه سابقاً — فإن هذا المستوى قد تعرض أخيراً لتيارات خارجية ليس له بها عهد أدخلت فيه عنوة من المفردات الغريبة عليه والتى تخضع لقوانين الأصوات الخاصة بالمستويات اللغوية العليا . ولما كانت الفرصة لم تتح بعد لهذه الكلمات لكى تستقر وتتشكل طبقاً لقوانين المستوى الذى نقلت إليه فإنها لا زالت تستعمل بالصورة التى نقلت عليها مثل ذلك الكلمات التالية :

السوره = الثورة ، شهدات الاستسمار = الاستثمار ، الازاعه = الاذاعة المحافظه = المحافظة . . . لخ .

ومع ذلك فلنا أن نتوقع أنه إذا طال الاستعمال بتلك الكلمات الطارئة ، وبقيت الأوضاع الاجتماعية السائدة بين المتكلمين بهذا المستوى الآن كما هى فإن هذه الكلمات لا بد وأن تتحول إلى النظام الصوتى الخاص به . دليلنا على ذلك أن اسم « جمعية المحافظة على القرآن » أصبح بسبب كثرة الاستعمال ينطق عند البعض « جمعية المحافضة على القرآن » أى بالضاد الشديدة ، كما أن الاسم العلم « عبد الحافظ »

أصبح فى الأنماط الهابطة من مستوى عامية الأميين ينطق بالضاد أيضاً « عبد الحافض » وكثيراً ما نسمع الآن كلمة « لذيذ » تنطق بالدال الشديدة فى الموضعين ، وخاصة لدى الباعة الجائلين وهم بلا شك من أصحاب هذا المستوى. والنداء « حلو ولديد يا مألى » ليس غريباً علينا . وكلمة « مجدوب » بمعنى شره أو نهم لا أظنها ترجع إلى « الجدب » بل فى رأيى هى تطور عن كلمة « مجذوب » خاصة وأنها تستعمل فى من فقد سيطرته على نفسه بسبب الجوع ويتبعها « على » التى تتبع كلمة « مهبول » فى العامية فقال : « مجدوب على الأكل » . وكلمة « الدخير » بمعنى « البارود » لا شك وأنها تطور عن كلمة « الذخيرة » بالذال .

٢ – القاف :

إذا كان صوت القاف غريباً على الأذن فى عامية المتنورين – كما قررنا سابقاً – فإنه أشد غرابة فى هذا المستوى . بل إننا لا نعرف كلمة يستخدم فيها هذا الصوت فى مستوى عامية الأميين بانتظام سوى كلمة « القرآن » . ولذلك نستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذا الصوت ينبغى أن يحذف من قائمة الأصوات هنا . وقد سمعت شخصياً بعض النسوة يتحدثن فى هذا المستوى عن « سورة البأرة » ومع ذلك فوجد البعض من أفراد هذا المستوى ممن قد يعلق بأذهانهم بعض العبارات الخارجية وخاصة من مصدر الدين فينطقونها بالقاف . مثال ذلك : عبارة « لا قدر الله ! » وإن كان الأكثر شيوعاً فى هذا المستوى استعمال عبارة « الله لا يأدر ولا يكون » بدلا عنها .

٣ – الهمزة :

صوت الهمزة فى المواضع التى يتحول فيها إلى شىء آخر والتى شرحناها سابقاً – هذا الصوت نادر الوجود جداً فى هذا المستوى دون تغيير . ويكاد ينحصر ذلك فى التعبير المحفوظ « لا بأس عليك » وإن كان هذا التعبير فى الواقع من حصيلة عامية المتنورين وبعض الأنماط العليا من عامية الأميين . وبينما تستعمل التحية اللبابة « مساء الخير » بالهمزة أحياناً فى مستويات أخرى فإننا نسمعها دائماً هنا بإسقاط الهمزة « مسا الخير عليكو » .

٤ – الأصوات المفخمة : ص / ض / ط / ظ

ذكرنا أن هذه الأصوات يناظرها تغيير صوتى فى[١] عامية المتنورين يقلل كثيراً من درجة تفخيمها ويكاد يحولها إلى مقابلاتها المرققة ، وربطنا ذلك بفكرة التأثر بقوالب الحضارة والمدنية الحديثة .

أما فى هذا المستوى فإن هذه الأصوات ترجع إليها صفة التفخيم التى كانت لها فى الفصحى إلى حد يحرص معه الناطقون هنا على إعطائها حقها من هذه الصفة . ويبلغ شعورهم الواعى بأهمية صفة التفخيم فى التفريق بينهم وبين الطبقات الراقية التى لا يكترثون لها كثيراً من الاحترام – يبلغ شعورهم بذلك إلى درجة يتخذون معها من صفة ترقيق الأصوات التى من حقها التفخيم عندهم وسيلة لإظهار احتقارهم واستهزائهم بتلك الطبقات وأبنائها . وكتاب المسرح الهزلى على علم كامل بهذه الخاصية . وكلنا نذكر المرحومة مارى منيب وقدرتها الفائقة على استخدامها . ومن أمثلة ذلك : « إيه الكلام القادى (الفاضى) ده ؟ » وتكاد الفكاهة عند الممثلة شويكار تنحصر فى ترقيق الأصوات المفخمة وغيرها من التغييرات الصوتية المشابهة .

أما عدد الأصوات فى مستوى عامية الأميين فيماثل عددها فى عامية المتنورين أى بزيادة بعض أمثلة من الراء والميم كما مثلنا لذلك من قبل[٢] .

٥ – صوتا التاء والدال :

يرجع هذان الصوتان مرة أخرى إلى حالتهما الشديدة فلا ينطق بهما « تْش » و « دْج » كما فى عامية المتنورين .

الحركات :

تشبه الحركات فى هذا المستوى من حيث العدد والكيفية والتوزيع نظيراتها فى المستوى السابق ، ولذلك فلا حاجة إلى إضافة شىء عنها هنا .

الصفات الصوتية المصاحبة :

نقصد هنا بالصفات الصوتية المصاحبة طبقة الصوت التى تصاحب النطق بالجملة .

(١) انظر ١٨٢ وما بعدها مما سبق .
(٢) انظر ص ١٨٣ من هذا الكتاب .

فعلى الرغم من أن طبقة الصوت – وهى درجة سمكه – صفة شخصية فى أساسها – فبعض الأشخاص لهم أصوات غليظة وآخرون أصواتهم رقيقة – على الرغم من ذلك فإن بعض الجماعات اللغوية قد تتميز فى مجموعها كجماعة باستخدام طبقة أو طبقات صوتية معينة تطبعها بطابع خاص وتفرق بينها وبين غيرها من الجماعات المجاورة . وهذه هى إحدى الصفات التى تميز عامية الأميين . فالرجال من أبنائها – وهم من يلقبون عموماً « بأولاد البلد » – يستخدمون فى نطقهم عادة طبقة صوتية غليظة بالمقارنة مع نظرائهم من أبناء المستويات الأخرى . وهذه هى الصفة التى تلفت نظر السامع من غير أبناء هذه الطبقة ، والتى يستخدمها الممثلون المسرحيون – بكثير من المبالغة أحياناً – لتصوير إحدى شخصيات أولاد البلد .

(ب) بنية الكلمة :

تشبه بنية الكلمات فى هذا المستوى بصفة عامة نظيراتها فى المستوى السابق . ومع ذلك فإن أمية المتكلمين بهذا المستوى وعدم استقائهم لغتهم عن طريق الكتابة بل وعدم قدرتهم على القراءة أصلا لا تمكنهم من رؤية صورة بصرية للكلمات التى يسمعونها ، وخاصة للكلمات القادمة من المستويات الفصحى . ومعنى ذلك أنه لا توجد لديهم سوى صورة سمعية للغة التى يستخدمونها . ومن العسير حقاً على مجيد القراءة من أمثالنا أن يتصور حقيقة الفكرة أو الصورة السمعية التى تعمر بها مخيلة الأميين لكلمات لغتهم وجملها . ولولا كثرة التكرار والإعادة وخاصة فى عهد الطفولة لما استطاع شخص أن ينطق كلمة صحيحة من لغته الأصلية . فإذا ما انتقل السماع إلى لغة خارج اللغة الأصلية كاللغة الإنجليزية بل والفصحى فى حق الأمى فلا بد من أن تنشأ كثير من الصعوبات التى تحول بينه وبين تكوين صورة سمعية ونطقية لما يسمع . وأهم هذه الصعوبات أمران : غرابة ما يسمع من جهة الأصوات وتركيبها ، وعدم تكرار ما يسمع تكراراً يكفى لسيطرته عليه سيطرة تامة . وهؤلاء الذين شهدوا الحرب العالمية الثانية يذكرون عمال المعسكرات من الأميين المصريين والصور السمعية التى استقرت فى أذهانهم للجمل والعبارات ، الإنجليزية التى كانوا يسمعونها من الجنود البريطانيين . والشىء أو القاسم المشترك الذى كان يميز هذه الصور السمعية الخاطئة هو أنها كانت تخرج من أفواه هؤلاء الأميين بعد أن يطبقوا عليها نظام لغتهم العامية سواء من ناحية

الأصوات أو بنية الكلمة أو تركيب الجملة : فعبارة "Half past four" كانوا ينطقونها « عَبّاس فور » ولا شك أنهم كانوا « يسمعونها » كذلك . وعبارة السباب المقذع "Bloody bugger" التى كانوا يسمعونها من الجنود كانوا هم أنفسهم يستخدمونها ويتندرون بما يخيل إليهم أنه لفظها متأثرين فى تصورهم هذا بالعربية وهو : « بلاد البقر » (بالجاف) وشتان بين المعنيين .

على أن الأمر بالنسبة للأمى لا يقتصر على الإنجليزية أو غيرها من اللغات الأجنبية ، بل يتعداه إلى الفصحى أيضاً وهى لغة غريبة عليه نسبياً . فهم يسمعون كلمات وتركيبات فصحى فيعلق فى مخيلتهم السمعية صور تتفق مع الصور السمعية لأقرب كلمات لغتهم وتركيباتها شبهاً بما قد سمعوا .

هذه العملية التى يمكن أن نطلق عليها هنا « عملية التحييد اللغوى » هى فى رأيى السبب فى وجود أبنية كثيرة – لا تتفق مع أبنية الفصحى أو العامية ، وهى فى الوقت ذاته ، وإن كانت فردية لا تخضع لقانون عام – تطبع مستوى عامية الأميين وتجذب انتباه المثقف وتنبو فى أسماعه . ومن أمثلة ذلك كلمات مثل : « لزمن » فى « لزمن تروح له » ، « اشى » فى « اشى مهندس ، اشى دكتور . . . » و « معنة » فى « معنة كلامى » و « لمن » « لمن تيجى » .

(ج) بنية الجمل :

يخضع نظام الجملة فى هذا المستوى بصفة عامة للقواعد التى يخضع لها نظام الجملة فى المستوى السابق . ومع ذلك فللجملة فى عامية الأميين طابعها ومظهرها الخاص الذى يميزها عن الجملة فى بقية المستويات ، ويرجع السبب فى هذا إلى وجود عاملين يشدان إليها الانتباه وخاصة أذن المثقف التى تحس وقعاً غريباً تنبو عنه وتدهش له . هذان العاملان هما :

١ – استخدام سلسلة الكليشيهات ، والعبارات الجاهزة ، والجمل الدعائية المعترضة . وتختلف بالطبع نسبة استخدام هذه الكليشيهات فى العبارات العادية من شخص إلى آخر . على أنه كقاعدة عامة تزداد نسبة العبارات الجاهزة فى حديث النساء ، وهن فى مجموعهن أقل ثقافة أو أكثر أمية من الرجال – إذا جاز لنا استخدام

هذا التعبير — كما يكاد يقتصر استخدام الجمل الدعائية — مثل « ادلعدى » ، « فى وش العدوين » ، « اسم النبى حرصه » . . إلخ . — يكاد يقتصر استخدام هذا النوع عليهن .

٢ — « عملية التحييد اللغوى » التى أشرنا إليها سابقاً . وهى تتناول التراكيب الفصحى ثم تستخدمها بعد أن تدخل عليها تغييراً يكسبها نوعاً من الشذوذ . وخاصة لدى من لديهم معرفة بالتركيب الأصلى ، أو تركب أشياء ليس من حقها أن تكون مركبة معاً فى مستوى أعلى من مستوى عامية الأميين . مثال ذلك : تركيب « عالَ » و « بالى » معاً فى جملة مثل « ألت فى عالَ بالى لازم يا واد تشوف عايزين ايه . » ومثاله أيضاً محاولة تقليد التعبير الفصيح « لا يمكن » والخلط بينه وبين التعبير العامى « مش ممكن » مما أدى إلى تعبير « مرقع » ينبو فى الأسماع هو « لا ممكن أبداً » .

وقد اخترنا كنموذج لهذا المستوى قطعة مسجلة من برنامج إذاعى بعنوان : « خالتى بنبه » . وعلى الرغم من أنه برنامج تمثيلى ، إلا أننا نرى فيه بكل وضوح أن الكاتب شعر من خلال حاسته الكتابية بوجود هذا المستوى المستقل فكتب برنامجه فيه دون أن يحيد عنه . وفى الواقع أن أمية المتكلمين بهذا المستوى تقف حائلا بينهم وبين المساهمة فى النشاط الثقافى والإعلامى بالإذاعة والتليفزيون . ولذلك فمن الصعب الحصول على عينات حقيقية طويلة لأحاديثهم . أما النموذج الذى معنا فهو عبارة عن مناقشة بين خالتى بنبه وزوجها أبو سيد حول المشكلة الأزلية « مصروف البيت » . وقد حاولنا تقريب الصورة الصوتية لها على قدر الإمكان واقتضانا ذلك الخروج أحياناً على الصور الكتابية المألوفة لبعض الكلمات . وإن كان من المتعذر مع ذلك تقديم صورة مطابقة تمام المطابقة للتغييرات الخاصة بهذا المستوى وخاصة فى نغمات الجمل . ولذلك فنحن نحيل القارئ المصرى على معلوماته الخاصة عنه :

أبو سيد : أعمل إيه يا ناس فى الست بنبه مراتى ! / احترت معاها واحتار دليلى! / آى والله ! / انتو عرفين إن الارْش لَبْيَضْ / ينفع فى اليوم لِسْوَد . / والواحد لازم يشيل من إرادوا / لوأت عوزه ينفعه لا قدر الله فى مرض واللا فى ظرف شديد واللا حاجة من كده . / والعائل هو اللى يعمل

حساب بكره / لكن باه الست بنبه مراتى — الله يسامحها ويغفر لها — مش عايزه كده ! ! ! /

خالتى بنبه : أنت بتتكلم عنى يابو سيد ؟ /

أبو سيد : مين ؟ / بنبه ؟ /

خالتى بنبه : ظبطتك . / بتقول إيه باه ! /

أبو سيد : حقول إيه يعنى ! /

خالتى بنبه : لازم بْتزمّ فىّ من ورايا ! /

أبو سيد : أنا يا بنبه ! /

خالتى بنبه : طبعاً / هى عاده واللا حتشتريها يابو سيد ! ؟ /

أبو سيد : لا والله أنا بقول إن الست العالَه . . .

خالتى بنبه : آه ! ؟

أبو سيد : هى اللى اتوفر وتشيل من مصروف البيت للأيام .

خالتى بنبه : آه . . . حاجة كل الناس عرفناها يابو سيد . /

أبو سيد : وانتى عارفاها يابنبه ؟ / دا بيأى يوم السعد / لأنك لازم بتعملى بيها . /

خالتى بنبه : لأ — وانت السادىْ — / عرفاها بس مع وأف التنفيز . /

أبو سيد : تنفيز ؟ / ليه بأى ؟ ! /

خالتى بنبه : هو انت — يا حسرة ألبى — بتدينى مصروف يِتْحوّش منه ؟ /

أبو سيد : إمال بديكى إيه ؟ زلط ؟ /

خالتى بنبه : بتدينى مصروف نستلف عليه . /

أبو سيد : يانهار زى بعضه ! / أصدك إيه يا بنبه ؟ /

خالتى بنبه : أصدى شوف لى معاك أد عشرة خمستاشر جنيه عشان أدى فلوس الناس للناس . . . / للبقال ، والجزار ، وبتاعة الفراخ ، وبتاع العيش ، وبتاع . . .

أبو سيد : يااااس . . . / عندك ! / أوليلى لى أبْله . /

خالتى بنبه : هيه ؟ /

أبو سيد : هم دول لهم عندنا فلوس ؟

خالتى بنبه : طبعاً ياخويا . / إمّال حتبلّ عليك ! /

أبو سيد : النبى ايه ! / والمصروف اللى بدوهولك أول الشهر ! /

خالتى بنبه : إه . . . إه . . . إه . . . إه . . . / تعيش يابو سيد / ما خلص ياخويا. / من يوم خمسه – اسم الله عليك – بأه / واحنا عمالين نُجرّ بالسلف /

أبو سيد : مش معقول يابنبه /

خالتى بنبه : ليه ياخويا مش معقول ؟ / يعنى مش عايزنا ناكل واللا إيه يابوسيد ! /

أبو سيد : لكن المصروف اللى بدهولك يا بنبه يكفى / يكفى وينشال منه كمان ! /

خالتى بنبه : يكفى إيه – يا حسرة ألبى – / وحياة غلاوتك انت . / من يوم خمسه كان متشطب عليه .

أبو سيد : يبأى لازم اتصرفتى فيه كده واللا كده يا بنبه ! /

خالتى بنبه : وحياتك يابو سيد أبداً ما اصرفت فيه . / غيرشى – اسم الله على مقام حبيبى – جبت لروحى جوزين جزم ، على شنطة اصفننه ، على فستان جاهز ، على . . .

أبو سيد : بس ؟

خالتى بنبه : بس يا خويا ! /

ملحق

بعض المسائل المتعلقة بالمستويات
بصفة عامة

phonetics-acoustics.blogspot.com

نتناول فى هذا الملحق بعض المسائل التى لم نستطع الحديث عنها قبل التعريف بالمستويات الخمس وقبل بيان صفاتها وخصائصها تفصيلا . وسنقتصر فى هذا الملحق على مسألتين كثرت الإشارة إليهما أثناء البحث وهما :

(ا) ظروف اكتساب المستويات .

(ب) أسس الانتقال بين المستويات أثناء الحديث

وذلك على النحو التالى :

(ا) ظروف اكتساب المستويات :

تنقسم المستويات من حيث ظروف اكتساب الأفراد لها إلى ثلاثة أنواع .

١ — نوع يكتسب تلقائيا وبظروف الميلاد والبيئة فقط .

٢ — نوع يكتسب بالتلقين المدرسى فقط .

٣ — نوع يكتسب تلقائيا وتحت ظروف التعليم المدرسى معاً .

١ — أما النوع الذى يكتسب تلقائيا وبظروف الميلاد فهما المستوى الخامس والرابع ، أى عامية الأميين وعامية المتنورين :

فإذا ولد طفل فى أسرة من الأميين الذين لم ينالوا حظا من التعليم ، والذين يكتسبون عيشهم بالأعمال التى لا تحتاج إلى أى نوع من التدريب المهنى كالباعة الجائلين وعمال الطرق وأمثالهم فإن هذا الطفل عند بلوغه السادسة يكون قد حصل القدر الأساسى من عامية الأميين . فإذا كان حظه من الحياة مثل حظ والديه فلم يتلق قدرا من التعليم أو تلقى قدراً ضئيلا فى المدرسة الابتدائية ثم اشتغل بحرفة أبيه أو بشىء مثلها وقضى حياته دون أن يخرج على دائرته الحضارية من الناحية الثقافية أو النفسية فانه يبقى عضواً فى الجماعة اللغوية التى تستخدم عامية الأميين دون سواها . ومن الملاحظ أن هذا النوع أخذ فى القلة تدريجيا بفضل انتشار التعليم وانتشار الوعى لدى الآباء وضغط مطالب الحياة وتعقدها مما يحوج كل فرد إلى أن يتعلم حرفة تحسن مركزه فى الحياة . هذا إلى أنه كلما زادت الحضارة

كلما قلت الحاجة إلى غير الحرفيين . فدخول الآلة إلى حياتنا تتطلب منا جميعاً حدا أدنى من التعليم لا يتفق مع الأمية التى يقوم عليها مستوى عامية الأميين .

أما الذين يولدون فى بيئة مصرية خلاف البيئة المذكورة سابقاً فإنهم يكونون قد تعلموا القدر الأساسى من عامية المثنورين لدى بلوغهم السادسة . وهناك يقفون فى مفترق الطرق : فقد يبقون حيث هم بقية حياتهم دون أن يخرجوا عن نطاق الجماعة التى تستخدم هذا المستوى اللغوى . وهؤلاء هم قلة ومعظمهم من البنات . فقد يذهب الطفل إلى المدرسه فيتم التعليم الابتدائى أو الإعدادى ثم يغادر المدرسة. فإذا كان بنتاً فإنها تجلس فى البيت انتظاراً للزواج المناسب . وقد تتعلم أثناء ذلك حرفة لا تخرجها عن تلك الدائرة مثل الخياطة . أما إذا كان ولداً فإنه يتخذ مهنة متوسطة بتدريب أو بدونه دون أن يمنحه ذلك القدر اللازم من الثقافة لإخراجه عن الجماعة التى تستخدم عامية المثنورين .

وهناك مصدر آخر يأتى منه المتكلمون بهذا المستوى . ويتمثل ذلك فى بعض الأفراد الذين ولدوا فى بيئة عامية الأميين ثم تاقوا بعد ذلك تدريباً مهنيا طويلا مثل أعمال السمكرة الدقيقة والنجارة المتقدمة وغيرها من الحرف التى تخرج الشخص من دائرة الأمية الضيقة التى قد يكون ولد فيها .

٢ ـ أما النوع الذى يكتسب بالتلقين المدرسى فقط فهما المستوى الأول والثانى أى فصحى التراث وفصحى العصر .

ففصحى التراث تكتسب بنوع خاص من التعليم هو التعليم الدينى . وهو التعليم الذى يقوم على حفظ القرآن وتجويده ودراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية بإتقان والتخصص فيهما بالأزهر ، وخاصة على الطريقة التى كانت سائدة به قبل التغييرات التى أحدثت فى مناهجه ونظم القبول فيه فى العهد الأخير .

وفصحى التراث ـ كما هى موجودة فى مصر الآن ـ محكوم عليها بالفناء ، نتيجة لتخصصها الضيق فى جانب واحد من الوعظ الدينى التقليدى ، ولبعدها عن التيار العام من جهة ونتيجة التغيير الجذرى الذى أدخل على نظم التعليم فى الأزهر من جهة أخرى . والذى يستمع إلى خطب الجمعة فى مساجد مختلفة فى القاهرة

ويحضر الوعظ الدينى فيها يلاحظ بدءها فى اتخاذ اتجاه بعيد عن هذا النوع من الفصحى فى الوقت الحاضر .

وفصحى العصر بأنماطها المختلفة تكتسب عن طريق ألوان التعليم الأخرى ، وفوق المرحلة الثانوية . وهى اللغة التى تتجمع حولها آمال المصريين والعرب وترتكز عليها دعائم قوميتهم . ومع ذلك ، وعلى الرغم من المجهودات الهائلة التى تنفق وعلى الرغم من كل الشعارات التى تطلق فإننا نستطيع أن نقول مطمئنين أنه لا يوجد شخص واحد فى مصر يعتقد ـ أو يتصرف كما لو كان يعتقد ـ أن بالإمكان أن تصبح لغة تخاطب بين الناس فى أمور الحياة اليومية . حتى بين المثقفين . أضف إلى ذلك أن أحداً لم يحدد الهدف من تعليم الفصحى . ولهذا فقد بقى تعليمها بدون هدف . وبقيت فى المدارس مجرد « مادة دراسية » . بل إن الواقع يشهد ـ بعيداً عن كل الشعارات والمعتقدات السائدة ـ هذا الواقع يشهد بأن تعليم اللغات الأوربية فى مدارسنا أوضح هدفاً من تعليم الفصحى. ولما كنا لا نريد أن ندخل فى موضوع كثر الحديث فيه وهو قصور المناهج والكتب الدراسية فإننا سنكتفى بالقول بأن نظم التعليم الحالية تنتج درجات لا حصر لها من إجادة الفصحى ، دون أن يرقى شىء منها إلى مرتبة يحل معها محل العاميات من حيث التلقائية والسهولة فى الاستعمال . فالفصحى ـ بنوعيها ـ تبقى دائماً لغة صناعية يعانيها صاحبها فكراً وتعبيراً .

٣ ـ أما النوع الذى يكتسب تلقائياً وتحت ظروف التعليم المدرسى فى الوقت نفسه فهو المستوى الثالث أى عامية المثقفين . وقد أهلتها ظروفها الاجتماعية والثقافية المواتية لأن تحتل مركزاً ممتازاً على السلم اللغوى للمجتمع المصرى . فهى لغة التعليم فى المدارس والجامعات ، أى الواسطة فى تلقين كل المواد وكل اللغات . وبعبارة أخرى ، تحل محل لغة الأم فى اكتسابها بطريقة تلقائية وأثناء الانشغال بأشياء أخرى . فالشخص يكتسبها مقترنة بمهارات أخرى وأثناء تحصيله لتلك المهارات. بينما يكون اكتسابه للفصحى عملية مقصودة لذاتها . واللغة تعبير عن نشاط مصاحب وليست هى النشاط نفسه .

فعامية المثقفين تعتبر لغة مرتفعة المستوى من ناحية ، نظراً لاقترانها دائماً بالعلم وبالثقافة والفن ـ بل بكل ما له مكانة فى المجتمع ـ كما تعتبر لغة تلقائية من ناحية أخرى ، نظراً لطبيعة اكتسابها من البيئة الثقافية فى المدرسة وخارجها . فهى فى الواقع

تساوى الإنجليزية المثقفة التى يحصلها الشاب الإنجليزى من معاهد التعليم .

إن كل قدر من التعليم يسير بصاحبه نحو استخدام عامية المثقفين . وذلك لسببين :

الأول : هو سعة مجال الاختيار فى بنيتها وثروتها اللغوية . فقوانينها[1] تمت بسبب إلى قوانين الفصحى أو قوانين العامية مع قدر كبير من ألفاظ الحضارة والتراكيب الثقافية أو قوانين الفصحى وقوانين العامية معاً . بل ولا حرج أيضاً من الاغتراف من معين اللغات الأجنبية : الفرنسية والإنجليزية .

والثانى : هو أن الصاعد إلى مستوى الفصحى — الأول والثانى — حينما يبدأ من مستوى الميلاد — الرابع أو الخامس — لا بد وأن يمر أولا بالمستوى الثالث . فإن وصل إلى واحد من مستوى الفصحى فقد حصله وحصل معه مستوى عامية المثقفين . وإن لم يصل إلى إتقان الفصحى فلا يعنى ذلك دائماً فشله كذلك فى اكتساب عامية المثقفين ، أو على الأقل فى اكتساب نمط مرتفع جداً من عامية المتنورين .

مسألة أخيرة تتعلق باكتساب المستويات ، وهى علاقة عدد المستويات التى يحسنها الشخص بدرجة الثقافة التى يحصلها . فكلما زادت ثقافة الشخص واتسعت خبراته كلما كثر عدد ما يحسنه من مستويات والعكس بالعكس . فالجامعى الذى نال قدراً كبيراً من الثقافة والخبرة يستطيع أو يجد نفسه يستخدم عامية المتنورين فى الشراء وقضاء احتياجاته العملية ، وعامية المثقفين فى الأمور الثقافية والمناقشات العلمية والفنية ، وفصحى العصر فى الكتابة والقراءة ، بل وقد يستخدمها بنجاح فى الخطب والمحاضرات أيضاً . وهو فى استخدامه لهذه المستويات الثلاثة التى يختلف بعضها عن بعض بصفات أساسية شرحنا بعضها — فى استخدامه لهذه المستويات يجرى على أصول ثلاث :

الأول : أن يخصص كل مستوى بطائفة معينة من المواقف الاجتماعية دون خلط بينها أو اضطراب . ونحن نعرف ما يحل بمن يجرؤ على الخروج على هذه الموافقات اللغوية الاجتماعية . وقد ظللنا نتندر فترة طويلة على أحد الأصدقاء المغرمين بالفصحى لاستخدامه لها فى خناقة جرت فى الشارع . فقد استدار إلى بقال قريب يعرفه — عندما

(١) انظر ص ١٤٨ — ١٥٤ من هذا الكتاب على الأخص .

اشتد به الغضب — وهدر قائلا : « يا عبد الرحيم يا أبا على : أعطنى سكين الحلاوة لأبقر بها بطن هذا المجرم الأثيم » .

الثانى : أنه لا يخلط بين الصفات اللغوية للمستويات ، بل يحتفظ لكل مستوى بصفاته الخاصة به . فمثلا يعد من قبيل الخطأ اللغوى أن يجمع المتكلم فى كلمة واحدة بين صوت من مستوى عامية الأميين (كالثاء المنقلبة عن التاء) وآخر من مستوى عامية المثقفين (كالقاف) . فلا يقول أحد مثلا (تقب) بالثاء والقاف بل ينبغى أن يقال إما سقب . أو تأب أو ثقب تبعاً لقوانين عامية المثقفين وعامية الأميين والمتنورين والفصحى على التوالى .

الثالث : أنه لا ينتقل فى حديثه من مستوى إلى آخر بطريقة جزافية بل يفعل ذلك تبعاً لقواعد لغوية ونفسية مقننة . وهذا هو ماسنتناوله بالحديث فى القسم التالى :

• • •

(ب) أسس الانتقال بين المستويات أثناء الحديث .

ستتناول ملاحظاتنا فى هذا السبيل المسائل الآتية :

١ — المستويات التى يتم بينها الانتقال .

٢ — اتجاه الانتقال بين المستويات ومداه .

وذلك على النحو التالى :

١ — المستويات التى يتم بينها الانتقال :

لما كانت القدرة على استخدام أكثر من مستوى لغوى واحد تقوم أساساً على مدى ثقافة الشخص كان مستوى عامية الأميين خارجاً بالضرورة على نطاق المستويات التى يتم بينها الانتقال . فالمتحدث بها يقف من سلم الثقافة على أدنى درجاته ولذلك لا يستطيع الخروج على نطاقها حتى ولو حاول .

كذلك لما كان هناك موازاة بين فصحى التراث وفصحى العصر ، بمعنى أن نوع التعليم الذى يتلقاه الشخص يؤهله إما لاستخدام الواحدة أو الأخرى — كان معنى ذلك أنه لا يتم انتقال بين الواحدة والأخرى فى العادة .

وعلى ذلك يكون لدينا سلسلتان للانتقال خلالهما تختلفان تبعا لنوع الفصحى فى كل منهما :

(ا) الأولى : بين فصحى التراث ، وعامية المثقفين ، وعامية المتنورين .

(ب) الثانية : بين فصحى العصر ، وعامية المثقفين ، وعامية المتنورين .

٢ — اتجاه الانتقال بين المستويات ومداه

من الدراسات التى قمنا بها لطائفة كبيرة جداً من التسجيلات الإذاعية والتليفزيونية ومن الملاحظات الشخصية للأحاديث والمحاضرات الشفوية نستطيع أن نقرر الآتى :

يكون الانتقال من مستوى إلى الذى يليه بدرجة واحدة فقط فى الأحوال العادية صعوداً أو هبوطاً ، وذلك طبقاً للقواعد الآتية :

(ا) يكون الانتقال صعوداً : من الثانى إلى الثالث أو من الثالث إلى الرابع ويحدث ذلك عندما يصل المتكلم فى حديثه إلى نقطة يريد أن يلخص عندها شيئاً مما قاله أو يستخلص منه العبرة . وفى تلك الحالة يجرى تلخيصه أو يستخلص قاعدته بانتقاله درجة واحدة صعوداً إلى المستوى التالى . فإذا كان يتكلم فى مستوى عامية المتنورين فإنه يصعد للتلخيص فى عامية المثقفين ، وإذا كان يتكلم فى عامية المثقفين فإنه يصعد للتلخيص فى فصحى العصر .

وقد احتوت المادة المجموعة على حالة واحدة تم الانتقال فيها من نمط هابط من أنماط فصحى العصر إلى نمط مرتفع جداً وقريب من منطقة فصحى التراث . وقد تم ذلك عندما أراد المتحدث أن يتوجه بالدعاء إلى الله أثناء حديث عن موضوع آخر . وسنقدم هذا المثال مع غيره بعد قليل .

(ب) يكون الانتقال فى الاتجاه المقابل أى هبوطاً : من الرابع أو الخامس إلى الثالث أو من الثالث إلى الثانى فى حالات الشرح والتفسير ، أى عكس المواقف التى تستدعى الصعود . فقد يذكر المتكلم قضية أو مسألة يعتقد أنها من التركيز والابهام بحيث تتطلب منه تخفيف هذا التركيز . وفى تلك الحالة كثيراً ما يلجأ إلى المستوى الأدنى ليتخذه وسيلة لتحقيق غرضه .

كذلك قد يهبط المتكلم من مستوى إلى المستوى الذى يليه إذا وجه إليه أحد السامعين الحديث بمستوى أقل من المستوى الذى يتحدث به . وقد قمت شخصياً بتجربة من هذا النوع مع أحد الأصدقاء . كان ذلك الصديق يلقى محاضرة عن « صحافة الشاميين

المهاجرين إلى مصر وأثرها فى الأدب العربى » وكان يستخدم فى حديثه نمطاً متوسطاً من أنماط فصحى العصر . وفجأة وجدنى قد وضعت أمامه ورقة مكتوبة فيها « هدّى السرعة شوية » . فتمهل قليلا ثم نطق ببضع جمل من المستوى الثالث . غير أنه لم يلبث أن عاد إلى استخدام المستوى الأصلى لمحاضرته .

أما النماذج التى اخترناها من المادة المسجلة التى لدينا لتمثيل الحالات التى تحدثنا عنها فهى كالتالى :

(ا) الصعود فى المستويات :

١ — النموذج الأول : يمثل الصعود من المستوى الثانى (عامية المتنورين) إلى المستوى الثالث (عامية المثقفين) . وقد حدث ذلك أثناء محادثة جرت بين الأستاذ كمال الملاخ والممثلة سميرة أحمد فى إحدى حلقات برنامج « سينمائيات » . (والتى اقتبسنا جزءاً منها من قبل) .

كان الحديث يدور فى مستوى عامية المتنورين وكان الأستاذ كمال الملاخ يسألها عن الألوان التى اشتهرت بتمثيلها (دور الحرساء على الخصوص) . وقد بدأ الحديث خفيفاً يتسم بروح المداعبة وتخلله ضحك يكاد مستمراً من المملثة ، وتبودلت فيه عبارات مثل : « ولو شفوها الناس فى الشارع حيتولوا « الخرصة أهه » و « زى ما انت عايز أكون حكون . . خرصه أو أى حاجة ، وعيه كمان . » و « يوووه دا ولا الأسيرة البيضاء » . وغيرها من العبارات التى تمثل نمطاً غير مرتفع من عامية المتنورين وفجأة أراد الأستاذ الملاخ — على ما يبدو — أن يلخص الموقف أو يستخلص منه المغزى فاتخذ صوته طابع الجد (بأن هبط به إلى طبقة صوتية أدنى) وارتفع بلغته إلى المستوى التالى وهو « عامية المثقفين » وقال: « على كل حال هى قدرة (بالقاف) من الفنان إنه يمسل أى شخصية يعجز (بفتح ياء المضارعة بمستوى عال من نطق هذا الفعل) الإنسان العادى إنه يقوم بيها » .

وما أن انتهى من هذه « الحكمة » حتى تخلص من النغمة الصوتية والمستوى اللغوى اللذين اصطنعهما وعاد إلى طريقته السابقة فأخذ يسأل مرة أخرى عن عدد الأفلام التى

مثلها مستخدماً عبارات مثل : « ولا بنت أربعتاشر » . . إلخ .[1] .

٢ ــ **النموذج الثانى** : يمثل الصعود من المستوى الثالث إلى الرابع . وقد ورد هذا المثال أثناء حديث السيدة صفية المهندس عن إضراب عمال الكهرباء بإنجلترا والذى اقتبسنا جزءاً منه سابقاً . وقد اصطنعت السيدة صفية فى حديثها المستوى الثالث من أول الأمر وتحدثت عن موقف ربات البيوت والإجراءات التى اتخذتها فى هذا السبيل وكيف أنهن حاولن تجنيد أصحاب المحلات للاشتراك فى الحملة التى كن يقمن بها وقالت : «وطلبوا من أصحاب هذه المحلات التعاون معهم . . . » وهنا وصلت إلى نقطة أرادت فيها تحديد الطلب الذى تقدمن به إلى أصحاب المحلات فقالت بتأنٍّ وضغط على الكلمات وكأنها تقتبس نص مادة قانونية بالفصحى : « . . . برفض التعامل مع عمال الكهربا ومع زوجاتهم (بمد الألف مداً طويلا فى زوجاتهم وكسر تاءها على حسب مقتضيات الفصحى) والامتناع عن تقديم أى مساعدة لهم . » وبعد أن انتهت من هذا الجزء استأنفت الحديث بالمستوى الثالث مرة أخرى وحتى آخر الحديث[2] .

٣ ــ **النموذج الثالث** : يمثل الصعود فى المستوى الرابع إلى نمط قريب جداً من المستوى الخامس ، وهو النموذج الوحيد الذى لدينا من هذا النوع على ما قدمنا . وقد ورد هذا المثال فى حلقة من حلقات برنامج بعنوان « بمناسبة ومن غير مناسبة » ، وكان يقدمها مذيع ومذيعة يستخدمان نمطاً متوسطاً من أنماط مستوى فصحى العصر . وقد بدأ البرنامج بلغة تقع فى نقطة متوسطة بين المستوى الثالث والرابع ولم يستخدما علامات الإعراب أو التشكيل الصحيح لصيغة الكلمات إلا نادراً :

المذيعة : بِمنَسْبه / (بنون مفتوحة وسين ساكنة) .

المذيع : ومِنْ غير منسبه / (بواو عطف مكسورة ، وبغين مكسورة أيضاً) .

المذيعة : صديقى المستمع /

المذيع : صديقتى المستمعة /

---

(١) نحيل القارئ إلى صفحات ١٨٧ ــ ١٨٩ من هذا الكتاب حيث اقتبسنا فيها قطعة من هذا الحديث .

(٢) نحيل القارئ إلى صفحة ١٧٣ من هذا الكتاب ففيها اقتباس لقطعة من هذا الحديث .

المذيعة : مساء الخير / (بكسر الميم)

المذيع : بِمنَسْبة العام الجديد (بكسر الجيم)/ يُقَدِّم البرنامج (بكسر الباء) لكم / أحلى أمنيات السعادة والتوفيق /

وفى هذه النقطة يأتى دور الفتاة للحديث ، ويكون نصيبها منه دعاء إلى الله . ولما كان مثل هذا الدعاء يقع عادة داخل مستوى فصحى التراث فإننا نراها ترتفع تلقائياً بلغتها نحو مستوى فصحى التراث فتقول بنمط هابط من أنماط هذا المستوى (دون أن تخطئ فى التشكيل أو تستعمل صيغاً خاطئة للأفعال أو غيرها من الكلمات) :

المذيعة : ونطلب من الله سبحانه وتعالى/أن يَشْمَل الجُمهورية العربيّة المتّحدة/ برحمته ورعايته / وأن يقود خطى شعبها إلى النصر / بإذن الله تعالى / .

وبعد أن ينتهى الدعاء يستأنفان الحديث بنفس المستوى اللغوى الذى بدءا به البرنامج فيتركان التشكيل ويستخدمان بعض الصيغ العامية أحياناً ، وترد عبارات مثل :

ومن غير مُنَسْبه ... كنت أزورْ صديقاً فى إحدى المستشفيات ... أخذ يقفز الدرجاتْ / كلّ ثَلَثْ درجات / فى وثْبة واحدة . . . إلخ .

والأمر الجدير بالملاحظة حقّاً ــ لأنه ذو مغزى فى تقرير ما نحن بصدده ــ أن المذيعين كانا يقرآن من ورقة طيلة البرنامج . فتغيرهما للمستوى أثناء الدعاء برفعه درجة إلى أعلى لا بد وأنها مسألة تخضع لقواعد أقوى فى سلطانها على الشخص من سلطان متطلبات القراءة الصحيحة وليس ذلك إلا « سلطان المستويات » كما نحاول إثباته هنا .

(ب) الهبوط فى المستويات :

تشتمل المادة المسجلة التى لدينا على نماذج متعددة لنوع واحد من الهبوط فى المستويات هو الهبوط من المستوى الرابع إلى الثالث وبغرض الشرح والتفصيل . ونحن نقتبس منها هذا المثال الذى أخذ من محاضرة عامة بعنوان « التربية فى مصر وبعض مشاكلها » .

فقد بدأت المحاضرة بفصحى العصر وبنمط متوسط من أنماطها إلى أن وصل المحاضر إلى قوله : « فقد جاء محمد على (بالضم والتنوين) إلى مصر فى بداية القرن التاسع عشر ووجد التعليم ينحصر فى نظامين : النظام الدينى القديم ، والنظام العصرى

الذى يتمثل فى المدارس الوطنية . . . (وكان هذا كله وإلى هذه النقطة بالمستوى الرابع . ويبدو أن المحاضر شعر عند ذلك بحاجته إلى إعطاء بعض الشرح لما قال فغير من نبرة صوته ، ورفع من الطبقة الصوتية التى كان يستخدمها وهبط بمستوى لغته درجة وأخذ يقول من المستوى الثالث « مستوى عامية المثقفين » : « كان موجود نظامين : نظام دينى يتمسل فى الكتتيب ومدارس الجوامع ودا كان عتيق جداً . يعنى يعلم مبادئ قراءة ودين إسلامى وقرآن وبعض الحساب . بالنسبة للأقباط واليهود المصريين كانوا برضك عاملين نفس النظام : تعليم دينى يهودى أو تعليم دينى قبطى لا يتميز عن التعليم الإسلامى فى شىء . (وبعد أن انتهى من الشرح رجع إلى الطريقة الأولى من حيث نبرة الصوت وطبقته ومن حيث المستوى اللغوى فقال : « جاء مُحَمَّدٌ على ووجد هذا النظام، ووجد إلى جانبه نظام المدارس الأجنبية . . إلخ . »

هذه لمحة عن بعض الأسس التى يتم عليها الانتقال بين المستويات فى الأحوال التى سميناها بالعادية . غير أنه يحدث أحياناً أن ينتقل المتكلم — إما عمداً أو عن غير عمد — من مستوى إلى مستوى آخر يبعد عنه بأكثر من درجة واحدة صعوداً أو هبوطاً ، كأن ينتقل من فصحى التراث مثلا إلى عامية المتنورين . وسواء أتم ذلك عمداً أو عن غير عمد فإن من شأن مثل هذا الانتقال أن يثير الضحك والسخرية . ويستغل كتاب الفكاهة والممثلون هذه الخاصية من صفات المستويات وقد يبالغون فى استخدامها . ونحن نذكر تلك الحلقات الشهيرة التى شغلت مشاهدى التليفزيون فى رمضان فى العام الماضى والتى قام جزء كبير من عوامل الإضحاك فيها على خلط بطلها « المعلم عماشه » بين المستويات المتباعدة على السلم اللغوى للمجتمع .

وبعد — فهذه لمحة من واقعنا اللغوى المعاصر حاولنا فيها أن نصدر عن المشاهد المحسوس وأن نلتزم به . كما حاولنا فى الوقت نفسه أن نفرق فى عرضنا له بين الحقيقة وبين التفسير الذى قدمناه لها ، حتى نترك لغيرنا فرصة إعادة الملاحظة والاستقراء بنفسه ثم تفسير ما يلاحظه بعد ذلك بالطريقة التى يراها هو مناسبة .

ولا حاجة بنا إلى التأكيد على أن الموضوع الذى طرقناه هنا موضوع بكر ، لا فى اللغة العربية وحدها بل وفى غيرها من اللغات . ولذلك فقد اعتمدنا كلية فى الفصل الثالث والملحق الذى تبعه (وهما صلب البحث) على ما قمنا به شخصياً من ملاحظات واستقراء .

ونحن لهذا نعترف بأن ما قدمناه هنا ليس إلا الخطوط العامة ، وما كنا قادرين فى هذه المرحلة على تقديم أكثر منها ، وكل ما نأمله أن تسنح الفرصة لنا ولغيرنا لإفراد جوانب الموضوع المتشعبة بدراسات متعمقة لم نكن قط — كما نحن الآن — أحوج إلى مثلها .

phonetics-acoustics.blogspot.com

ثبت المراجع

نثبت هنا من المراجع ما اتصلت مادته مباشرة بما تناولناه فى هذا البحث

أولا – المراجع العربية :

الكتب :

١ – د. إبراهيم أنيس
من أسرار اللغة
الطبعة الثانية
الأنجلو المصرية ١٩٥٨

٢ – أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى
الزينة فى المصطلحات الإسلامية العربية ،
تحقيق حسين بن فيض الله الهمدانى
ج/ ١ القاهرة ١٩٥٦
ج/ ١ القاهرة ١٩٦٨

٣ – أبو الفرج بن إسحق الوراق المعروف بابن أبى يعقوب النديم
الفهرست نشر جوستاف فلوجل ليبزج ١٨٧١

٤ – أبو عبد الله محمد بن أحمد مفاتيح العلم الطباعة المنيرية ١٣٣٢
ابن يوسف (الخوارزى)

٥ – أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ)
البيان والتبيين / تحقيق
عبد السلام هارون القاهرة ١٩٤٩

٦– (الجواليقى) أبو منصور موصوب بن أحمد بن محمد بن الخضر)
المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم
ليبسيا ١٨٩٧

٧ – أحمد تيمور
معجم تيمور الكبير / تحقيق
د. حسين نصار الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧١

٨ – د. تمام حسان مناهج البحث فى اللغة الأنجلو المصرية ١٩٥٥

٩ – توفيق الحكيم
الصفقة مكتبة الآداب المصرية بدون
الورطة » » » تاريخ

١٠ – د. زكى مبارك
اللغة والدين والتقاليد فى حياة الاستقلال عيسى الحابى ١٩٣٦

١١ – عبد الرحمن خلدون المقدمة مطبعة التقدم / بدون تاريخ

١٢ – (السيوطى) عبد الرحمن جلال المزهر فى علوم اللغة

١٣ – فؤاد دوارة عشرة أدباء يتحدثون كتاب الهلال

١٤ – فرح أنطون مصر الجديدة ومصر القديمة مكتبة التأليف القاهرة ١٩١

١٥ – دكتور كمال محمد بشر علم اللغة العام/قسم الأصوات المعارف ١٩٧٠

١٦ – د. محمد مندور مسرح توفيق الحكيم

١٧ – محمود تيمور المخبأ رقم ١٣ مطبعة دار الهلال ١٩٤٩

١٨ – محمود عوض عبد العال سكر مر سلسلة كتابات معاصرة ١٩٧٠

١٩ – مكتبة صادر
فرح أنطون / حياته – أدبه – مقتطفات من آثاره ١٩٥٠

٢٠ – مولوى حسينى
الإدارة العربية/ترجمة د إبراهيم العدوى
الألف كتاب بدون تاريخ

٢١ – الدكتورة نفوسة زكريا
ا – تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر
المعارف ١٩٦٤
ب – عبد الله النديم بين الفصحى والعامية
الدار القومية ١٩٦٦

٢٢ – وجدى رزق غالى
المعجمات العربية الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧١

٢٣ – يوهان فك العربية
دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب
الخانجى ١٩٥١
ترجمة د. عبد الحليم النجار

الدوريات :

١ – جريدة الأهرام .
٢ – جريدة الأخبار .
٣ – مجلة مجمع اللغة العربية .
٤ – محاضر جلسات مجمع اللغة العربية .

تسجيلات :

اعتمد البحث بصفة أساسية على كمية كبيرة من الأشرطة المسجلة لبرامج الإذاعة والتليفزيون بين عامى ١٩٧٠ – ١٩٧٢ ، كما اعتمد على تسجيلات أخرى لمحاضرات جامعية مختلفة .

ثانياً ـ المراجع الأجنبية

(1) Blau, Joshua. The emergence and linguistic background of Judaeo — Arabic. Oxford University Press, 1965.

(2) Ferguson, C.A. Aradic Koine, Language, 1959.

(3) Haywood John A. Arabic Lexicography, Brill, Leiden, 1960.

(4) Harrell, Richard S. Contribution to Arabic Lingustics, Harvard University Press. 1964.

(5) Killean Carolyn G. Mixed style in Egyptian Arabic. University of Chicago 1970.

(6) Mitchell, T.F. An introduction to Egyptian colloquial Arabic, Oxford University Press. 1956.

phonetics-acoustics.blogspot.com

محتويات الكتاب

الصفحة

مقدمة : عن المنهج ٧ — ١٦

ص ٧ الحاجة إلى المنهج العلمى فى معالجة مشاكل اللغة العربية — من أهم هذه المشاكل حقيقة التركيب اللغوى للمجتمع المصرى — الفصل الحاد بين كيان الفصحى والعامية فى الاستعمال اللغوى فى مصر أمر يتنافى مع الواقع — ص ٨ طبقات المجتمع الثقافية والحضارية متداخلة بصورة يتعذر معها الفصل بينها — ص ١٠ لغة المجتمع المصرى متدرجة من أقصى درجات الفصحى إلى أدنى طبقات العامية ومتداخلة فيما يشبه السلم اللغوى — لكل فرد مركز على هذا السلم تحدده خلفياته الثقافية — ص ١٣ يتغير هذا المركز تبعاً لتغير ثقافة الفرد — ص ١٤ ينطبق هذا على لغة المجتمع أيضاً — ص ١٥ الإصلاح اللغوى للفرد والجماعة يكون تبعاً لذلك بإصلاح مقومات حياتهم الحضارية .

الفصل الأول : الأصول التاريخية للمستويات اللغوية ١٧ — ٤٧

ص ١٩ أربعة أحداث حضارية كبرى أثرت على تطور اللغة العربية أكثر من غيرها :

الحدث الأول : ظهور الرغبة الجماعية لدى سكان الجزيرة العربية فى إيجاد مؤسسات عامة تمتد خارج حدود القبيلة — نشأة نوع عام من اللغة يمتد خارج حدود لغة القبيلة أيضاً (الازدواج اللغوى) — ص ٢٢ الحدث الثانى :

الصفحة

مجيء الإسلام بأفكار جديدة استدعت وجود قوالب تعبيرية موازية لها — ص ٢٣ الحدث الثالث : استيطان العرب خارج الجزيرة مما فرض على اللغة العربية مهمة التعبير عن مقومات حضارية ليس لهم بها عهد — ص ٢٧ ظهور الحاجة إلى مفردات إضافية — ظهور اللحن — ص ٣٨ حركة تقعيد الفصحى جمدت قوالبها وفصلت بينها وبين العامية فصلا حادا — ص ٤٠ تخصص كل من العامية والفصحى بدور فى المجتمع — ص ٤١ الفشل فى تعلم الفصحى ساعد على خلق مستوى لغوى ثالث — ص ٤٦ الحدث الرابع : مجيء الحملة الفرنسية وانفتاح المجتمع على صور حضارية ليس لأهله بها عهد — اضطراب اللغة أمام الطوفان الحضارى الوافد — ظهور ألوان تعبيرية جديدة — ص ٤٧ اضطراب حركة التقييم العلمى لهذه الألوان — الرغبة فى الإصلاح لا بد وأن يسبقها وصف واقعى للصورة اللغوية فى المجتمع — وهو هدف هذا البحث .

الفصل الثانى : المستويات فى مصر كما يراها الباحثون ٥٠ — ٨٦

ص ٥١ التفريق بين مصطلحات : « المستوى اللغوى » و« اللهجة » و« اللغة » و« المجتمع اللغوى المتكامل » — آراء الباحثين فى لغة المجتمع المصرى الرأى الأول : ص ٥٤ الفصحى وحدها هى لغة المجتمع وما سواها مجموعة من الأخطاء — ص ٥٥ الرأى الثانى : العامية لغة قائمة بذاتها وهى قسيم الفصحى فى المجتمع — دلائل استقلال العامية — ص ٦٧ الرأى الثالث : اللغة الوسطى تقتسم مع الفصحى والعامية النشاط اللغوى فى المجتمع المصرى — جهود فرح أنطون فى استخدامها — ص ٧٠ محاولات توفيق الحكيم فى اللغة الثالثة — ص ٧٢ تقييم تجربة توفيق الحكيم — ص ٧٨ القول بوجود مقويات فى الفصحى أيضا ودراسات الغربيين فى هذا الشأن — ص ٨١ وجهة نظر الدارسين فى مصر .

الصفحة

الفصل الثالث : مستويات العربية فى مصر المعاصرة ٨٨ — ٢٠٠

ص ٨٩ وجود خمسة مستويات لغوية هى ما يمكن تسميته : فصحى التراث وفصحى العصر وعامية المثقفين وعامية المتنورين وعامية الأميين — تحديد مبدئى لهذه المستويات — ص ٩٢ العوامل التى تحكم تفاعل هذه المستويات بعضها مع بعض — ص ٩٣ انسياب المستويات داخل بعضها البعض نتيجة لتصارع عوامل للفصل وأخرى للمزج بينها — ص ٩٦ قواعد التفريق بين المستويات — ص ٩٧ الصفات اللغوية التى تميز كلا من المستويات الخمس : ترجع هذه الصفات إلى الفصحى والعامية واللغات الأجنبية — ص ٩٨ تختلط هذه الصفات بنسب متدرجة ومنتظمة — ص ٩٩ كيفية توزيع صفات الفصحى على المستويات الخمس — ص ١٠٦ امتزاج هذين النوعين من الصفات بصورة منتظمة — ص ١٠٨ نصيب المادة القادمة من اللغات الأجنبية فى هذه المستويات — ص ١٠٩ النظام الذى يسير عليه تسرب الدخيل إلى كل من المستويات الخمس — ص ١١٨ الأسس التى اتبعت هنا فى اختيار الصفات اللغوية المستخدمة فى المقارنة بين المستويات — ص ١١٩ الصفات الخاصة بكل من المستويات الخمس على حدة :

الصفات اللغوية التى تميز فصحى التراث : الفرق بين « فصحى النحو » و« فصحى التراث » — ص ١٢٠ الصفات المختارة للدراسة — ص ١٢٠ الأصوات — ص ١٢٤ بنية الكلمات — ص ١٢٥ بنية الجمل — ص ١٢٦ نموذج لهذا المستوى .

الصفحة

ص ١٢٧ الصفات اللغوية التى تميز فصحى العصر :
تحديد هذا المستوى — ص ١٢٨ انشعاب هذا المستوى إلى أنماط لغوية وأمثلة لها — ص ١٣٤ الصفات التى تصلح أساساً للتفريق بين فصحى العصر وفصحى التراث — ص ١٣٦ الصفات التى تستخدم لتحديد فصحى العصر — ص ١٣٦ الأصوات — ص ١٣٩ بنية الكلمات — ص ١٤١ بنية الجمل — ص ١٤٥ نموذج مسجل من الإذاعة لهذا المستوى .

ص ١٤٨ الصفات اللغوية التى تميز عامية المثقفين : تحديد عام لهذا المستوى — ص ١٥٠ أسباب ازدهار عامية المثقفين — ص ١٥١ المنابع التى تستقى منها عامية المثقفين — ص ١٥٥ الصفات التى تستخدم فى التعرف على عامية المثقفين — ص ١٥٥ الأصوات — ص ١٦٦ بنية الكلمات — ص ١٦٩ بنية الجمل — ص ١٧٣ نموذج لعامية المثقفين .

ص ١٧٥ : الصفات اللغوية التى تميز عامية المتنورين :
تحديد عام لهذا المستوى — ص ١٧٨ الصفات اللغوية التى تستخدم لتحديد عامية المتنورين — ص ١٧٨ الأصوات — ص ١٨٤ بنية الكلمات — ص ١٨٤ بنية الجمل — ص ١٨٧ نموذج مسجل لهذا المستوى .

ص ١٨٩ : الصفات اللغوية التى تميز عامية الأميين :
تحديد عام لهذا المستوى — ص ١٩٢ الصفات اللغوية التى تستخدم لتحديد عامية الأميين — ص ١٩٣ الأصوات — ص ١٩٦ بنية الكلمات — ص ١٩٧ بنية الجمل — ص ١٩٨ نموذج مسجل لهذا المستوى .

ملحق : بعض المسائل المتعلقة بالمستويات بصفة عامة ٢٠٢ — ٢١٣

ص ٢٠٣ ظروف اكتساب الأفراد لكل من المستويات

الصفحة

الخمس : مستويات تكتسب بظروف الميلاد فقط — ص ٢٠٤ مستويات تكتسب بالتلقين المدرسى فقط — ص ٢٠٥ مستويات تكتسب عن طريق التلقين المدرسى وظروف الميلاد معاً — ص ٢٠٦ علاقة عدد المستويات التى يحسنها الشخص بدرجة ثقافية .

ص ٢٠٧ أسس الانتقال بين المستويات أثناء الحديث — المستويات التى يتم بينها الانتقال — ص ٢٠٨ اتجاه الانتقال بين المستويات (صعوداً أو هبوطاً) ومداه — ص ٢٠٩ نماذج الصعود فى المستويات — ص ٢١١ نماذج للهبوط فى المستويات — ص ٢١٢ خاتمة .

phonetics-acoustics.blogspot.com

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٨٨٥ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣